

L A W S O F J A R T I N

قواعد چارتین ۳

عمرو عبد الجمید

أمواج أكمل

رواية



الجزء الأخير من ثلاثة «قواعد چارتین»
التي تضم أيضاً «قواعد چارتين»
و«دقات الشام».»

عصير
الكتب

أمواج أكما

رواية

أموال آدم

قواعد چارتین ۳

د. عمرو عبد الحميد



إِلَيْهِ

إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي لَا سَقْفَ لِطَمْوِهِ

محمد شوقي

مؤسس عصير الكتب

(١)

ذٰهِر

لم يستغرق الأمر كثيراً من الوقت بعد رحيل الطبيب السجين مع النسالى الزائرين لتهدا الأجواء إلى حد السكون، ومع توقف المطر عن هطوله استجمعت قواي الخائرة، ونهضت من رقتى بالزنزانة، وخطوت في حذر شديد إلى الرواق المتد أمامها، لأكمل طريقي بقلب مضطرب إلى الباب الرئيسي لذلك الطابق من الزنازين أتفادى بقدمي جث الجنود التي تناثرت في كل المرات غارقة في دمائها، إلى أن وصلت سلم السجن، وهناك وجدت مزيداً من الجثث تناشر على درجاته السفلية، فخشيت أن أكمل طريقي إلى أسفل، وصعدت في حذر إلى أعلى تجاه السطح الذي كنت أعتليه أثناء مراسم يوم الغفران، لأجد كل الجنود الذين كانوا يرقدون بأسلحتهم من أجل اقتناص النسالى بالباحة قد قُتلوا جميعاً، ومعهم ذلك القائد الذي كلفه عمي بإشعال الشعلة الكبرى بعد إعدام الرامية، بعدها وقفت على حافة السطح المواجهة لباحة جويدا وألقيت نظرة إليها، لأرى أرضها قد اكتظت بجثث أشرف چارتين وجراحهم على امتداد مساحتها، فيما اختفى جميع النسالى سواءً كانوا عاديين أو زائرين.

ركضت إلى الحواف الأخرى وتفحصت بعيني الشوارع المجاورة للسجن، كانت جميعها خاوية إلا من بعض الجرحى الذين عجزوا عن مواصلة الفرار بعيداً وقعوا في أماكنهم يتاؤهون في انتظار نجدة قد تأتيهم .. ثم تأكّدت من عدم وجود أي نصلي بالأسفل، فهبطت السلم راكضاً بأقصى سرعة لي، لأغادر ذلك السجن إلى الشارع المؤدي إلى بيتنا، وبعدها لم تتوقف ساقاي عن الركض إلى أن وصلت بابه، للتلقاني أمي غير مصدقة بعدهما ظلت لوهلة أنها قد فقدتني، سألتها على الفور:

- أين أبي؟!

قالت في توتر وهي تفحص جسدي بحثاً عن أي إصابة بي:

- لم يعد بعد، قال أحد الجيران بأنه قد رأه على مقربة من دار الأمن قبل قليل مع عملك كيون.

قلت:

- نعم لقد غادر في البداية.

قالت أمي في خوف شديد:

- هل ما سمعنا به يصل إلى ذلك الحد الكارثي أم أن الناس يهؤلون الأمور؟!

نظرت إليها وإلى أخوي اللذين وقفا يترقبان حديثي، وأومأت برأسى إيجاباً وقلت:

- لا بد أن نغادر جويداً في أسرع وقت.

فهزت رأسها إيجاباً في توتر، وقالت:

- سنفعل، ولكن علينا أن ننتظر حتى يعود أبوك.



حزمنا أمتعدنا جميعاً، وحزمت أمي أمتعة أبي، وبقينا في انتظار عودته بفارغ الصبر من أجل الرحيل إلى بريحا والبقاء هناك في مأمن بعيداً عن النسالى وعن جويدا التي صارت غير آمنة بالمرة، لكن عودته قد تأخرت كثيراً تلك الليلة، فتركت أمي وأخوي ودخلت إلى غرفتي.

كان السكون في ذلك الوقت بالخارج قاتلاً، جلست خلف نافذتي المواربة أنظر إلى الشارع الخاوي أمامي وأنطلع إلى السماء في إنصات شديد محاولاً تبين أي صوت للطبول أو أصوات زئير جديدة قد تأتي معها هجمة أخرى من هجمات النسالى المتوحشين، ثم أجمل جسدي حين ظهر صوت مفاجئ في الشارع أمامي، لكنني هدأت حين وجدتها عربة خشبية تحمل إحدى الأسر التي بدت وكأنها اتخذت قرارها بالرحيل عن المدينة قبل طلوع الفجر، ومن بعدها تكرر ذلك الأمر مرات عديدة. وجدت أخي يدلل إلى ويعطيني سلاحاً نارياً كنت أعرف أنه من أسلحة أبي، وقال وهو يحشو سلاحاً آخر لنفسه بطلقاتٍ من البارود الحي:

- ربما يكون ذا فائدة إن أتوا من جديد.

فهززت رأسي نافياً، وقلت في يأس:

- لن يفيد ذلك شيئاً، لقد رأيت بعيني كيف تتحمل أجسادهم العديد من الطلقات الناريه، كذلك رأيت سرعة الانقضاض التي يمتنعون بها.

سألتني أخي التي كانت تقف خلف أخي مرتبة الجسد:

- هل يأكلون قتلامن؟!

قلت وأنا أنظر إلى عربة جديدة تحمل بعض الأفراد وتعبر الشارع من

أمام بيتنا:

- إنهم يقتلون فحسب، تركوا وراءهم العديد من الجثث.
سألني كرم:

- لماذا انسحبوا إذن طالما لم تستطع الأسلحة الخفيفة فعل شيء معهم؟

قلت:

- لا أعلم، إنهم يدركون ما يفعلونه، لقد رأيتمهم يحمون الرامية من طلقات الجنود ويحررون النسايا المحتجزين، كما حرّروا شخصاً غريباً كان محتجزاً بإحدى الزنازين ورحبوا به، قال ذلك الشخص بأنّ أخبار عمّي بأنّ عهد القواعد قد ولّى، ربما انسحبوا لينظموا صفوفهم استعداداً لهجمة أكثر شراسة يستطيعون معها القضاء علينا جميعاً.

قالت أختي في تذمر كبير:

- لماذا تأخر أبي كل هذا الوقت؟ علينا أن نغادر.

قلت:

- لا بد أنه يفكّر مع عمّي فيما سيحدث بالأيام القادمة خاصةً مع بقاء مدافعه في الجنوب دون القدرة على استعادتها.

ثم رأيت عبر النافذة أحد الفرسان يقترب بحصانه من بيتنا، ولم تمر بضعة دقائق حتى وجدت بابنا يُطرق، فأسرعت أنا وأخواي إلى الردهة عندما فتحت أمي الباب، فقال ذلك الفارس بأنّ أبي من أرسله إلينا بغية الاطمئنان على سلامتنا جميعاً وإخبارنا بأنه سيتغيب لبعض الأيام بعدما عُيّن مستشاراً حربياً للقائد كيوان، وهمَّ الفارس بالغادرة، فومض في

عقلني في ذلك الأوان النقاش الذي دار بيني وبين مساعد عمي الذي قُتل على سطح السجن بشأن صديقي آدم، وعن استحالة كونه حفييد العجوز خشيب، واهتمام ذلك القائد بإبلاغ عمي عن ذلك الأمر على الفور دون انتظار الانتهاء من يوم الغفران، فصمت للحظة قبل أن أنطق إلى أمي:

- أريد أن أرى أبي وعمي.

قالت أمي:

- لم يعد هذا وقتاً للمغامرات.

قلت:

- إننا في حالة حرب الآن يا أمي، وعلى بعد خطوة صغيرة من القتل على يد النسالي.

وصمت للحظة أخرى من التردد، ثم قلت وأنا أنظر إلى الفارس:

- إنني أعرف شيئاً قد يفيد أبي وعمي في هذا التوقيت.
نظرت إلى مستغربة فيما نظر إلى الفارس متربقاً، فتابعت:

- عليّ أن أخبرهما بشيء يخص صديقي آدم.



(٢)

غُفران

أخذ عقلِي بعضاً من الوقت ليستوعب أن ما كان يحدث في الباحة أمام عيني بعد صعودي إلى المنصة ليس حلمًا أغوص في أعماقه بين جدران زنزانتي.

مع منتصف يوم الغران تم اقتيادي مُكبلة اليدين والقدمين إلى أعلى المنصة وكلّي يقين أن سبيل التي أعرف شخصيتها جيداً لن تقوى على فعلها، وأن كيوان المجنون لن يتوانى عن قتل كل نسلي بعد إعدامي كما توعّدني في ذلك اليوم الذي زارني به في السجن.

حين أوقفني الجنديان بمنتصف المنصة نظرت لثوانٍ في يأس إلى النساء المُجتمعن في الجانب الجنوبي الشرقي من الباحة، ثم أغمضت عيني عندما بدأ القاضي الكبير في إلقاء التهم الموجّهة لي دون أن أشغل بالي بكلمة واحدة مما يقوله، كل ما كنت أفكّر فيه هي الأحداث الكثيرة التي مررت بها في حياتي منذ وطأت قدماي الباحة لأول مرة في عمر الثامنة حتى وقوفي على منصتها كمذنبة تتقدّر رصاصة النهاية في أي لحظة قادمة.

لكن الأمور جميعها تبدلت حين شب ذلك الضجيج المفاجئ في الباحة والذى غطى على صوت القاضي، لأفتح عيني وأرى النسالى المحاصرين بين صفوف الجنود قد كسروا حصارهم وبدأوا في الركض بجميع أنحاء الباحة بين أشراف چارتين، شعرت بالارتباك الذي أصاب سادة المنصة وعلى رأسهم كبير القضاة الذي توقف عن إكمال كلمته، وانسحب خائفاً ومعه باقي السادة عبر السلم الخلفي للمنصة، نظرت إلى كيوان، نظر في عيني نظرة طويلة لم أفهمها، قبل أن يلتفت إلى اثنين من النسالى حاولا تسلق المنصة وقتلهما بسلاحه الناري، ثم صاح إلى باقي الجنود والفرسان بأن يقتلوا كل نسلي في الباحة، لكنه لم يكمل كلماته حتى وجدنا ثلاثة من السهام المشتعلة تتطلق في توالٍ من منتصف الباحة إلى سطح سجن جويدا المجاور، لتشتعل شعلته الكبرى، بعدها بلحظات دوى صوت المدافع الرهيب في الجنوب، نظرت إليه في ذهول وأنا لا أصدق أنه قد فعلها فعلاً، وأن مدفعه الكبرى قد بدأت في إبادة وديان النسالى للتو، وكدت أسقطت على ركبتي حسرة بعدما شعرت أن ساقي لم تعودا تقويان على حملي، لكنني نظرت إلى النسالى بالباحة الذين لم يتوقفوا للحظة واحدة عن التوغل بين أشراف چارتين دون أن يستطيع جنود الأشراف استخدام أسلحتهم النارية ضدهم لأنهم خططوا لما يقومون به جيداً، حتى توقفت المدفع عن ضربتها الأولى لتتسع حدقتا عيني انفعالاً عندما صدعت في الأفق دقات الشامو، نظرت من جديد إلى كل نسلي يركض في الباحة غير مصدقة ما بدأ يخطر في بالي، ثم صدر صوت الزئير الأول من الجهة الغربية من الباحة، فنقطت إلى نفسي في ذهول كبير:

- سبيل!! هل فعلتها حقاً؟

بعدها صدر الزئير الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، ولم تمر لحظة واحدة بعد ذلك دون سماع زئير جديد وسط صراخ الأشراف المرتبعين الذين بدأوا في الفرار والركض عبر بوابات الباحة وأسوارها المنخفضة غير عابئين بما قد تسببه أطرافهم الحديدية المدببة من إصابات بالغة لأجسادهم.

كان كيوان لا يزال يقف أمامي ينظر إلى ما يحدث في الباحة دون أن يحرك ساكناً وكأنه جُمد في موضعه، قبل أن يستفيق من جموده ويطلق النار نحو نسي لي زائر كان يتسلق جانب المنصة، بعدها نظر في عينيه نظرةأخيرة وهرول بظهيره إلى مؤخرة المنصة، ليغادرها دون أن يصوب سلاحه الناري نحوه، بعدها بدأ وايل من الطلقات النارية يأتي بكثافة من أعلى السجن تجاه الباحة، فرأيت بضعة من النساى الزائرين يتربكون اشتباكهم مع الأشراف ويركضون نحو المنصة. كنت أعلم أنهم قادمون من أجلي، ولو كنت في مكانٍ أو آن آخرين لأصابني الارتعاب منهم، لكن أن تكون على بعد لحظة من الموت ثم يحدث ما حدث فلا مبرر للخوف من شيء على الإطلاق، ووجدت نفسي أرکض إلى حافة المنصة تجاههم لأرتمي إلى أحدهم، فاحتواتني بين ذراعيه القويين برفق كأنه يعلم تماماً من أنا، قبل أن يغطياني الباقيون بأجسادهم ويتحرکوا بي ناحية جنوب الباحة .. نظرت عن قرب وقتها إلى هيئة النساى الزائرين المختلفة من واحد إلى آخر، ورأيت ما يفعلونه بأشراف چارتین المرتبعين وجنودهم الذين ظهروا بلا حول ولا قوة أمام سرعة انقضاضهم، لأدرك لحظتها أن مصير چارتین قد تبدل في ذلك النهار.

ثم خرجنا عبر البوابة الجنوبية إلى الطريق الرملي المؤدي إلى وادي النساى، وهناك أنزلني النسي لي زائر برفق بعدما صرنا بعيدين عن

مرمى جنود سطح السجن، ووقف أمامي هو والباقيون لأنهم ينتظرون أوامر، كان نسلي زائر منهم ينزف بغزاره، لكنه ظل واقعاً على قدميه غير عابئ بالدماء الكثيرة التي تجمعت على الرمال من أسفله، إلا أن آخر سقط على الأرض فجأة ليظهر أمامي ظهره الشاحب المصاب بأكثر من طلقة نارية، وبدأت أنفاسه تهدأ رويداً رويداً حتى سكت تماماً، هبطت على ركبتي وتحسست رقبته، فأدركت أنه فارق الحياة، فقلت لمن كان يحملني منهم:

- أخبر النساى الباقيين أتنا سنعود إلى الجنوب.

فأواماً برأسه إيجاباً قبل أن يلتفت إلى الثلاثة الآخرين ويحرك رأسه بإشارة إليهم، ثم استدار وركض بمفرده إلى الباحة مرة أخرى، فيما التفت النساى الثلاثة حولي ممعظين ظهورهم لي دون أن يكفوا عن التلفت يميناً ويساراً كأن ذلك الزائر قد كلفهم بحمياتي قبل رحيله، فكرت في الدماء الكثيرة والقتلى الذين شهدتهم الباحة وكيوان الذي تركني وكان باستطاعته قتلي، ونظرت إلى جثة النسلي الزائر الذي مات قبل قليل متأثراً بجراحه كذلك النسلي الآخر النازف بين الثلاثة المحيطين بي والذي تزايد شحوبه وهدأت حركته عن الباقيين مع مرور الوقت .. كنت أظن حين أخبرنا العجوز عنهم في الكهف أنهم غير قابلين للقتل بالأسلحة النارية، لكنني كما رأيت، تتحمل أجسادهم مزيداً من الطلقات النارية عن البشر لكنهم في النهاية معرضون للموت أيضاً، ولا بد أن كيوان ومساعديه سيدركون هذا الأمر في أقرب وقت.

بعدها بدأ مزيدٌ من النساى الزائرين ومعهم عشرات من النساى الذين لم يتتحولوا يظهرون في الأفق قادمين من الباحة على خيول كنت لا أحتج من يخبرني أنها خيول فرسان الأشراف، لأنهم لبّوا أمر

من سأله أن يخبرهم بالعودة إلى الجنوب، وما إن اقتربوا مني حتى
اصطفوا أمامي في ثلاثة صفوف منتظمة حاملين في أيديهم الأسلحة
النارية التي اغتنموها، وتعلموا لي في صمت منتظرين ما أمرهم به، لم
أكن أعرف ماذا أقول أو أقرر، لكنني عندما سمعت صوت نوبة جديدة من
دقات الشامو تأتي من الجنوب قلت لهم وأنا أنظر إلى النسلي الزائر
النازف الذي خارت قواه وسقط على الأرض مفارق الحياة هو الآخر:

- لنعد الآن إلى الوادي.

ثم قلت لشاب نسلي غير متحوال:

- أخبر الباقيين في الباحة والأماكن المحيطة بها بأن يتبعوننا جميعاً
إلى الجنوب.

قال:

- حسناً سيدتي.

ثم أعطاني حصانه، وعاد راكضاً تجاه الباحة على قدميه، فامتطى
الحصان وناديت بصوتي إلى الباقيين:

- إلى الجنوب.

لتركض بنا الخيول تجاه الوادي كل ما أفكر فيه أن أمنع ضاربي
الطبول بالجنوب من التقدم شملاً تجنبًا لسقوط المزيد من قتلى
الأشراف أو النساوى، ثم ظهر على الطريق اثنان من جنود الأشراف
يركضان تجاه جويداً غارقين في دمائهما، كان واضحًا أنهما ممن كلفوا
بتوصيب المدافع نحو ودياننا، تجمداً في أماكنهما رافعين أيديهما في
استسلام حين رأنا، وفي لحظة وجدت أحد الزائرين قد انحرف بحصانه

نحوهما ومال بجذعه وضرب بمخالبه رقبة أحدهما فأرداه قتيلاً من ضربة واحدة، فأجل جسدي مضطرباً، وحين وجدته يستدير بحصانه لي فعل بالأخر ما فعله بالأول صرخت فيه بأن يتركه، ففعل ما أمرته به دون أي اعتراض، لنواصل طريقنا مبتعدين عن ذلك الجندي وعلقلي يضج بأسئلته الصادبة، هل أستطيع حقاً السيطرة على هؤلاء المتحولين؟ إنهم ينساعون لأوامرِي كما رأيت لكنهم متعطشون للدماء، وماذا عن باقي النساى الزائرين الذين يدقّون الطبول في الجنوب؟ هل سينصاعون لهم الآخرون لأوامرِي؟ أم ستغلبهم شهوة الانتقام ليقتلوا كل شريف على أرض چارتين؟ وبدأ داخلي يحملني سريعاً مسؤولية قتل الجندي المستسلم الذي لقي حتفه قبل قليل، لعلي لو أمرت لحظتها النسلي الزائر بتجنبه لنجا هو الآخر. قابلنا بعض الجنود الفارين الآخرين، كان أحدهم يحمل سلاحاً نارياً ويصوّبه تجاهنا بأيد مرتعشة في يأس دون أن يطلق النيران، زمجر أحد النساى من ورائي، فأسرعت بالصرارخ في الجميع بأن نواصل طريقنا دون الالتفات إلى أي منهم، ولكن حصاني بقدمي كي يسرع من ركضه، ففعل الآخرون مثلِي، لنكمِل طريقنا دون توقف، فلم يطلق ذلك الجندي أي بارود نحونا، وحين التفت إليه وجدته سقط على ركبتيه لاهثاً كأنه لا يصدق أنه قد نجا .. ثم ظهر أمامنا دخان كثيف يتتصاعد إلى السماء عندما استدار بنا الطريق، وجدناه حين اقتربنا منه صادراً من أحد المدافع الذي اشتغلت به النيران فيما سقط من حوله سبعة جنود قتلى، أبطأت من سرعة حصاني ودررت حول عربة ذخيرة المدفع التي كانت تبتعد عن النيران ببضعة أمتار، ونظرت إلى أحد النساى غير المتحولين وقتلت:

- فلتخمدوها هذه النيران بالرماي قبل أن تصل إلى عربة الذخيرة،
لم يعد هذا المدفع صالحًا للعمل على أي حال.

ثم واصلت طريقي مع الباقيين بعدما تركنا ثلاثة من النسالى أحدهم زائراً من أجل إخمام تلك النيران وإحضار عربة الذخائر إلى الجنوب، ليظهر مع مضيفنا أكثر وأكثر مزيداً من المدافع المحترقة ومن حولها جث أطقمها من الجنود، وفي كل مرة كنت أسأل بعضاً ممن معى بأن يبقوا لإخمام نيران تلك المدفع ومن ثم اللحاق بنا بعربات ذخائرها، بعدها انحرفت بحصاني ومعي النسالى لنتخذ طريقاً آخر غير المؤدي إلى وادينا كنت أعرف أنه منبسطٌ ليناسب اصطدام مدفع كيوان المصوّبة إلى ودياناً بغية أن أجده بعضها غير محترقة لعلها تقيدنا فيما هو قادم، وجدت عشرات منها بالفعل كما توقعت، لكنها لم تختلف عما سبق وأن وجدناه، كانت جميعها محترقة بالطريقة ذاتها وإن قل عدد القتلى من حولها هناك، فأدركت أن جنود كيوان هم من قاموا بإحرافها بأنفسهم بعدما أيقنوا بالهزيمة خشية أن تقع في أيدي النسالى.

ثم التفَّ بنا الطريق حول سفح جبل كبير ليؤدي إلى طريق آخر كنت أعرف أنه ينتهي بثاني أكبر وديان النسالى بعد وادينا، لم يخلُ ذلك الطريق هو الآخر من المدفع المتناثرة المشتعلة. وكأن النسالى من حولي قد فهموا اهتمامي الكبير بإحضار الذخائر إلى الجنوب كان العدد من ورائي يتناقص مع مرورنا بكل مدفع اثنين أو ثلاثة منهم، حتى تبقى معى أربعة فقط، اثنان زائران واثنان غير متحولين.

تعجبت أتنا على مدار الطريق من الباحة إلى الجنوب لم نقابل نسلياً زائراً واحداً غير الذين عادوا معى، لكن تعجبى لم يدم طويلاً عندما

دقت طبول الشامو من جديد، فصحتُ إلى من معي بأن نسرع في اتجاه صوت الطبول، وعرجنا بالأحسناء إلى ممر جبلي مختصر عائدين إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى وادينا لنركض به مرة أخرى، حتى ظهر الوادي في مرمى بصرنا ليدق قلبي مضطرباً بعدما رأيت السنة اللهب وأعمدة الدخان يتتصاعدان من كافة أركانه، ركضنا نحوه بأقصى سرعة لخيولنا، كان السواد والخراب عنوان كل شيء هناك، دُمِّر الوادي وأكواخه عن بكرة أبيهم، أبطأنا من سرعة خيولنا حين دلفنا بين الأكواخ المحترقة، ثم ترجلنا وواصلنا التقدم سيراً على أقدامنا، كانت ثمة جثة وصدر بعضها ممن لم تحرق أجسادهم بالكامل، ز مجر النسليان الزائران معي بقوة، فيما أصابت الصدمة النسليين الآخرين ونحن نواصل سيرنا بين الخراب، قال أحدهما غاضباً:

- لم يكن علينا ترك شريف واحد حياً.

لم أنطق وواصلت سيري مشتتة الذهن، كان كoxy قد دُمِّر بالكامل هو الآخر فيما تبقى جدارٌ واحد من كوخ التخزين، لم أتوقف عندهما وواصلت تقدمي بين الطرقات أبحث بعيني في كافة الأرجاء عن ناجين أستطيع مساعدتهم، كانت جميعها جثثاً ساكنة محترقة بالكامل أو أجزاء منها.

قلت في نفسي:

- هذا ما أراده كيوان، ضربة مدفعية واحدة دمرت الوادي بأكمله.
دقت طبول من جديد جنوباً، فامتنعت حصاني ودون أن أقول شيئاً للآخرين انطلقت به نحو الشارع الرئيسي لوادينا المدمر، فتبعونني

بأحصنتهم، لنعبر إلى الجهة الجنوبية من الوادي حيث الطريق المؤدي إلى الجبال الحمراء، والذي قطعه من قبل مع فاضل وسبيل في رحلتنا إلى كهف العجوز خشيب، لنكمل طريقنا عبره.



كان صوت الطبول وصداه يتزايدان أكثر وأكثر مع ركضنا بالخيول ناحية الجنوب، وكلما ظننت أننا اقتربنا أخيراً من مصدر الدقات، وجدت أن هناك مسافة أخرى علينا قطعها، حتى بدأت الجبال الحمراء في الظهور، ومعها تشتت صدى الصوت من حولنا، فسبقني إلى المقدمة أحد النسليين الزائرين بحصانه وزاد من سرعة ركضه إلى السرعة القصوى، فصحت بحصاني كي يلحق به، لقطع مسافة أخرى ليست بالقليلة بين ممرات تلك الجبال، قبل أن تتسارع دقات قلبي عندما بدأ صوت الطبول يختلط بوضوح مع أصوات الزئير بعدما انحرف بنا النسلى الزائر فجأة إلى ممر جبلي ضيق بين جبلين شاهقين وأبطأ من سرعة حصانه إلى درجة التمشي، فأبطأت من سرعة حصاني أنا الأخرى، وتقدمت به في حذر وترقب، بعدها كاد قلبي يتوقف من هول المفاجأة عندما انتهى ذلك الممر بسهلٍ واسع جداً يمتد بين الجبال الشاهقة، يقف به ألف النساى متراصين بانتظام، يتقدمهم النساى الزائرون بارزى العضلات والأنياب، يدق بعضهم طبولًا دائرية كبرى يصل قطر الواحدة منها قرابة المترین دون توقف، فيما يقف شبان النساى غير المتحولين عاري الصدور في صفوف منتظمة خلفهم، تتبعهم النساء والفتيات والأطفال في الصفوف الخلفية.

ووجدت النسليين الزائرين المرافقين لي يزأران بقوة، فانتبه الجميع
إلينا وتطلعوا ببرؤوسهم نحوه في آن واحد، دق قلبي مسرعاً من جديد
وخاصةً مع إسراع ضاربي الطبول من إيقاعهم، ثم وجدتهم يتلقون في
تناغم شديد ليواجهوني بأجسامهم، بعدها توقفت الطبول فجأة، وزأر
جميع النسالى من أمامي، ليرتج صدى صوتهم بين الجبال الشاهقة،
ثم هبطوا جميعاً على ركباتهم اليمنى كأنهم خضعوا لي، وهبط باقي
النسالى غير المتحولين بالصفوف الخلفية مثلهم، لم أدرِ ماذا أفعل أو
أقول، كان كل ما يحدث مفاجئاً لي، لم ينجذني من تلك الصدمة إلا
ريان الذي تقدم من بين الصفوف، وهبط على ركبته اليمنى أمامي،
وقال بنبرة رسمية:

- إن النسالى في انتظار ما ستأمرين به سيدتي.



(٣)

مُفراًن

نطقُت في ذهول:

- ريان؟! ماذا حدث؟!!

قال بالنبرة الرسمية ذاتها، وهو ينهض:

- سأخرك بكل شيء سيدتي.

وأشار بيده كي أتبعه، فتحركت من ورائه تجاه حشد النسالي، ثم اقتربنا من الصف الأول فتحرك على الفور النسليان الزائران المواجهان لنا مبعدين عن بعضهما ومن خلفهما قام الباقيون بفعل الأمر ذاته في تناغم شديد، ليصنعوا لنا ممراً مستقيماً تقدمنا عبره إلى داخل الصفوف.

كانت أصوات أنفاس الزائرين الصاذبة تخترق آذاني وأنا أتفقدهم يميناً ويساراً دون أن يلتفت لي أحدهم أو يحرك رأسه حتى عن النظر أمامه كأنهم خلقوا جنوداً يعرفون جيداً نظام الحياة العسكرية التي درستها لسنوات في مدرسة الضباط العليا، ثم انتهينا من عبور صفوف الزائرين فاستقبلني باقي النسالي غير المتحولين بترحاب شديد متخللين عن انتظامهم بصفوفهم، وخاصةً عندما احتضنتي الفتيات والنساء

وأطلقت زغاريدهن فرحةً بعودتي إليهن سالمة، قبل أن يسألني ريان أن نكمل طريقنا، فواصلت السير خلفه نحو الصفوف الخلفية، حتى أبصرت خيمة كبيرة وراء تلك الصفوف يقف على بابها اثنان من الزائرين كان ريان يقودني نحوها، ثم قال لي حين وصلنا إليها وعبرنا بابها:

- شيدنا هذه الخيمة من أجلك سيدتي، ليس عليك سوى أن تستريحي الآن، نعلم ما مررت به في الفترة الماضية.

وهم لغادر وهو يقول:

- سنكمل حديثنا بمجرد أن تالي قسطًا وافرًا من الراحة.
أقيمت نظرة خاطفة إلى داخل الخيمة، كانت منقسمة بستار قماشي إلى غرفتين، احتوت الغرفة التي وقفت فيها على بعض المقاعد القشية التي تراصت في إطار دائري حول أرضية مفروشة بسجاد فتياتنا، وكان واضحًا أن الغرفة الأخرى للنوم، ثم قلت لريان بنبرة جادة للغاية:

- ماذا حدث يا ريان؟! ومن خطّط لكل ذلك؟

قال:

- لقد فعلتها سبيل.

سألته على الفور:

- أين هي؟

قال:

- لم تظهر إلى الآن، لكنني قابلتها قبل شهر تقريبًا وحدثتها عمّا نحن بصدده فعله إن قرر كيوان إعدامك وقتل النسالى.

سألته في دهشة كبيرة:

- هل كنت تعرف بأمر سبيل وطفلها؟!

قال:

- نعم سيدتي، لقد أخبرني الطبيب بكل شيء قبل ست سنوات.

وسكط للحظة، ثم تابع :

- بعد عودتكم بيوم واحد من زيارة الكهف مع العجوز.

قلت في تعجب:

- فاضل !!

قال:

- نعم، كان يرى أنه من حقنا كنسالى أن نعرف عن ذلك الأمر.

وأردف:

- كان الطبيب يحترم وجهة نظرك وقتها بالطبع، لكنه كان في الوقت ذاته يتوقع حدوث ذلك جمیعه في أي يوم من الأيام، أخبرني بكل شيء حدثكم به العجوز وجعلني أعااهده بأن يظل هذا السر بيننا طالما لم يؤذك كيوان أو يشرع في إبادة النسالى.

وتابع بعدها جلس على أحد المقاعد الخشبية في الخيمة:

- هو من بنى تلك الخطة التي حدثت في الباحةاليوم بعدهما سهر لأيام على إعدادها قبيل مغادرته وادينا، قال لي وقتها وهو يخبرني بتفاصيلها الكثيرة أنه بنى جزءاً كبيراً منها على غرور كيوان الذي سيلازمه حتى الموت، في الحقيقة لا أعرف كيف توقع أن يقوم كيوان بتجمیع النسالى في الباحة كي يقتلهم أمام أشراف چارتين، لكن هذا ما حدث بالفعل.

قال لي يومها أيضاً أنه يعرف سبيل جيداً ويعرف أنه إن صار الأمر بيدها بين بقاء الأشراف أو بقاء أهلها القدامى من النسالى وعلى رأسهم أنت سيدتي ستحتار النسالى وإن كان على حساب طفلها الذي سدرك مع الوقت أن الأشراف لن يدعوه حياً في كافة الأحوال، كذلك كان يومن للغاية أن النسالى لن يتأخروا عن إنقاذك سيدتي إن امتلكوا القوة لذلك، حتى وإن تخلوا عنك في الفترات الأخيرة التي عاشها بيننا في الوادي.

تلك السهام التي انطلقت إلى الشعلة لتكون إشارة إلى سبيل كانت فكرته، والزيوت التي غطى بها النسالى أجسادهم من أجل الإفلات من الجنود في الباحة كانت فكرته أيضاً.

وابتسם وهو يقول:

- ساعدنا الأشراف بغير قصد عندما طاردوا في الأعوام الأخيرة من عبر عمره الخامسة والعشرين من شبان النسالى بعدما اجتمع المئات منا في الوديان المظلمة ننتظر الفرصة التي ننتقم فيها من الأشراف، لكنني بقيت على عهدي إلى الطبيب بأن يظل ما أخبرني به سراً طالما لم يؤذك كيوان أو يصبح النسالى جميعهم في خطر محقق منه، ثم حدث أمر اعتقالك فلعلمت أن الوقت قد حان لإخبارهم بما تحمله أجساد بعضهم على مر قرون طويلة دون علمهم، لم يصدقونني بالطبع، فتركت أمرهم مؤقتاً وبدأت في البحث عن سبيل عندما عرفت بمعادرتها جويداً كي أخبرها بما خطط له الطبيب قبل سنوات، توقعت أنها قامت بزيارةك قبل اختفائها، لكنني لم أتأكد من ذلك بعدما تم اعتقالك وكذلك اعتقال ناردين التي أعدمت في يوم الغفران التالي لاعتقالها.

غضضتُ على شفتي في حزن ومسحت دموعي التي سقطت على الفور حين أخبرني بإعدام ناردين بينما كان يتبع حديثه:

- استغرق مني البحث عن سبيل شهرين كاملين كي أجدها، وكدت أفقد الأمل في إيجادها أو الوصول إليها قبل أن يصل إليها جنود كيوان الذين انتشروا بالوديان بحثاً عنها لولا أنني عثرت عليها في النهاية قبل شهر واحد من اليوم بعدما دلتني إليها إحدى فتيات الوديان الغربية كانت يوماً ما بين المتعلمات في مدرستنا.

حين قابلت سبيل أدركت مدى عزمها على عقاب كيوان والأشراف إن قاموا بإيذائكم أو عزموا على التخلص من النسالى، فحدثتها بما حدثي به الطبيب قبل سنوات، وأخبرتها بأمر شعلة سجن جويدا، لم تكن في حاجة إلى معرفة أن مصيرك سيدتي ومصير النسالى بات بين يديها حقاً، ثم تركتها وعدت إلى شبان النسالى المطاردين معى في الوديان المظلمة وحدثتهم من جديد عمّا ينوي كيوان فعله وعمّا نستطيع فعله بما تملكه أجسادنا حين تقوم سبيل بإثارة تلك الأرواح، لم يصدقونى مرة أخرى، وظنوا أن الجنون قد أصابنى وأن ادعائى ذلك بسبب حبى لك ورغبتي في التضحية بهم في سبيل إنقاذه.

لكن مع اصطدام دفاع كيوان في الأيام الأخيرة وتصويب فوهاتها نحو ودياننا لم يكن الأمر يحتاج إلى دليل أكثر من ذلك بشأن نية كيوان تجاهنا، ولم يعد أمامهم سوى أن يكونوا في صفي بعدما أدركوا أنه ليس بعد الموت شيء، ووجدتهم يسألونني في خوف عمّا يجب فعله وعمّا إن كانت سبيل ستفعلها حقاً من أجلهم، وقتها دار في عقلي سؤالي إلى سبيل حين لاقيتها: «هل ستفعلينها؟» وكانت

إجابتها لي واضحة: «لن أتركه ينجو بفعلته».

حين شرع جنود كيوان في اعتقال شبان النسالى وإجبارهم على التواجد في الباحة اليوم انسل العشرات منا ليتم اعتقالهم عن عمدٍ من أجل التواجد في الباحة، فيما تسلل الباقيون منا إلى الوديان من أجل تهريب باقي النسالى للاحتماء بالجبال الحمراء قبل دك المدافع لنا، لم نعلم الوقت المحدد لضربتهم المدفعية لكننا كنا نأمل أن نقوم بخطتنا جميعها قبل أن يموت منا نسلي واحد.

وأضاف بنبرة يشوبها الحزن:

- إلا أن عشرات النسالى قد ماتوا بالفعل قبل أن يتركوا الوديان، كان أكثرهم لا يصدقون بأن يقوم الأشراف بفعلتهم الشنيعة حقاً. تذكرت الجثث المحترقة أسفل حطام وادي النسالى، قبل أن يكمل بعين لامعة في حماس:

- لا أخفي أن التشکك والخوف كانوا يعبثان بنفوسنا، ليس فقط لأننا وضعنا العشرات منا في مواجهة الموت المباشر بالباحة بناءً على ما قد تفعله سبيل، لكننا لم نكن نعرف كذلك ماذا سيفعل بنا أصحاب تلك الأرواح إن ثارت أرواحهم حقاً ونحن بجوارهم، إلا أنتي كنت أمتلك قدرًا ضئيلاً من الثقة معتمداً على عدم إيذاء سيدي نديم لي وقتما كانت تثور روحه في طفولتي، وبالفعل هذا ما فعله من ثارت أرواحهم اليوم، حين تحولوا بجانبنا أدركنا من الوهلة الأولى أننا في الجانب نفسه.

وانفرجتأساريره وهو يقول:

- كانت مفاجأتنا لجنود كيوان عظيمة، لم يستطعوا مجاراة سرعة انقضاض الزائرين فتكوا بهم في دقائق، ولولا أنهم أسرعوا بإحراق مدافعهم بأنفسهم لكنا قد حصلنا على تلك المدافع هزت رأسى بعدهما كان ذلك موافقاً لتوقعى عندما مررت بالمدافع المحترقة، فتابع بالفرحة ذاتها:

- ثم وجدتهم يستجيبون لأوامرِي كأنهم قد نصّبوني قائداً لهم فأدركت أنهم سيفعلون الأمر ذاته معك، إنهم يديرون بالكثير لك ويعرفون ما فعلته معهم، وإن كان هناك شخص يستحق أن يكون قائدهم فلن يكون إلا سواك، إن عددهم كثير وأعتقد أنك رأيت ما حدث منهم في الباحة، وهم على استعداد أن يفعلوا ما تأمررين به سيدتي.

وسكط في انتظار أي قول مني، فقلت:

- هل ظهر آدم؟

زم شفتـيه مـفكـراً، ثم قال:

- لم أره من قبل، لن أعرفه حتى وإن كان بينهم.

قلت:

- هل نستطيع معرفة أصحاب أرواح نمور الشام؟

قال:

- ربما، لكنني لست متأكداً من ذلك إلى الآن، كان بعض الزائرين يتمتعون بحس واضح للقيادة،رأيت ذلك جلياً ونحن نهاجم جنود كيوان، كذلك قاد أحدهم جماعةً منهم من تلقاء نفسه واغتنم

حملة كاملة من الغلال كانت في طريقها إلى مخازن جويدا
الجنوبية وعاد بها إلى السهل قبل وصولك بقليل، أعتقد أنه واحد
منهم.

كدت أنطق لولا أن زئير النسليين بالخارج قد تعالي فجأة، فصمت في
ترقب، ثم وجدت باب الخيمة القماشي يُرفع ليظهر أمامنا أحد النساى
الزائرين ومن خلفه ظهر بشعره الطويل ولحيته الطويلة ووجهه الذي
صار أنحف كثيراً مما كان عليه قبل سنوات، وقبل أن أنطق ذاهلة سبقني
إليه ريان غير مصدق:

- الطبيب !!

ابتسم كعادته والدموع تملأ عينيه، وأومأ برأسه إيجاباً.



لم أستطع منع دموعي من التساقط وأنا أحضرن فاضل بقوة بين
ذراعي، كذلك أطال ريان احتضانه غير مصدق أنه يقف أمام أعيننا
حقاً، وسأله متعجبًا من هيئته الغريبة:

- ماذا حدث سيدي؟! وكيف استطعت العودة إلى چارتين اليوم؟!
أجابه فاضل هادئاً:

- إنني لم أغادر چارتين قط.

نظرنا إليه في ذهول، فأكملا:

- لقد غير كيوان رأيه بشأن رحيلي قبل ستة أعوام، وقبل أن تبحر
بي السفينة إلى الشمال كان الجنود قد اعتقلوني واقتادوني إلى
سجن جويدا لأقبح بين جدرانه طيلة تلك السنوات.

اتسعت حدقات عيوننا مما ي قوله، فتابع:

- توقعت وقتها أن يقوم بإعدامي في أي يوم من أيام الغفران التالية لاعتقالني، لكنْ مرتِ الأيام والشهور والسنوات دون أن يقوم بالأمر وكأنه تركني لأنّي بين ظلام الزنازين، لم يتذكّرني إلا قبل شهرين فقط عندما زارني للمرة الأولى وسألني مباشرة عن سبيل كأنه يومني أعرف شيئاً عنها رغم سجني، رأيت يومها مدى القلق البادي على وجهه وإن تظاهر بعكس ذلك وعرفت أن ما توقعته قبل سنوات قد بدأ في حدوثه، فأجبته ساخراً بأن جدران السجن الصامتة لا تخبرني بما يحدث في الخارج، هددني علينا بأنه سيقوم بإعدامك وبقتل النسالى جميعهم دون رحمة، قبل أن يتركني غاضباً ويغادر، لم يغير ذلك من موقفي شيئاً، كل ما فعلته وقتها أنتي أغمست عيني وتمنيت أن يكون ريان ما زال على قيد الحياة وألا يكون إيمانه بما أخبرته به قبل رحيله عن الوادي قد تناقض مع مرور السنوات، وألا تكون سبيل قد تبدل هي الأخرى في تلك السنوات، وبدأت أعد الأيام يوماً وراء يوماً أنتظر سماع الزئير في أي وقت.

وابتسم وهو يقول:

- استغرق هذا الأمر شهرين كاملين بعد تلك الزيارة.

ونظر إلى ريان وسائله متّحمساً:

- فعلتها سبيل، أليس كذلك؟!

هزّ ريان رأسه إيجاباً، فقال الطبيب بنبرة فرحة:

- لم تخذل الفتاة أهلها، ولم تخذل يا غفران.

سألته في استغراب شديد:

- كيف توقعت حدوث هذا قبل سنوات؟!

قال:

- مما رأيته في تلك الفترة التي عشتها هنا بينكم كان من السهل
توقع حدوث هذا.

وصمت للحظة ثم أكمل:

- لقد عدت إلى كهف الجداريات بعد زيارتنا له بليلة واحدة دون أن
أخبرك، كنت أعرف أن العجوز خشيب لا يزال على قيد الحياة
هناك، عالجت جرحه، وتركت له من الأعشاب ما يؤمّن له عدم
تسمم دمائه من القيح الذي أصاب جرحه، مقابل ذلك كسرت
رأس تمثال النسلي الزائر بفأسٍ وأخذته معه، سألني وقتها
متعجبًا: «لماذا تقوم بذلك؟!»

تركته ومضيت دون أن أجيبه، كنت أعرف أنه سينجو، وأنه يمتلك
من الخسّة والدهاء ما يجعله يفكر فيما أفكّر فيه، ليعرف أنّي
أريد من وراء نجاته أن يخبر كيوان بشأن ذلك الكهف لضعفك
وأضع النسالى أمام خيار واحد بين النجاية بكرامة أو الفناء.

وتابع وهو ينظر في عيني:

- ثم أخبرت ريان عن ذلك الكهف وعما يجب أن يفعله النسالى إن
بات أمر إبادتهم محتملاً وأنا غير موجود بينهم، وتعاهدنا على أن
يبقى هذا سرّ بيننا طالما كانت الأمور تسير كما هي دون أي جديد
بحجة أنك تريدين ذلك، لم أخبره أنني أنقذت العجوز عمداً
كي يكون شرارة لنيران كيوان الحارقة نحو النسالى، وكذلك لم

أخبرك يا غفران، كانت مجازفةً كبرى مني ولكنني لم أَرْ أن هناك سبيلاً للخلاص من هذا الذل الذي يعيشه النسالى إلا أن يخافهم أشراف چارتين، وكنت على يقين أنكِ ستدركين مع الوقت أنه لا بديل عن هذا الحل.

وأخرج زفيراً طويلاً ثم قال:

- طوال تلك السنين انتظرت سماع زئير النسالى أو مقتلي على يد كيون بعد اعتقالي، أيهما أقرب، واليوم حدث ما انتظرته طويلاً، رأيت الرعب على وجوه الأشراف، وشمتت رائحة الخوف ت Ub في كل ذرة هواء في مدinetهم، تبدل كل شيء في چارتين من اليوم، آن للنسالى أن يعيشوا دون خوف من بارود المنصة، وأن لهم أن يستعيدوا حقهم المُفتسب في القاعدة التي نقشها أسلافهم قبل قرون كي ينال أطفالهم أرواحاً نقية مثل الأشراف.

وأكمل:

- إن الزائرين يعرفونك وينصاعون إليك كما عرفت، إنهم بالخارج ينتظرون أمراً واحداً منك للتحرك من جديد إلى مدن چارتين، على الأشراف أن يحددوا خيارهم الآن إما أن يستعيد حقوقنا المسلوبة جميعها أو يصبح الفزع عنوان كل بيت وزقاق في كافة مدنهم.

ونظر في عيني بقوه، وتتابع:

- كنت على وشك الموت، وكذلك دُمرت وديان النسالى عن بكرة أبيها ومات الكثيرون فيها، لا أعتقد أنكِ تملكين الآن ذرة واحدة من التبرير للأشراف، سنستعيد حقنا بالقوة التي نملكها كما

سلبوا حقوقنا بالقوة التي امتلكوها على مدار تاريخ چارتين.

أومأت برأسِي إيجاباً في صمت، كنت في حاجة حقيقة إلى إراحة عقلي بعدما شعرت أن ما يحدث يفوق قدرتي على التفكير، ثم هدأ الزئير بالخارج إلى حد السكون فجأة، فخرج ريان وعاد بعد دقائق قليلة، وقال لنا:

- لقد استعاد الزائرون هيئتهم كنسالى بشريين كما كان يعود سيدي نديم إلى هيئته الطبيعية بعد ثورة روحه.

خرجت على الفور أنا والطبيب، كان الزائرون المصطفون في الصفوف الأولى من حشد النسالى قد عادوا جميعاً بالفعل إلى هيئتهم البشرية، وجدت فاضل يتقدم بمفرده نحو صفوفهم، وبدأ يحدق يميناً ويساراً في وجه كل من يقابلها، فتبعته، وتبيني ريان من بعدي، كان النسالى ينحني برؤوسهم بمجرد مرورِي أمامهم، لكنني كنت أترقب بقلب مضطرب وجه فاضل الذي كان يواصل عبوره بين الصفوف، كنت أعرف أنه يبحث بين تلك الوجوه عن آدم الذي لا يعرف وجهه منْ سواه، سألني ريان الذي بدا وأنه أدرك الأمر ذاته:

- هل يكون قد عاد وانضم إلينا بالفعل؟!

ضمت شفتني ثم قلت:

- إنما عاد إلينا أو قُتل وحيداً في إحدى مدن چارتين، لا بد وأن روحه قد ثارت اليوم كباقي النسالى.

وأسرعت من خطواتي كي أقترب من فاضل الذي لم يتوقف عن التنقل بين الصفوف، ومع تناقص النسالى المتبقين أمامه كان قلبي يزداد اضطراباً، توقف فجأة عند أحد الشبان فاندفعت الدماء إلى عروقي،

لكنه واصل طريقه مرة أخرى فالقطعت أنفاسي، إلى أن وصل آخر صف وفحص وجوه شبانه فرداً فرداً، حتى توقف بعد النسلي الأخير، ونظر لي وأومأ برأسه نافياً في حزن، وقال:

- لم يعد إلينا بعد.

هزت رأسي إيجاباً ونظرت إلى النسالي من أمامي، ثم سالت ريان:

- متى يستعيدون قوة أرواحهم؟

قال:

- كانت روح سيدني تثور على حين غرة، لا أعرف شيئاً بعد عن أرواح الباقيين.

فقال فاضل وهو ينظر إلى وجههم المجهدة:

- دعيمهم يستريحون اليوم، وعلينا أن نتال نحن أيضاً قسطاً من الراحة كي نفكر جيداً في الخطوة التالية.



عدت إلى الخيمة من جديد فيما شيد ريان ومساعدوه خيمة أخرى للطبيب، أما باقي النسالي فاتخذوا من أماكنهم بأرضية السهل الواسعة مواضع لنومهم رجالاً ونساء وأطفالاً بينما تسلق بضعة منهم الجبال المحيطة ليراقبوا أي هجوم مُباغٍ للأشراف.

لم يزرنى النوم ليتلتها بالطبع بعدما تشابكت في رأسي كافة التفاصيل التي حدثت ذلك النهار مع ما حكاه الطبيب عن تخطيطه لحدث كل هذا قبل سنوات ليضعني عن عمد أمام أهم قرار ليس في حياتي فحسب

بل في حياة أهل چارتين جميعهم أشرافاً ونسالى، ووُجِدَت داخلي يشتعل بصراع جديد من نوعه عندما سألت نفسي للمرة الأولى عن أي قوم أنتمي حقاً، الأشراف أم النسالى؟ وماذا إن كان قراري القادم على غير هو النسالى، إلى متى يبقى انصياعهم لي؟! أعلم أن الأشراف لا يستحقون ذرة رحمة واحدة بعد ما فعلوهاليوم، لكنني في الوقت ذاته أعرف أنني لن أستطيع اتخاذ قرار باجتياح وحوش النسالى مدن الأشراف ليقتلوا كل من يقف في طريقهم، وماذا عن فاضل الذي تخلى عن حكمته وأعلن تأييده الواضح لاستخدام النسالى الزائرين قوتهم لاقتناص حقوقهم وكذلك ريان وإن أدى ذلك إلى المزيد من القتلى؟ فأغمضت عيني وتنميت داخل نفسي أن ين الصاع كيوان وسادة چارتين إلى مطلبنا بحقنا في القاعدة الثانية ومساواتنا بالأشراف دون إراقة نقطة دم إضافية، حتى غلبني النوم ولم أنهض إلا صباحاليوم التالي عندما سمعت صوت الزئير يصدع في الأجواء من جديد، وحين خرجت إلى الخارج وجدت النسالى الزائرين قد استعادوا هيئاتهم الضاربة ووقفوا منتظمين في صفوفهم يزملرون ويزأرون فيما وقف باقي النسالى خلفهم ينظرون بعيداً نحو شبان كانوا يحملون ذخائر المدافع إلى كهف عالٍ في أقصى جنوب السهل.

عدت إلى داخل الخيمة مرة أخرى فأجلل جسدي بعدما ظهرت أمامي فجأة فتاة في بداية العشرينات قالت في حرج عندما شعرت بفرزعي:

- أعتذر سيدتي، ظننت أنكِ رأيتني حين نهضتِ، إنني بتول، كلفني السيد ريان بتلبية حاجاتك.

تذكريت ناردين في مرارة، وقلت لها في رفق:

- لا عليك يا عزيزتي، سأتدبر أموري بنفسي، أخبري ريان فقط بأنني أريد لقاءه هو والطبيب.

قالت بصوت رقيق:

- حسناً سيدتي.

وغادرت لتخبر ريان بما سألتها به.



بعد قليل من الوقت، دلفت بتوه إلى مجدداً لتخبرني بأن ريان والطبيب ينتظران سماحي لهما بالدخول، فسألتها أن تدخلهما على الفور، وجدت فاضل قد حلّ لحيته الطويلة وشاربه وترك شعره الطويل كما هو دون أن يقصّه فبدأ أكثر شباباً مما كان عليه قبل ليلة واحدة، ثم قال ريان بمجرد جلوسه:

- عاد الناس إلى هيئتهم الزائرة مع الصباح، يبدو أنهم أكثر تحكماً بأرواحهم مما كان عليه السيد نديم، كذلك قام الشبان بتخزين ذخائر المدفع في كهف جاف جنوب السهل.

قلت باسمة:

- نعم، رأيت ذلك.

قال متحمساً:

- إن الجميع متخصصون للغاية للانتقام من الأشراف، علينا أن نبادر بالهجوم من جديد عليهم قبل أن يجمعوا شملهم.

صمت قليلاً، ثم قلت:

- لقد فكرت في الأمر، لا أرى أن التعجل قد يكون صائباً، علينا أن نفهم طبيعة النسالى الزائرين أولاً.

وَسَكَّ مَرَةً أُخْرَى قَبْلَ أَقْوَلْ بِنَبْرَةٍ مُتَرَدِّدَةٍ:

- كذلك لا بد أن نترك مزيداً من الوقت كي يتمكن أهالي جويداً غير المحاربين من مغادرة مدinetهم، لا بد وأنهم يهرونون الآن للرحيل إلى المدن الأخرى البعيدة عن ودياننا، هجومنا على جويداً الآن لن يخلف إلا المزيد من القتلى.

قاطعني في تعجب شديد قائلاً:

- لكنهم يستحقون ذلك.

قلت في صرامة:

- لا، إن كيوان وسادتهم من قرروا إبادتنا وليس لهم، هناك كثير من الأبراء بينهم.

قال بنبرة أشد من الاستغراب:

- ألا تتذكري معاملتهم لنا ولسبيل؟!!

قلت في لهجة أشد صرامة:

- لن أعقّبهم على ذلك بالموت.

ثم أردفت بما خطر في بالي دون تحضير:

- سنترك لهم عشرة أيام للرحيل عن جويداً، بعدها سنبدأ في إملاء شروطنا على كيوان لاستعادة حقوقنا وإلا ينتظر منها اجتياح جويداً وباقى مدن چارتين.

ظهرت علامات الضيق على وجه ريان أما فاضل فلم يعط وجهه أي انطباع، كان يستمع إلى نقاشنا فحسب، فسكت في انتظار ردودهما، وبعد فترة قصيرة من التزامهما الصمت قال ريان بغير اقتناع:

- حسناً سيدتي.

وهزَ الطبيب رأسه موافقاً، فقلت:

- خلال هذه الأيام سنبني أكواخاً مسقوفة بالسهل كي تحمي النساء من أشعة الشمس الحارقة، لن أنام في هذه الخيمة بينما ينام النساء بالخلاف.

أومأ ريان برأسه إيجاباً دون أن تغادر وجهه علامات الضيق، ثم غادر هو والطبيب، فجلست موضعى وأغمضت عيني وأنا أقول لنفسي بأنفاس بطيئة:

- لقد تركني كيوان على قيد الحياة من أجل هذا، كان يعلم أنه بقتلي سيكون قد كتب هلاكه بنفسه على أيدي وحوش لا يكبح قواها قيدُ أو لجام، تركني حيةً لأكون لجام النساء الزائرين.

ثم فتحت عيني وقلت:

- حسناً يا كيوان، سيترك لك ما تبقى في داخلي من خير فرصة واحدة للتفكير والتکفير عن خطئك وخطأ من سبقوك من أسلافك، غير ذلك لن يكون أمامي حلٌّ سوى إرسال روحك أنت ومن معك إلى وادي حوران بأجساد متآكلة الأطراف.



مرت الأيام التالية لذلك اليوم دون أي جديد، انشغل الطبيب بمداواة جرحى النسالى الذين أصابتهم نيران جنود الأشراف يوم الغفران فيما لم يكف ريان عن سؤالي كل يوم عما إن كان قد آن الأول للتحرك إلى جويدا، لكنني كنت أصر في كل مرة على انتظار مرور الأيام العشرة كاملة.

في تلك الأيام اعتدت الاستيقاظ كل صباح لأرى النسالى وهم يتحولون من صورتهم البشرية إلى صورتهم الضاربة بارزة العضلات والعروق قبل أن يحيوني بزئيرهم الذي كان يصل عنان السماء بدون أن يعلموا شيئاً عن ذلك الانقباض الذي يصيب قلبي مع مرور كل ساعة من تلك الأيام خاصةً مع إحساسي بالضجر الشديد الذي بدأ يتسرّب إليهم مع مضي الأيام يوماً بعد الآخر.

في مساء اليوم السابع سالت ريان بأن يعلن للنسالى أمر تحركنا إلى جويدا بعد ثلاثة أيام، وقتها تعالى زئير النسالى الحماسي بصورة كانت تماثل زئيرهم في يوم الغفران الأخير، تمنيت داخل نفسي وأنا أسمع زئيرهم بأن يكون أهل جويدا قد رحلوا جميعاً عن مدینتهم، وأن يكون كيوان قد أحاط نفسه بمن لديهم من الحكمة ما يجنبنا ما هو قادم على الجميع، لكنني أساءت تقدير الأمور مرة أخرى كالعادة.

في فجر اليوم الثامن نهضنا جميعاً على أصوات المدافع الرهيبة تدوى في الآفاق خلف الجبال، ركضت في فزع إلى الخارج، كان الجميع قد نهضوا من نومهم واتخذوا أماكنهم مسرعين محتمين بالجبال فيما استحال حاملو الأرواح المفترسة إلى هيئتهم الضاربة على الفور، أسرع إلى الطبيب في دهشة مما يحدث، لم تكن تلك التصويبات مقصوبة نحو وديان النسالى هذه المرة أو حتى قريبة منّا، أنصت في ترقب إلى صوت

القذائف لأتبين الاتجاه الحقيقي لوجهتها، ثم ركضت نحو جبل قريب وبدأت في صعوده في عجلة من أمري وتبعني فاضل، بينما بقي ريان يوجّه النسالى غير المتحولين صارخاً كي يحتموا بالجبال، حين اقتربتُ من قمة الجبل كان صوت المدافعين المتواصل أكثر وضوحاً بالأعلى، نظرت في كافة الاتجاهات وقلت لفاضل في تعجب:

- إن الصوت يأتي من الاتجاهين الجنوب الشرقي والجنوب الغربي على حد سواء .. لماذا يتصف كيوان تلك الموضع وهو يعلم جيداً عدم وجود نسالى هناك !!

ثم توقف لسانى عن الحديث واتسعت حدقتا عيني بعدما أدركت ما يقوم به، ونظرت لفاضل وقلت غير مصدقة:

- الموانئ !!

وتابعت:

- إنه يتصف موانئ چارتين والسفن الراسية هناك، بدون تلك الموانئ لن يستطيع أي شخص مغادرة چارتين، إنه يجبر الأشراف على محاربة النسالى.

وهبطت على ركبتي وأكملت بأنفاس متسرعة وقلب ينتقض بداخلي:

- إن قذائفه تلك بمثابة إعلان منه لنا بأن الحرب القادمة لن تكون إلا حرّياً للبقاء، على كل طرف منا أن ينتصر أو يموت.



(٤)

ذٰهِبٌ

سألتني أمي في ترقب:

- أي شيء يخص صديقك آدم؟!

قلت:

- سأخبرك فيما بعد يا أمي، لكن علىي أن أذهب لمقابلة أبي وعمي الآن.

صاحت بي في لهجة صارمة:

- لن تغادر، لن أستطيع تحمل القلق عليك وعلى أبيك مرة أخرى، يكفينا بقاء أبيك بعيداً عنا، سنبقى جميعاً هنا إلى أن يخبرنا أبوك بما يجب فعله.

أردت أن أخبرها بما أفكر فيه بشأن آدم، لكنني تذكرت لوهلة أنها ليست إلا شكوكاً غير مؤكدة عصف بها عقلي بعد ذلك الارتباك الغريب الذي أصاب مساعد عمي عند حديثنا عن العجوز خشيب، حتى وإن كان ما أظنه صحيحاً فمن الصواب لا يعرف به أحد غير أبي وعمي في هذا الأوان، فابتلت لسانني وسكتّ، ثم قلت بصوت قوي:

- سياتينا الموت إن أراد أينما كنا، أعدك بأنني ساعتي بمنفسي يا أمي، لكنني في حاجة حقاً للقاء أبي وعمي، سأذهب إليهما يا أمي سواءً مع هذا الفارس أو بدونه.

صمتت لأنها تذكرت ذهابي إلى الباحة في صباح ذلك اليوم عبر نافذة الغرفة رغمًا عنها، وضمنت شفتيها ضيقاً قبل أن تخرج زفيراً حانقاً من الإصرار الذي بدا على وجهي، ثم أشاحت بيدها وهي تتقول:

- اعنِ نفسك، وأخبر أباك أتنا لن نبرح منزلنا حتى يطلب منّا ذلك.

أومأت برأسِي إيجاباً واحتضنتها، قبل أن أغادر برفقة الفارس إلى دار الأمن راكباً خلفه على صهوة جواده.



كانت شوارع جويداً في ذلك التوقيت قد تخلّت عن سكونها المطبق الذي لازمها لساعات بعدما بدأت بعض المناوشات في الحدوث مع انتشار الجنود السريع على مخارج المدينة جميعها لمنع الأهالي الراحلين بعرباتهم من المغادرة بالقوة، لم أعرف حكمة عمي في ذلك القرار، لكن الغضب الواضح كان يسيطر بشدة على جميع الوجوه التي قابلناها في طريقنا، لذلك لم أتعجب حين بصر علينا رجل رأى حساننا، وأخذ يسبّنا في حق شديد، ويفرم بـالـفـاظـقـبيـحةـ عنـ تـسـبـبـنـاـ فيما يحدث لهم وعجزنا على احتواء الأمور، لكننا تجاهلناه وواصلنا طريقنا إلى وسط المدينة حيث كانت صفوف الجنود المدرعين المصطفين وراء المداريس الحديدية والأسلاك الشائكة تنتشر بكثرة في الشوارع المجاورة لدار الأمن في حالة تأهب لأي هجوم جديد من وحوش النساى، وإن كان الارتباك البادي

على الجزء الظاهر من وجوههم لا يحتاج إلى أي جهد لتبينه، ثم صاح أحدهم إلى الباقي حين اقترب حساننا منهم، فأفسحوا لنا طريقاً بين متراسين لنمضي قدماً إلى دار الأمن.



حين دلفنا عبر البوابة الرئيسية كان ذهني منشغلًا كلّياً بما سأخبر به أبي وعمي بشأن آدم، واختلطت المشاعر في داخلي بين كونه صديق عمرى الأوحد الذي لم يتخلى يوماً عنى وبين احتمالية كونه حاملاً لإحدى تلك الأرواح التي رأيتها صباح ذلك اليوم، وهو ما قد يعرضه للاعتقال والموت إن وشيت به، وبدأت أسأل نفسي فيوضوح وأنا أصعد السلم الداخلي لدار الأمن وراء الفارس:

- هل أضحى بصديق عمرى من أجل شكوك ليس لها أي دليل سوى كوايسه التي حدثني عنها أم أنتظر للحصول ولو على دليل واحد لذلك.

و قبل أن أتخذ قراري توقفت فجأة عن التقدم وجمد جسدي في موضعه حين صدر صوت زئير مفاجئ داخل الطابق الثاني من دار الأمن والذي كان يرقد فيه العجوز خشيب من قبل، تلفت حولي سريعاً في خوف شديد وأنا أضع يدي على مقبض السلاح الناري الذي أعطاه لي كرم قبيل مغادرتي بيتنا، كذلك تبدل وجه الفارس إلى اللون الأحمر بعدما اندفعت دماءه إليه، وأخرج سلاحه الناري في ارتباك شديد، لكن الجندي الذي كان يقف أمام مدخل الطابق الثاني نطق إليه في نبرة هادئة:

- لا تقلق سيدى، إنه نسلٍ متواحش حبيس لدى القادة بالداخل.

كانت النبرة الهادئة والثبات اللذان تحدث بهما الجندي يوحيان
بأنه على دراية كاملة بما يقوله، سأله الفارس الذي حاول إخفاء ارتباك
وجهه:

- أين الفارس كيوان؟

رد الجندي:

- إنه في القاعة الكبرى بالداخل مع بقية القادة، سيدى.

سألت الجندي على الفور في تشكيك:

- هل هناك نسلي زائر بالداخل حقاً؟!

قال دون أن ينظر في عيني:

- نعم سيدى، تم اصطياده وجلبه إلى هنا منذ قليل.

وتتابع:

- إنه مُكَبِّل بالكامل، لا خوف منه.

تقدمن الفارس إلى ممر ذلك الطابق وتقدمت وراءه بخطوات حذرة
بطيئة، ثم فتح لنا جندي آخر باب القاعة الكبرى، فلمحت أبي يقف
بجوار عمي وبضعة من قادة الفرسان الذين أعرفهم جيداً حول طاولة
كبرى بمنتصف القاعة، وما لبثت أن تقدمت نحوهم حتى دوى الزفير
مجدداً بصوت أكثر قوة، وفتها نظر إلى أبي، وترك الآخرين واقترب
مني، وسألني متعجباً عما أتى بي في هذا التوقيت، لكنني لم أهتم بكلماته
بقدر ما واصلت تقدمي صاباً كل تركيزى على السجن الحديدى الصغير
المنتصب في نهاية القاعة والذي ظهر خلف قضبانه السميكة نسلي زائر
عاري الصدر مُكَبِّل الأطراف والعنق بسلسل حديدية، كان يزمح

محاولاً التخلص من قيوده، إلى أن وقفت أمامه أبتلع ريقني في خوف، فنظر في عيني وهدأت ز McGrath، ثم زأر فجأة بقوة، فأجفل جسدي وتراجعت لا إرادياً إلى الخلف وكدت أسقط، سألني أبي الذي أمسك بظهرني وأسندي:

- ما الذي جاء بك في هذا التوقيت؟

قلت وأنا أسلّط نظري على النسلي الزائر:

- أعتقد أن چارتين في حاجة إلى كل فرد الآن.

وتابعت:

- إنّ أمي وأخوتي بخير.

القط أنفاسه كأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن صدره، فسألته:

- كيف استطعتم اصطياد هذا النسلي، كنت في الباحة صباحاً ورأيت انسحاب الجنود جميعهم.

قال:

- إنه آدم صديقك.

انتقض قلبي وسألته على الفور:

- هل هذا آدم؟!!

قال أبي:

- لا .. إن آدم صديقك من اصطاده.

عقدت حاجبي في تعجب مما ي قوله، وتساءلت:

- ماذ؟!

قال:

- استطاع صديقك اصطياد هذا الوحش وجلبه إلى هنا حياً مُكبلًا،
إن صديقك قوي وشجاع للغاية رغم صغر سنه، لا تخيل كيف
سيثمر هذا الأمر في قلب الاحتمالات جميعها بعدما تخيلنا أن
الأمور كانت في طريقها للخروج عن سيطرتنا.

وأردف بنبرة واثقة:

- لا تقلق، ما حدث هذا الصباح لن يتكرر مجدداً، سنستعيد زمام
الأمور في أقرب وقت.

قلت وأنا أبحث بعيني في أرجاء القاعة:

- أين آدم؟!

قال:

- إنه بالطابق الأعلى، هناك طبيب يضمد جرحًا كبيراً أصابه أثناء
عراكه مع هذا النسلي، سينضم إلى جنودنا مثل باقي شبان
چارتين ممن عبروا عامهم الخامس عشر.

قلت شارداً وأنا أحدق في النسلي الحبيس:

- سأصعد إليه.

أومأ أبي برأسه، قبل أن يعود إلى الطاولة الملاطف حولها باقي السادة،
أما أنا فصعدت إلى الطابق الأعلى في ذهن مشوش وتخبط كان أشد
وطأة مما جئت به قبل لقاء أبي. كان جنديان يقفان أمام باب غرفة
جانبية مغلقة أخرجني أحدهما من شرودي حين ركل بقدمه الأرض بقوة
من أسفله فور مروري أمامه، فسألته عن مكان صائد النسلي، مد يده إلى
مقبض الباب من خلفه وفتحه، وهو يقول:

- إنه في الداخل سيدتي.

كان آدم جالساً على مقعد بمنتصف الغرفة ممعظياً ظهره العاري للباب، ويقف بجواره طبيب شاب كان يلملم أدواته الطبية بعدما بدا أنه انهى من تضميد إصاباته، ما إن خطوت إلى الداخل حتى انتبه إلى ذلك الطبيب ومعه آدم الذي التفت إلى ونهض عن جلسته على الفور، وصاح بعين تلمع من الفرحة:

- زهير.

كانت ثمة ضمادة قماشية بيضاء قد ثبتت على جانب صدره الأيسر في الموضع ذاته الذي اعتاد ذكور النسالي على وضع وشمهم به، لم تستطع عيني تجاهلها عندما اقترب مني وأكمل مرحباً بي:

- ها أنت هنا أخيراً يا صديقي.

واحتضنني حضناً طويلاً وأنا ثابت مكانني لا أتحرك، ثم نظر في وجهي وقال بنبرة البهجة ذاتها:

- لم يستطع أبوك إعطائي كلمة مؤكدة بشأن سلامتك، خشيت أن يكون قد أصابك مكروره.

اصطنعت الابتسامة وقلت وأنا أسترق النظر إلى ضمادة صدره:

- إنتي بخير يا صديقي، لقد كان صباحاً مؤلماً لكنه مرّ على كل حال.

ربت على كتفي وقال:

- سيصبح كل شيء على ما يرام يا زهير.

ونظر إلى الطبيب وشكره على تضميد جرحه، فقاده الطبيب وأغلق الباب من خلفه، فأكمل آدم حديثه لي وهو يهمس:

- لقد حدث لي أمر عجيب للغاية أود إخبارك به يا صديقي.
نظرت إليه في ترقب دون أن أنطق، فأكمل بصوته المنخفض:

- أتتذكر الأحلام الغريبة التي لطالما حدثتك عنها قبل سنوات؟
هزرت إليه رأسه إيجاباً، فتابع:

- لقد بدأ بعضها في التتحقق، لقد رأيت في أحلامي قبل سنوات
أولئك النسالى الزائرين، لم يكونوا واضحين في الأحلام كما
رأيتمهم اليوم، لكنني متأكد أنهم من اعتادوا الوقوف على جانب
الطريق الذي أسيير به في حلمي الغريب المتكرر.
وصمت لهنيئة قبل أن يكمل:

- وبالأمس حدث أمر لا أصدقه إلى الآن، لقد شعرت أن جسدي
قد امتلك فجأةً من القوة ما لا أستطيع السيطرة عليه، ووجدت
نفسني لا إرادياً أركب حصاني وأترك بريحا، تحركني تلك القوة
التي تملكني.

الغريب أنني لا أتذكر شيئاً مطلقاً عما حدث في الطريق بالأمس
سوى أنني كنت أركض بحصاني إلى هنا من أجل حمايتك
أنت وخالي سيرين من المكروه الذي شعرت إلى حد اليقين أنه
سيصيبكما، لا أمتلك غيركما في هذه الحياة.

فابتلت ريقني، وهربت بعيني إلى ركن بعيد بالغرفة بينما كان يكمل
في حيرة:

- لا أعلم إلى الآن كيف أتاني هذا الهاجس الشديد بشأنكم، أو
كيف أصابتني تلك الحالة الغريبة، لكنني لم أكن على ما يرام في
الأيام الأخيرة.

سألته بنبرة متعجبة:

- هل قمت حقاً باصطياد النسلى الحبيس في الأسفل؟

أومأ برأسه إيجاباً في صمت ثم قال:

- وصلت إلى باحة جويدا مع مغادرة آخر مجموعة من النسالى إلى الجنوب، وبدأت أبحث عنك وعن خالتى سيرين بين قتل وجرحى الباحة وأنا أؤنب نفسي لوصولى بعد فوات الأوان، لسوء حظى رأنى نسليان زائران كانوا يتخافنان كثيراً عن بقائهم، وعاداً لما جمتي، فهربت بحصانى نحو منطقة جبلية بالجنوب بعيدة عن الطريق الذى اندفع فيه بقائهم، فتبعدنى الزائران، لم يستطعوا اللحاق بي في البداية وظننت بأننى أفلتُ منهمما بين المرات الجبلية المتشعبه، لكن أحدهما ظهر أمامي على حين غرّة وانقض علىّ بمخالبه، فأمسكني عن صهوة جوادي، وكاد يقتلنى لو لا أنى صرخت فيه في أمل مفقود كي يتوقف، فحدث ما لم أتوقعه، لقد توقف تماماً عن إيدائى. للحظة تعجبت من انصياعه لي، لكنه تراجع بالفعل خطوات للخلف كما أمرته، قبل أن يركض ويتركنى ويرحل بعيداً، بعدها أتى النسلى الحبيس بالأأسفل، استطاعت التحكم بأفعاله هو الآخر حتى عاد إلى هيئته البشرية، لم أتخيل قط أن يكون جسده ضئيلاً إلى هذا الحد مقارنة لما كان عليه قبلها بلحظة، ولم أكن لأقوّت فرصة مثل هذه، فكبّله بعنان حصاني وأحضرته إلى جويداً بعدما أشبعته ضرباً، لم يصدق الجنود أننى أحضرت أحدهم حياً إلى وسط المدينة، فكبّلوا أطرافه وعنته بأغلال حديدية سريعاً في رعب، ثم اقتادونى معه إلى هنا لأقابل عمك وأباك، لحسن حظنا عاد إلى هيئته المت渥حةة بعدما كان مُكّلاً بالكامل ..

وأكمل في وجوه:

- يظنون أنني انتصرت عليه في قتال يا زهير، لكن ذلك لم يحدث،
لقد استطاعت التحكم فيه بالقوة ذاتها التي امتلكتها ليلة أمس.

لم أخبر أباك أو عمرك بهذه الحقيقة، انتظرت أن أجده فحسب
لأخبرك بما حدث ولتنصحني بما يجب فعله، إنك أفضل مني في
التفكير في مثل هذه الأمور، لقد جئت إلى جويدا من أجل حمايتك
أنت وخالتى سيرين، لكن بعد ما حدث اليوم وما رأيته من جثث
وجرحي خلفتهم تلك الوحش أعتقد أنني أستطيع أن أقدم دوراً
حاسمًا لبلادنا، وإن كنت قد استطعت بالفعل التحكم في هذين
النسليين فقد أستطيع التحكم في باقي النسالى المتحولين، أستطيع
أن أعيدهم إلى هيئتهم البشرية ومن ثم تتولى أسلحتنا الخفيفة
والمدفعية أمرهم لنعيد الأمور إلى مسارها الصحيح يا صديقي.

ابتسمت وقلت وأنا أحضنه حضنا طويلاً :

- لطالما توقعت أن تكون فارس چارتين الأول يا صديقي.
وأومأت برأسى إيجاباً وأنا أتابع باسماً :

- سنستعيد هيبة الأشراف مرة أخرى سوياً.

أومأ برأسه باسماً هو الآخر، قبل أن أخبره بأنني سأتركه مؤقتاً كي
ينال قسطاً من الراحة على أن أعود إليه لنكمم حديثنا سوياً عما ينبغي أن
نخبر به أبي، فوافقني، بعدها تركته وغادرت عائداً إلى الطابق الأسفل
مرة أخرى، كان أبي لا يزال واقفاً مع عمى والقادة الآخرين ينادون
موقع دفاعات جويدا، فأشرت له من بعيد للتحدث معه منفرداً، اقترب
مني وسألني عما إن كان هناك شيء هام يستدعي مقاطعة مجلسه،

فأمسكت بيده دون أن أقول شيئاً، وخرجنا من تلك القاعة إلى قاعة أخرى مجاورة لم يتواجد بها أحد، سألني متعجباً:

- ماذا هناك؟

قلت في نبرة جامدة:

- إن آدم ينتمي إليهم.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٦)

ذٰهِبٌ

احتقن وجه أبي مما قلته، وسألني على الفور غير مصدق:

- ماذا؟!!

أجبته:

- إنها الحقيقة يا أبي، إن آدم لا ينتمي إلى أشرف چارتين، وكل ما عرفناه عن كونه ابن أخت السيدة سيرين ليس إلا كذباً وزيفاً، إن السيدة سيرين ابنة العجوز خشيب الذي أُعْفِيَ من جريمته باجتياز القاعدة الأولى صباح اليوم، يستحيل أن يكون آدم صاحب الستة عشر عاماً فقط حفيده.

فكر أبي للحظة، وحدّق في عيني بقوة كأنه أدرك منطقية ما أقوله،

فتابعت:

- لطالما اعتاد آدم إخباري بكلابوس كان يطارده لسنوات، كان يرى نفسه دائماً حيواناً يتطلع إليه الكثيرون وهو يركض إلى أن يسقط في النهاية قتيلاً أسفلاً جدار چارتين، كنت أرى الأمر مجرد كابوس عادي طوال السنوات الماضية لكن ما حدث منه اليوم أكد لي ذلك، لقد أخبرني أنه استطاع التحكم في نسليين زائرين منهمما

ذلك النسلي الذي جلبه إلينا، لم يكن الأمر صراغاً فقط، لقد رأيت
بعيني قوة النسالى المتواحشين في الباحة ويستحيل على أي بشرى
مهما كانت قوته الفوز على أحدهم وأسره في نزال فردي، ولقد
اعترف لي بذلك.

ضمّ أبي شفيته مفكراً وقال في شرود:

- ستة عشر عاماً!!

ثم غمغم إلى نفسه بصوت سمعته:

- لقد أخبرنا خشيب فعلاً عن الطفل النسلي الذي يحمل روح نمر
الشام وانسلَّ بين الأشراف قبل ستة أعوام.

وصمت مفكراً من جديد، بعدها سألني بحدقتين متسعتين:

- وماذا أخبرك أيضاً؟

قلت:

- لا شيء، إنه لا يعرف بعد أنه ينتمي إليهم، ولا يعرف سر هذه
القوة التي تملّكها فجأة، إنه يظن أن مقدوره التحكم في أرواح
النسالى وإخמדادها لتمكن أسلحتنا الخفيفة من الفتك بهم.

فسألني أبي:

- هل شعرت منه بأي شعور مختلف أو بغضٍ واضح تجاهك؟

قلت:

- لا، بالعكس، لقد شعرت أنه يريد بكل قوة تحقيق انتصار لنا في
هذه الحرب.

فقال بعد فترة من الصمت طالت هذه المرة:

- حسناً، لا تجعله يشعر بأي شعور غريب من ناحيتك، سيظل أدم الشاب الشريف الذي جاء من بريحا لأجلك، حتى نقرر كيف نحقق استفادتنا الكبرى من هذا الانعطاف المفاجئ.

وابع إلى بنبرة محدّدة:

- ومنذ هذه اللحظة لا تجعله يفارق عينيك، أعلم أنها مخاطرة كبيرة لكن لا أعتقد أنه سيثق بأحد للاقتراب منه أكثر منك، سأمر حالاً بمنحك سلاحاً نارياً ذا طلقات خارقة من ذلك النوع الثمين المخصص للقادة، سيكون أكثر فاعلية في اختراق جسده قبل أن تكتمل قواه إن ثارت روحه وأنت بجواره، ليس عليك سوى تصويب طلقاته في أسرع وقت على الموضع ذاته الذي يضع به ذكور النساى وشهمهم، إنه موضع القلب تماماً، سيفي هذا بمصرعه في الحال.

وأضاف بعد لحظة:

- كذلك سأوصي بمنحك شارة الفرسان لعلك تحتاجها في أي وقت. أومأت برأسى إيجاباً، فهم ليغادرني وهو يقول مؤكداً:

- لا تخبر أحداً مهما يكن بهذا الأمر.

وقبل أن يغادر القاعة التفت نحوى، وقال:

- ولا تتصعد إلى الأعلى قبل أن تناول سلاحك الجديد.

أومأت إليه برأسى إيجاباً مرة أخرى، ثم وضعت رأسى بين كفيّ بعد أن أغلق الباب من خلفه، وجلست أفكر فيما قاله بشأن ملازمتي لآدم الذي قد يثور في أي لحظة، وفي ذلك السلاح الذي سأحصل عليه

من أجل قتله إنْ ثار، ولم تمر دقائقٌ حتى وجدتُ باب القاعة يُطْرَق من الخارج ويأتيني فارسٌ بسلاح ناريٌّ ذي مقبض فضيٌّ وشاراتٌ من شارات الفرسان ويعطيهما لي دون أنْ يقول شيئاً سوى أنْ أبي أمره بذلك.

بعدها بقيتُ مكانى أنظر في شرودٍ إلى ذلك السلاح الذى وضعته على الطاولة أمامي، وبدأت الخيالات في رأسي تدور جميعها عنِّي وأنا أصوب طلقاته الخارقة نحو قلب آدم فزاد ذلك من توترى، فحملتُ السلاح عن الطاولة وأخفيتُه أسفل قميصي على جانب خصرى موضع السلاح الآخر الذى كان أخي قد أعطاه لي، ثم انتظرت مزيداً من الوقت حتى قل توترى بعض الشيء، فتهاضت وصعدت مرة أخرى إلى الطابق العلوى الذي يمكث فيه آدم فوجدتُه نائماً، فجلست بجواره أنظر إليه وإلى الضمادة الملتصلة على صدره، لا أعلم لماذا كان الهاجس داخلي قوياً إلى حد اليقين بأننى سأجد وشم النسالى منقوشاً أسفل تلك الضمادة.

وكانتي لم أطق الانتظار لأثبت ذلك لنفسي وجدتني أمد يدي بأنفاس محتبسة لأرفع طرف ضمادته عن صدره فيما كانت يدي الأخرى تمسك بمقبض سلاحي الجديد تحسباً لأى رد فعل مفاجئ منه، ثم توقفتُ فجأة وسحبتُ يدي عنْه مسرعاً عندما تقلب في سريره ناحيتي، لكنه استقر في نومه سريعاً مرة أخرى، فقررتُ يدي من جديد ونزلعتُ عنه نصف الضمادة برفق لتخيب ظنونى بعدما وجدت آثار مخلب محفورة بقوة على جلد صدره بدت أنها قد أصابته أثناء عراكه مع النسلي الأول الذى أوشك أن يقتله كما أخبرنى، فأعادت الضمادة إلى مكانها دون أن يشعر.

بعدها لم أطق الجلوس بجواره وخرجت إلى شرفة الغرفة لأملأ صدري المنقبض بالهواء، ومكثت أنظر إلى الجنود المصطفين خلف

متاريسهم حول دار الأمن وإلى الفرسان الراكضين بأحصنتهم في حركة مستمرة بينهم كي لا يصييهم النعاس في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وبقيت موضعى أراقب حركتهم وأرافق نوم آدم من بعيد إلى أن طلع الفجر، فألقيت نظرة مطولة ناحية جبال الجنوب التي لاحت بعيداً في الأفق خلف الضباب وأخرجت زفيري وأنا أفكرا فيما ينوي النسالى الزائرون فعله في أي لحظة من اللحظات القادمة، قبل أن ينجذب نظري إلى الناحية الشمالية لجويدا عندما رأيت غباراً كثيفاً يتتساعد إلى السماء، فدقّ قلبي مسرعاً وومض في رأسي سريعاً ما حدث بالأمس، وركضت إلى خارج الغرفة وصعدت سلم دار الأمن طابقاً تلو الآخر حتى وصلت إلى السطح، كان الغبار يتتساعد ويقترب رويداً رويداً من جويدا، كدت أصرخ إلى الجنود بالأسفل كي يأخذوا حذفهم لكنني أمسكت لسانى بعدما تحركت إلى مكان آخر بالسطح لاحت معه زاوية واضحة للرؤى مكتننٍ من إبصار مسببي ذلك الغبار، فوجدتهم سيلًا عظيمًا من جنود المشاة والفرسان قادمين إلى جويدا في عشرات الصفوف المنتظمة عبر الطريق الشمالي، فهمست إلى نفسي فرحاً:

- يبدو أن عمى لم يُضع ساعات الليل هباءً، سيدفع النسالى ثمن انسحابهم من جويدا قبيل تحقيقهم انتصار محقق.



على مدار ساعات ذلك النهار لم تتوقف حشود جنود المدن الأخرى عن القدوم إلى جويدا، لينتظموا جميعاً في معسكرٍ أحدهما بساحة واسعة تقع على بعد ميل واحد من شمال جويدا قيل أنها كانت مخصصة لحشد جنود چارتين جميعهم قبل قرون، والآخر في باحة جويدا نفسها بعدما تم

إخلاًؤها من الجثث وأثار الدماء التي خلفها هجوم النسالي، وجدت أبي يخبرني مساء ذلك اليوم بأنني سأذهب للانضمام إلى المعسكر الشمالي مع فجر اليوم التالي، فقلت له متعجبًا:

- تعلم أنني لا أستطيع القتال ولا أجيد ركوب الخيل، أرى أن دورى في تدوين ما يحدث من خلال بقائي هنا أكثر أهمية من وجودي في ميدان الحرب.

قال بنبرة رسمية:

- سينضم صديقك إلى جيșنا، وكما أخبرتك لن يثق هذا النسالي في أحد غيرك.

وصمت للحظة ثم تابع هادئاً:

- لم أخبر عمك بشأن آدم لأنني أعرف أنه سيقتله حتى لو كان ما تعتقد مجرد خيالات، لكنه على عكسه، اعتدلت الاستفادة من أقل الفرص الممكنة، وفرصتنا الآن عدم معرفة آدم بحقيقةه وإلا كان قد انسل جنوباً يوم الغفران الماضي ليلحق بالنسالي الزائرين، أو على الأقل قام بقتلنا جميعاً أنا وعمك وبباقي القادة أثناء وجوده في دار الأمن بالقرب منا إلى هذا الحد.

وأضاف:

- إن كان ما تعتقد بشأنه صحيحًا فإن قدرته على إخماد أرواح النسالي هي أقوى ما نمتلكه الآن، لكننا لن نطلب منه أن يقوم بها، سنرى إن كان سيفعلها من تلقاء نفسه من أجل حماية بلدنا أم لا..

وهذه نبرته وهو يكمل:

- سيكون هناك أيضاً من سيقومون بمراقبته من رجالنا، لكن لا تشغل بالك بمعرفهم، اختر درعاً مناسباً لك فحسب وكن قريباً منه للحد الذي تنجح فيه من قتله قبل أن تكمل قواه في حال إن ثارت روحه.

وأخرج زفيره وهو يتابع:

- إنه الرهانُ الأعظم الذي أقوم به في حياتي، إنه أشبه ب التربية ذئب وسط قطيع من الأغنام.
ونظر في عيني وقال:

- لذلك إن فشلت في قتله وثارت روحه سيكون ذلك نهايتنا. ضممت شفتي، ثم قلت مستسلماً للأمر ومستغرباً من المجازفة التي تعتمد كلّياً علىّ:

- حسناً، سأحرض على إنجاح الأمر بكل طاقتني.
وتابعت متسائلاً بعدها:

- ماذا فعلتم بالنسيي الحبيس؟
قال أبي:

- لقد مات.

سألته في تعجب:

- حقاً!

قال:

- نعم، أعتقد أننا حققنا استفادةنا الكاملة من أسره، لقد اختبرنا قوته تحمله لبارود أسلحتنا الخفيفة صباح اليوم، قام عمك بنفسه

بتصويب طلقاته النارية واحدة تلو الأخرى نحو أجزاء متفرقة من جسده من مسافة تبعد مائة متر، تحمل جسده اثنين وعشرين طلقة نارية قبل أن تخور قواه، كان ذلك محبطاً لنا كثيراً، لكنه كان ملهمًا في الوقت ذاته للتفكير في استخدام البارود القديم المشبع بالحمض الذي استعمله قدامى أشراف چارتين في تعذيب النسالى المتمردين في العصور القديمة أو بمعنى أدق إداة أجسادهم.

وتوجه وجهه بهجة وهو يقول:

- لم يتحمل النسلي الزائر قدرًا واحدًا من ذلك السائل، لقد أذاب أطراfe بعظامها في لحظات، فما بالك لو علمت أن هناك قذائف كاملة مصنعة من ذلك النوع من البارود.

تساءلت إليه:

- غير التي صنعتها في معاملك بالشهر الماضي؟!

قال:

- نعم، إن شدة انفجارها وآثارها المدمرة تقوقق قذافي مئات المرات.

فسألته في تعجب:

- ولماذا لم يستعملها عمي عندما أراد إبادة النسالى بالأمس؟

قال:

- لم نكن نتوقع أن تعجز قذائفنا الثقيلة مع النسالى، كما أن ذلك النوع من القذائف لا تستطيع أي مدفع لدينا حمله أو قذفه سوى مدفع الجدار.

قاطعته متسائلاً في دهشة أكبر بعدها وقعت كلمته على مسامعي
كالصاعقة:

- مدافع الجدار!!

قال:

- نعم.

ظلَّ تأثير كلمته مسيطرًا على لحظات، لطالما عرفت أن مدفع الجدار لم تبرح مكانها منذ مئات السنين، وكما قرأت عنها سابقاً؛ تبقى مسؤولية تلك المدفع الأبدية هي حماية جدار چارتين ضد أي غزو خارجي يستهدفه، لذا صُممـت فوهاتها بانسيابية فريدة تستطيع بها قصف أي عدو يقترب عبر بحر أكـما من موقعها الثابت على الأرض وراء الجدار بعشـرات الأمـتـار فقط وإن كان الجـدار أمامـها يـمـثل سـاتـرا عمـلـاقـاً، تستـطـيع قدـائـتها الـارـتقـاع إـلـى السـمـاء في اـتـجـاه شـبـه عمـودـي لـتـجاـوز ذـلـك السـاتـر قبل أن تسـقط بـزاـوـية حـادـة لـتـصـيب هـدـفـها المـنشـود دون خطـأ.

وهمست لأبي:

- لقد قرأت أنها لم تبرح أماكنها منذ قرون.

قال:

- نعم، كانت تنتظر أي عدو خارجي يطمع في إـيـذـاء بلـادـنـا، أما اليـوم فالـعـدو مـوـجـود بـالـفـعل لكنـه بـالـدـاخـلـ.

وابتسـمـ وهو يقول:

- لقد ترك لنا أجدادنا إـرـثـاً عـظـيمـاً مـمـثـلاً في تلك المـدـافـع وـقـدـائـتها الحـارـقة، لـن تـسـتـطـيع مـدـافـعـنا العـادـية اـجـتـياـزـ الجـبـالـ المـخـبـئـ.

خلفها النسالى بالجنوب، أما مدافع الجدار فصُممت خصيصاً من أجل اجتياز مثل تلك السواتر المرتفعة، ستسقط على وديانهم القذائف من السماء مثل انهمار المطر الحارق لقتلهم في أعشاشهم، بعدها تتکفل المدافع الأخرى وألغامنا الأرضية التي سأعمل على تصنيعها من البارود الحمضى ذاته بدمير الباقيين منهم.

وأكمل:

- أوربما تقيدنا أسلحتنا الخفيفة إن صدق صديقك وأحمد أرواحهم في حال نجاة بعضهم واقترابهم منا لمسافة تمنعنا من استخدام تلك المدافع.

قلت:

- هذا يعني أننا من سننادر بالهجوم؟

قال:

- بالطبع، إننا الأسياد هنا يا زهير، والأسياد لا ينتظرون أن يكونوا رد فعل.

وتتابع:

- لقد رأى أشراف بلدنا كيف صار النسالى خطراً محدقاً على حياتهم وصار محو وجودهم واجباً حتمياً علينا، كان عماك محقاً في قراره بالأمس.

سألته:

- ومتى ينوي عمي الهجوم عليهم؟

أجابني:

- لا يزال الفرسان يحركون مدافن الجدار إلى جويدا، وهناك المزيد من الجنود والفرسان لم يصلوا من المدن الأخرى بعد، علينا أن نجمع قوانا أولاً ثم نحقق ضربتنا الكاملة، لا تقلق لقد وضعنا كل شيء في الحسبان.

ثم وأشار بإصبعه لي وهو يقول:

- لكن احذر أن يعرف صديقك شيئاً عن هذا، إنتي لا أثق في أي نسلٍ.

أومأت برأسِي موافقاً، وقلت بجدية:

- بالطبع، لا أحتاج إلى أن تخبرني بهذا.

أخذ تجميع الجنود والفرسان في المعسكرين أكثر مما كنت أتوقعه من أيام، ما كان يقلي من ذلك التباطؤ أتنى كنت أخشى هجوم النسالى علينا قبل وصول مدافن الجدار إلى جويدا، لكن ذلك لم يحدث، في أمر كنت أراه غريباً جداً من ناحيتهم وكأنهم اكتفوا بما حدث في الباحة، في تلك الأيام انضمت إلى المعسكر الشمالي ومعي آدم كما أمرني أبي، سألته آدم حين رأى ذلك الحشد من الجنود والفرسان إن كنت قد أخبرت أبي بقدرته على إخماد أرواح النسالى، فأجبته كاذباً بأنني آثرت عدم إخبار أبي بذلك مفضلاً انتظار فرصة قد تسنح لإثبات ذلك أمام الجميع، وأضفت مبرراً بأنني أعرف أبي وعمي جيداً وأنهما لن يغامرا أبداً بأرواح جنودهما من أجل أمر قد يكون حدث صدفة، لم يقل

شيئاً وبدا على وجهه الافتئاع بما قلته، فأخبرته وأنا أراقب ملامحه بأن النسي الحبيس قد مات، لم أرَ أي تبدل على وجهه وقال في غير اهتمام بأنه ينتظر حربه ضد الباقيين منهم ليثبت للجميع ما هو قادر على فعله، وأضاف وهو يركب حصانه:

- سأحقق نبوءتك يا صديقي بأن أكون فارس چارتين الأول.

ثم صرخ في حصانه، وجذب عنانه بقوه لينطلق كالسهم مبتعداً عنى لما تي متر تقريباً، قبل أن يدور به ويعود بالسرعة ذاتها ويوقفه أمامي ويقول ضاحكاً وهو ينزل عنه:

- أرأيت؟ أستطيع أن أسبقكم إلى هناك، سأمثل فارقاً كبيراً في هذه الحرب.

ضحكت وقتلت بعدما رأيت الإعجاب والحماس قد ارتسم على وجوه الجنود الذين شاهدوا ركضه بحصانه:

- يبدو أنك محق، لقد أثرت الحماسة في قلوب الجنود، لكن أرجوك لا تبتعد عنني في ميدان الحرب، تعلم أنني لا أجيد القتال ولن يحميني أحد غيرك.

فقال بنبرة صادقة:

- لا تقلق يا صديقي، سنعبر هذه الحرب سوياً.



في صباح اليوم الرابع ظهرت أول مجموعة من مدافعي الجدار تجرّها الخيول إلى جويدا، كانت أعناقها أكثر طولاً وفوهاتها أكثر اتساعاً من فوهات تلك المدافع التي شهدناها في شوارعنا قبيل يوم الغفران السابق،

كذلك كانت الجلبة الناتجة عن جرّها عظيمة للغاية، لم أعرف إن كان سبب ذلك عدم تحريكتها عن مواضعها لقرون طويلة أم أنّ عجلاتها السميكة المصنوعة من فولاذ خالص هي ما تسببت في تلك الجلبة التي نبهت كافة جنود المعسكر إليها لتصيب وجوههم الدهشة من إحضار تلك المدافع إلى جويدا، ومعهم آدم الذي سأله مستفهاماً عنها فأخبرته بأنني لا أعرف عنها شيئاً.

ما أثار تعجبِي حقاً أن تلك المدفع لم تتضمن إلى ساحة تجميع الجنود التي كنا نمكث فيها أو تنتشر على حدود جويدا كما توقعت، بل واصلت طريقها إلى شوارع جويدا الرئيسية وطرقاتها لتقبع هناك بين بيوت العامة، قبل أن يصدر أمر إلى بعض جماعات الفرسان بحماية تلك الموضع التي استقرت بها المدفع، وقتها تمنيت لو قابلت أبي لأفهم منه سر اختيار تلك المواقع، لكنني لم أستطع الذهاب إلى دار الأمن للقائه بعدما صار على ملازمة آدم طوال الوقت.

في صباح اليوم الثالث من وصول مدفع الجدار نهضنا على صوت قذائفها المدوى للمرة الأولى، تناشرت الأخبار بعدها بين الجنود أن تلك القذائف قد دمرت موانئ چارتين الجنوبية جميعها، استغرقت كثيراً مما أقدم عليه عملي، ولم أجد في رأسي مبرراً لما فعله سوى أنه كان يهدف إلى قطع كافة السبل التي قد تساعدهم على الهروب من چارتين وفي الوقت ذاته يرسل رسالة إلى جنوده بأن هذه الحرب محسومة لنا، انتظرت طيلة ذلك اليوم سماع دقات الشامو كرد فعل من النسالي الزائرين، مرت الساعات واحدة وراء الأخرى دون حدوث أي شيءٍ جديد عن الأيام السابقة، وحين تحدثت إلى أحد الفرسان عن مخاوفه في قال مطمئناً لي بأن باحة جويدا تعج بالجنود والفرسان المدرعين عن آخرها

يسعدون استعداداً تاماً لـأي هجوم من الوحوش على عكس المرة الأولى،
لم يطمئنني حديثه وواصلتُ تركيزِي لسماع أي دقات أو زفيرٍ بعيد، لكن
ذلك لم يحدث، ثم انتصف الليل فغلبني النعاس ونممت موضعياً خارج
الخيمة بأذان مستيقظة تستمع إلى صيحات الجنود المستيقظين المكلفين
بمراقبة أي جديد حتى فوجئت قبيل بزوغ الفجر بأدم يهز جسدي بقوة
ويصرخ بي ليوقظني، فتحت عيني الناعسة في فزع، فقال لي لاهثاً:

إنني أشعر بقدومهم، إنهم قرييون للغاية.

- تلتفت حولي، كان كل شيء كما هو في المعسكر، نظرت إليه مجدداً
و قبل أن أنطق بشيء وجدته قد قفز إلى صهوة جواهه وانطلق به
كالسهم إلى خارج معسكر الجنود.



(٦)

مُفْرَان

ظل صوت المدافع البعيد وصداه يدوّيان دون توقف في اتجاه الموانئ فيما بلغت حالة الهرج والمرج بين صفوف النسالى البشريين أوجها وهم يركضون خوفاً في كافة الاتجاهات للاحتماء بالجبال بينما وقف النسالى الزائرون مكانهم يطلقون زئيرهم كأنهم يطالبون الآخرين بالثبات.

تساءل فاضل متعجباً ونحن نتظر إليهم من أعلى:

- ألم تُدَمِّرْ كافة مدافعاً الأشراف؟!

أجبته بعد لحظة من الشرود:

- ظننت أيضاً أن جميعها تم إحراقهم بعدما رأيت المدافع المحترقة وأنا في طريقي إلى الجنوب.

وأخرجت زفيراً وقلت بنبرة حزينة:

- ظننت أن كيوان قد ينصاع لنا هذه المرة لتقادي المزيد من القتلى، لكنه لم ينتظر كثيراً ليرسل لنا هذه الرسالة.

قال فاضل:

- لم يكن هناك أي مجال للتراجع يا غفران بعد ثورة أرواح النسالي،
إنه طريق ذو اتجاه واحد لا عودة فيه.

وتتابع وهو ينظر إلى النسالي الزائرين المحتشدين في منتصف السهل:

- لن يتراجع هؤلاء عن الانتقام من الأشراف سواء معك أو بدونك،
إن كل واحد منهم يحمل داخله ذكريات أليمة حملها كل جسد
حفظ تلك الروح الخامدة على مدار قرون، إن حظهم فقط جيد
بوجودك بينهم كقائد يجتمع الجميع حوله لأنهم جميعاً يعلمونكم
قدمت لهذا الوادي وأهله، لكنهم مهماً أحبوك فلن يتراجعوا عن
الانتقام من الأشراف وإن عصوا أوامرك، وقتها مع هذا التحدى
الجديد من كيوان سيكون انتحاراً للجميع.

وأردد دون مجاملة:

- كان انتظارنا الأيام العشرة خطأً كبيراً منك وإن كانت نيتك
لتقادى موت المزيد من أهل جويداً صادقة، لكنها تظل في النهاية
حرباً، وفي الحروب لا تكتفى النوايا الحسنة للانتصار.
قلت بعدهما دوى صوت قذيفة جديدة وصداها بعيداً:

- إعلان كيوان هذا التحدى بهذه الجرأة يعني أنه نظم صفوفه إلى
حد ما، إن هجومنا على جويداً دون تحطيم قد يكون مخاطرة
كبرى تحمل لنا الكثير من الخسائر.

قال وهو ينظر بعيداً نحو قمم الجبال:

- أتفق معك في هذا.

وتتابع:

- الأمر الذي أفكر فيه الآن، إن كانت الموانئ قد دُمرت جميعها
بالفعل أم لا؟

قلت:

- حسب الاتجاهات التي يأتي منها صوت القذائف فأعتقد أنه قام
بذلك.

قال:

- إن كانت قد دُمرت جميعها فنحن في مأزق حقيقي.
ونظر إلى الشرق وقال:

- لقد جئت إلى الميناء الجنوبي الشرقي مررتين وفي المرة الثالثة تم
اعتقالني قبل مغادرة السفينة، إن هناك جبل كبير يلتصق بإحكام
بجدار چارتين العظيم، يقع ذلك الميناء وراءه مباشرة، وتحتاج
العربات إلى الالتفاف من حوله للتحرك في اتجاه جويدا.

قلت:

- وماذا في هذا؟

هبط على ركبة واحدة، وقال وهو يرسم على الرمال بإصبعه هرماً
يمثل الجبل، ورسم خلفه دائرة صغيرة تكاد تلاصقه تمثل الميناء، ورسم
بعيداً على الناحية الأخرى من الهرم مربعاً يمثل جويدا، وقال وهو يشير
إلى هرمه المرسوم:

- إن هذا الجبل يقف حائلاً طبيعياً بين الميناء وجويدا، بل وكافية
مدن چارتين، وهنا يكمن المأزق الذي أقصده.

إن الميناء على مسافة قريبة للغاية من الجبل، للحد الذي يجعل تدميره بالمدافع المعتادة أمراً مستحيلاً، لأن ذلك الجبل يمثل ساتراً عملاقاً أمام القذائف المباشرة.

ثم رسم خطأً مستقيماً ينطلق إلى أعلى من المربع الذي يمثل جويداً كأنه قذيفة مدفع، ليعبر من فوق الهرم ثم يسقط في اتجاه شبه عمودي إلى الدائرة، وقال وهو ينظر إلى السهل من أسفلنا:

- إن دُمر هذا الميناء فعلاً فلن تكون في مأمن هنا إن استطاع تحديد مكاننا، لن تستطيع هذه الجبال العالية حمايتنا مثلاً لم تستطع حماية الميناء.

تبهت إلى ما يقصد، فاحمر وجهي قلقاً، بعدها سألني:

- درستِ من قبل في مدرسة الضباط، هل تمتلك چارتين قاذفات تستطيع فعل هذا الاحتمال؟

فكرت محاولة التذكر، ثم قلت بعدما لم يأت في ذهني شيء: - لا أعرف .. كانت دراستنا في مدرسة الضباط جميعها عن الأسلحة الخفيفة، كما أن ذلك كان منذ عشرين عاماً تقريباً.

ونظرت مجدداً إلى رسمته على الرمال أمامي محاولة عصر ذاكرتي، فقال:

- أيها كان، علينا التأكد من تدمير ذلك الميناء أولاً. قد تكون مخطئين في تكهناتنا، ولكن حتى نتيقن من ذلك سيكون وجودنا كتجمع في هذا السهل خطراً كبيراً علينا، لا بد وأن نفترق إلى جماعات صغيرة تحتمي بالمرات الجبلية التي تقترب بأعلاها

قمم الجبال، أو بأعلى الجبال وكهوفها لا بالسهول الواسعة بينهم
إلى أن تتضح لنا الرؤية أو نتخذ قرارنا القادم.

هزّت رأسي إيجاباً وقلت وأنا أهّم بالنزول هرولة إلى أسفل:

- نعم، إنك محق.

وتاتبعت:

- سأرسل من يتبين لنا أمر ذلك الميناء.

ثم نزلنا سوياً إلى أسفل، كان ريان ومعه بضعة من الزائرين يقفون
في انتظارنا على مقربة من سفح الجبل، فقلت حين اقتربنا منه:

- أخبر النسالى الزائرين بأن يُقسّموا أنفسهم بين المرات الجبلية
الضيقة أو يصعدوا إلى أعلى الجبال دون الوصول إلى قمتها.

قال متعجباً:

- لماذا؟

قلت:

- سأخبرك بكل شيء بعد قليل، لكنني أريد نسليلين بشريين يجيدان
ركوب الخيل ويعرفان الطرق الجبلية غير المعتادة المؤدية إلى
الميناء الجنوبي الشرقي.

قال:

- لدينا الكثيرون .. وجميعنا نعرف الطرق إلى ذلك الميناء.

قلت:

- حسناً .. اختر من تشق فيهما وأرسلهما إلى هناك لتبيّن ما إن كان ذلك الميناء قد دُمر بالفعل أم أن القذائف قد استهدفت الطريق المؤدية إليه فقط، وأخبرهما أنتا في انتظار عودتهما منذ هذه اللحظة.

ثم أردفت قائلةً له:

- كذلك أريد إرسال ثلاثة شبان غير زائرين إلى مشارف جويدا في خفية لتبيّن ماذا يحدث هناك.

أومأ برأسه إيجاباً، وتحرك إلى النسالي من غير أن يقول شيئاً كأنه فهم أهمية الأمر، تحركت بعدها إلى نساء النسالي وأطفالهن المتكدسين على حواف السهل في أحضان الجبال، وناديت بصوت مسموع وأنا أربت على شعر طفلة صغيرة:

- لا تخافوا، لكن علينا الحيطة كذلك، لذا سنلجم إلى أعلى الجبال والمرات الجانبية الضيقة هذا النهار فقط، اتساع السهل بين الجبال قد لا يكون آمناً لنا.

وبدأت مع فاضل المرور بينهم وطمأنتهم وحثّهم على التحرك سريعاً إلى المرات الجانبية للسهل، ثم انضم إلينا ريان وتساءل مستغرباً:

- هل تستطيع قذائفه الوصول إلى هنا إن كانت مدافعه لا تتمركز بصحراء الجنوب؟!

قال فاضل:

- إنه احتمال وارد سنتأكده منه بمجرد عودة النسليين المرسلين إلى الميناء.

قال ريان:

- أخشى أن يدب الخوف في قلوب النسالى من جديد بعدهما فارقنا طوال الأيام الماضية.

قلت له:

- لن يحدث .. لكن علينا التأني، قد يؤدي بنا التهور إلى ال�لاك.
وسأله:

- كم لدينا من النسالى الزائرين؟

قال:

- سبعمائة وخمسة وتسعون.

قلت:

- وغير الزائرين؟

قال:

- لم أحصهم بدقة مثل الزائرين لكن يتجاوز عدد من يستطيعون القتال خمسة آلاف شاب، وهناك سبعة آلاف تقريباً من النساء والأطفال.

قلت:

- هل اتضح بعد أي من النسالى الزائرين يحمل روح الشام؟

قال:

- أعتقد أنني تيقنت من أربعة منهم تطبق عليهم صفات الكهف ..
 أجسادهم أقوى من غيرهم، تظهر ملامح القيادة على وجوههم،
 وينصاع الآخرون إلى أوامرهم بشكل واضح .. كذلك مات
 أمهاطهم جميعاً أثناء وضعهم.

سألته سؤالاً عابراً وثب إلى ذهني عندما ابتعد الطبيب عنا قليلاً:

- أرأيت أم نديم من قبل؟!

قال:

- لا .. لم نعرف له أمّا قط، أخبرني قدّيماً أنه حدّثك كاذباً عن كون
أمه مزارعة قبل أن يخبرك بكونه نسلياً.

قلت:

- نعم .. كان صديقاك يجيد الكذب.

ثم تابعت:

- هل هناك أمل باكتشاف الثلاثة الذين يحملون أرواح الشامو
المتبقيين من الثمانية؟

قال:

- لا أعتقد أننا سنكتشف ذلك قبل معركة حامية، ليس هناك
متيقنون من موت أمها لهم أثناء ولادتهم إلا أولئك الأربع،
الباقيون ممن يتمتعون بحس القيادة إما عاشت أمها لهم طويلاً
أو من أثناء طفولتهم، لا أعلم هل فقدت أرواح الثلاثة الباقيين
مع مرور السنوات أم أنهم على قيد الحياة ولم يتضموا إلينا بعد.

قلت:

- حسناً، فلتخبر الأربعه أنني أريد لقاءهم.



في دقائق قليلة كان السهل قد تم إخلاوه بالكامل .. تسلق كثير من شبان النسالى غير الزائرين ظهور الجبال المحطة، تبعهم النسالى الزائرون حاملين من لم يستطعوا التسلق من النساء أو الأطفال فيما قسم الباقيون أنفسهم بين خمسة ممرات جبلية كانت مجاورة للسهل خُصص منها ممر كامل للخيول وعربات الغلال، أما أنا وفاضل وريان فلجاناً إلى خيمة انتصب في ممر قصير ضيق بين جبلين عموديين كانت قمتها تقتربان إلى الحد الذي يجعل عبور القذائف بينهما مستحيلًا إلا لو كان القدر مصرًا على موتنا، ثم انضم إلينا الأربعة شبان الذين يحملون أرواح الشامو بعدما عادوا إلى صورتهم البشرية، سعدت حين وجدت اثنين منهم كانوا قد درسا في مدرستي من قبل، كان اسم أحدهما يعقوب واسم الآخر أصيل بينما كان الاثنان المتبقيان من واديدين آخرين، قال أحدهما باحترام كبير:

- أسمي منذر، في خدمتك سيدتي.

وقال الآخر بصوت أخش يتناسب مع جسده الضخم:

- أسمي بيجاد، في خدمتك سيدتي.

قال ريان بعده:

- إن بيجاد من قام بإحضار حمولة الغلال التي قد تكسينا لشهر سيدتي.

أحننت رأسه له باسمة، ثم قلت بعدما جلسنا:

- تقول جداريات الكهف أن هناك ثمانية نسالى حاملين لأرواح الشامو، فقدنا أحدهم قبل ستة أعوام ولا نعرف عنه شيئاً، ولم نكتشف ثلاثة بعد، وأنتم الأربعة.

وأرددت وأنا أقف وأنحنى لهم:

- ستكونون قادة النسالى معي.

أوماً الأربعاء شباب إيجاباً برؤوسهم، فتابعت بعدهما جلست مرة

أخرى:

- كنت أفكر في إرسال شروطنا إلى كيوان من أجل إضافة قاعدة توصي بالمساواة بين النسالى والأشراف في كل شيء، لكن مع قدائق هذا الصباح أدركت أن امتحاله لشروطنا سيكون ضرباً من ضروب الخيال.

يرى الطبيب فاضل أن استطاعة مدفع الأشراف تدمير الميناء الجنوبي الشرقي رغم كونه محمياً بجبل شاهق تطور مفاجئ في قوة كيوان قد يستطيع به الوصول إلينا بين الجبال إن استطاع تحديد موقعنا بدقة، لذا علينا انتظار عودة من أرسلهما ريان إلى الميناء للتأكد من هذا الأمر وبناءً عليه سنتخذ خطوتنا القادمة، وحتى عودة أولئك الشبان أريدكم أن تذهبوا وتقسموا الزائررين بينكم إلى أربع جماعات متساوية العدد يقود كل واحدة منها أحدكم، وكلّفوا بضعة منهم بالمشروع في صيد ما يستطيعونه من طرائد الجبال.

أمواوا برؤوسهم في طاعة، ثم غادروا وغادر معهم الطبيب وريان ليتقىدا النسالى البشريين ولم نجتمع بعدهما إلا مع غروب الشمس عندما عاد الشابان المرسلان إلى الميناء واللذان قال أحدهما بمجرد أن وقف أمامنا:

- لقد دُمر الميناء الجنوبي الشرقي بالكامل واحترق السفن
الراسية هناك عن بكرة أبيها.

زممت شفتيّ ونظرت في صمت إلى الطبيب فاضل الذي سأله الشاب
في ترقب:

- والطريق المؤدية إلى هناك؟ هل دُمرت؟ وهل رأيتما هناك أي
مدافع قريبة؟

فأجابه الشاب:

- لا، إن الطرق المحيطة جميعها سليمة، لقد دُمر الميناء بمفرده،
كذلك لم نجد هناك أي مدافع قريبة أو جنود من الأشراف ..
وهناك شيء أيضاً أردنا أن تروه بأعينكم.

ونظر إلى رفيقه الذي كان يحمل لفة قماشية منبعثة من دخوله
الخيمة، فتقدم ذلك الشاب ووضع لفته على الأرض أمامنا، وفردها
لتظهر بها قطعة لحم صغيرة من ساق إنسان محترقة، فتابع الشاب
الأول:

- هذا ما تبقى من تلك الجثة، تأكلت جميع الجثث هناك ولم يتبق
منها إلا أشلاء في حجم هذه.

اتسعت حدقات أعيننا جميعاً، وشعرت بسخونة أنفاس الأربع زائرين
بجواري تلفع وجهي رغم عدم تحولهم بعد، لكن فاضل هبط على ركبة
واحدة وتحسس قطعة اللحم بأطراف أصابعه، ثم قرب أصابعه من أنفه
وشمها، ثم أخرج طرف لسانه وتذوقها، قبل أن يبصق ويمسح لسانه
بظهر يده ويقول بعد هنيهة من التفكير:

- إنها آثار أحماسٌ مركزة، مع قوة التفجير العالية تستطيع تلك الأحماس إذابة لحوم وعظام من تصيبهم، يبدو أنها سلاحهم الجديد لمحاربة الزائرين بعدهما تيقنوا أن بارودهم العادي لن يجدي نفعاً.

قلت لحظتها لنفسي وأنا أعقد حاجبي شروداً:

- لا تُستخدم الأحماس المخلوطة بالبارود إلا في قذائف مدافعة الجدار!!

وكدت أضرب رأسي وأنا أغغمم إليهم بعدهما شعرت بفبائي:

- كيف فاتني ذلك!! لقد تخلّى عن حماية الجدار من أجل حربه معنا، لقد أحضر مدافعاً الجدار من المدن القريبة من بحر أكما إلى جويدا، إن لديها القدرة بالفعل على احتياز السواتر الشاهقة.

فتهض فاضل وجلس على مقعده من جديد ولاذ بصمته، بعدها عقد الشاب أطراف لفته القماشية مرة أخرى ليخفى بقایا الساق عن أعيننا، فقلت له ولصديقه:

- ادفنا هذه الساق دون أن يراكم أحد، ولا تخبرا مخلوقاً عمارأيتماه هناك.

فقال الشاب الأول:

- حسناً سيدتي.

ثم غادرنا، فسأل ريان الطبيب على الفور:

- هل تستطيع هذه الأحماس فعل الشيء نفسه بأجسام الزائرين؟

قال فاضل:

- إن قوة التفجير الهائلة لأي قذيفة ستكون قاتلة .. لكن وجود مثل تلك الأحماض في تكوين القذائف سيزيدها قوة وألماً وتشوهاً لمصابيها الناجين من الموت، لتكون ضربة قاسمة لنفوس النسالى المتبقين.

وكاد يكمل حديثه فدلفت إلينا بتوval تخبرنا بعودة الثلاثة شبان المرسلين إلى مشارف جويدا، قال أطولهم قامة والذي بدا أنه عيّن نفسه قائداً لهم صعدوا أقرب الجبال إلى جنوب جويدا لاستطلاع ما يحدث هناك على مدار النهار، قبل أن يضيف بأن باحة جويدا صارت تمتلئ عن آخرها بصفوف من الجنود والفرسان تلمع دروعهم الحديدية بقوة مع أشعة الشمس، وأنهى كلامه بأن هناك بعضاً من العامة كانوا ينتشرون في الشوارع المحيطة بالباحة.

تعجبت للحظة ثم سأله:

- هل تصطف المدافع على المشارف الجنوبية؟

قال:

- لا، وصلنا إلى هناك مع توقف صوت القذائف الذي كان يدوي صباحاً، لكننا لم نر أي مدفع أو جنود منتشرة بالطرق الجنوبية. شكرته ومن معه وأذنت لهم بالانصراف ليستريحوا، فقال يعقوب الذي نطق للمرة الأولى منذ اجتماعنا:

- لا يريد كيوان أن يخطئ الخطأ ذاته مرتين، يخفي مدافعته هذه المرة، ووجود هذا الحشد المدرع في باحة جويدا يعني أنه ينوي التقدم جنوباً، علينا أن نسرع بمباغنته بكمال قوتنا.

رأيت اتفاق الآخرين معه منطبعاً على وجوههم وكذلك ريان، لكن فاضل الذي كان يجلس مسترخيًا على مقعده قال:

- لا أخفي أنتي كنت متحمساً للغاية في الأيام الماضية للهجوم على جويدا، لكن مع إعادة كيوان تنظيم صفوفه بهذه السرعة لن تكون الحرب بالسهولة التي تخيلها، وقد يؤدي بنا التهور إلى خسارة عظيمة ربما تكون مُنهية لنا.

واعتدل في جلسته وأكمل:

- كذلك أصبح وجودنا آمنين في هذا السهل مرهوناً فقط بعدم تحديده موقعنا بدقة، وهذا الأمر قد يتغير في أي لحظة من اللحظات القادمة.

ونظر للشبان الأربع وقال:

- إن هذه الحرب ستكون حرباً طويلة، وأرى أن تأمين مقر للنسالي يكون صالحًا للمعيشة وأمناً في الوقت ذاته من دفاع كيوان أكثر أهمية الآن من الهجوم على جويدا.

وتتابع مؤكداً:

- لذلك لا بد وأن تكون خطوتنا الأولى هي معرفة مدى تلك المدافع لنختار بعدها وادياً يكون من معنا من النسالى البشريين آمنين فيه تماماً من قذائفها المدمرة طوال فترة الحرب.

قال أصيل والذي كان أصغر الأربعه الزائرين سنًا:

- وكيف يمكننا معرفة مدى دفاع كيوان؟

قال فاضل والذي بدا أنه متوقع هذا السؤال من أحدهنا:

- ستقوم الطبول العملاقة بهذا الأمر، سنجعل دقات الشامو طعمًا متنقلًا من وادٍ إلى آخر لتصبح كالفار الذي يطارده القط دون أن يستطيع اللحاق به حتى نصل إلى معرفة النقطة التي تعجز فيها القذائف عن اجتيازها، سيكون ذلك خط الأمان بالنسبة لنا، وأقرب الوديان الصالحة للمعيشة منه سيكون مقرنا إلى أن يتمكن مقاتلونا من السيطرة على جويدا.

قال ريان:

- لكن مع تراجعنا للجنوب وتقديره نحونا لن نستطيع أبدًا الفرار من مدى مدافعه.

كاد فاصل ينطوي لكنني سبقته وقلت ما توقعت أنه سيقوله:

- لن نجعله يحرك مدافعه جنوبًا قدمًا واحدة، لن يتحرك كافة النسالى الزائرين جنوبًا، ستتحرك فرقه يعقوب بأكمالها شمالاً الليلة إلى مشارف جويدا لتسكن الجبال القرية منها في خفية للتصدي لأي تقدم لتلك المدفع أو لتدمرها في الحال إن سنتحت فرصة حقيقية لذلك، إلى أن يتم الاستقرار على وادينا المؤقت الجديد وبعدها تنضم الثلاثة فرق الباقيه وغيرهم من النسالى البشريين القادرين على القتال إلينا شمالاً، لنبدأ حربنا الكاملة ضد كيوان وجنوده.

تعجبوا عندما قلت «إلينا»، فقلت متعجبة من تعجبهم:

- نعم، سأكون مع جماعة يعقوب، لماذا هذا التعجب؟! إنني أجيد استخدام السلاح الناري وركوب الخيل وإن مرّ على ذلك الكثير من السنوات.

وأضفت باسمة:

- سيخبركم كيوان بهذا الأمر حين نأتي به أسيراً.
فابتسموا جمِيعاً، فقلت:

- حسناً يا رجال سنتحرك مع منتصف الليل إلى الشمال بينما يتحرك ريان مع ثلاثة زائراً نحو الوديان لدق أولى طبول الشامو مع فجر الليلة.

وأردفت إليه عندما نظر إلى حزيناً بأنه أراد أن يرافقنا إلى الشمال:
- إنك أكثرنا دراية بوديان الجنوب.

وتابعت:

- أما الطبيب فسيقود الباقيين من النساى زائرين وبشريين في الطرق الموازية للأماكن التي تدق بها الشامو مع اتخاذ بعد كافٍ يكون آمناً من قصف كيوان وسيساعده منزل وأصيل وبيجاد في ذلك.

أومأوا برؤوسهم موافقين، فتابعت:

- سندق طبول الشامو شماليًّا في حال تدميرنا لمدافع كيوان.

قال أصيل:

- وكيف ستحصلون إلينا جنوبًا إن أردتم ذلك؟

قلت باسمة:

- يستطيع الشامو اقتداء آثار بعضهم، سيجمعكم زئيركم من جديد.
وصحت في الجميع في حماس:

- هيا، فلتخبروا الباقيين بأن يعدوا العدة للرحيل مع منتصف الليل.

هزوا جميعاً رؤوسهم موافقين، وبدأوا في مغادرتهم واحداً تلو الآخر، كان آخرهم فاضل الذي توقف قبل أن يخطو خارج الخيمة، وقال لي باسماً:

- لم يعتد القادة أن يكونوا في أكثر مناطق جيوشهم خطراً.
قلت باسمة:

- إن القادة الحقيقيين لطالما فعلوا ذلك.
وأردفت:

- إنني أثق أن النصر سيكون حليفاً لنا، لكن بعد تحقيق الانتصار هناك نقطة ما يجب التوقف عندها، إننا نحارب من أجل استرداد النسالى حقهم في عيشة كريمة في چارتين لا لتدمير چارتين، لذلك لا بد أن أكون في أقرب النقاط إلى القتال.

وتابعت إليه بكلمات صادقة:

- سيكون باقي النسالى تحت إمرتك إن لم نستطع العودة، إنهم يثرون فيك ويعلمون مدى ولائكت لقضيتهم.

ربت على يدي بيديه وقال:

- سيكون كل شيء بخير.

قلت:

- أتمنى ذلك حقاً.

ابتسم وهم بالالمغادرة، لكنه توقف والتقت مرأة أخرى ونظر في عيني نظرة لم أعهد لها منه، ابتسمت في خجل وأنا أنظر في عينه قبل أن أجذ نفسي أضع رأسه بين كفي وأقوم بتقبيله قبل طولية لم تكن عادية قط.



(٨)

مُفراًن

هرولت ساعات ذلك المساء سريعاً كالأرنب الفار من صياده، وفي لمح البصر كان الليل قد انتصف وووجدت بتول تدلّف إلى ومن خلفها امرأة تحمل شيئاً مُطبقة بعناية على ذراعيها، قالت وهي تضعها أمامي:

- لقد أعددتها من أجلك سيدتي.

تعجبت حين وجدت تلك الثياب تشبه في تصمييمها ثيابي العسكرية القديمة التي كنت أرتديها أثناء عملي كرامية المنصة، بنطال رمادي وسترة رمادية لم يختلف بها عن سترتي القديمة سوى أنها لا تحمل شارة الرامية، ومن أسفلهما قبع حذاً أسود طويل العنق مثل حذائي القديم تماماً، حين أمسكت السترة في بهجة لأنتفحصها لاحظت أنها ثقيلة الوزن وذات صدر أقل ليونة نوعاً ما، فقالت المرأة على الفور:

- إنها مُبطنة برقاائق معدنية ستجعل اختراق البارود لها أمراً صعباً للغاية.

أومأت لها برأسِي مبتسمة في امتنان كبير، قبل أن تستأندن وتغادر مع بتول، بعدها نزعت فستانِي لأرتدي تلك الثياب، يغمرني شعورٌ غريب بعدما كانت المرة الأولى التي أرتدي فيها بنطالاً منذ قدومي إلى النسالي

قبل ستة عشر عاماً، كذلك انفرجت أساريري في تعجب حين وجدت مقاسه مثالياً إلى أقصى درجة، ثم ارتديت السترة وأحكمت إغلاقها لأجدها بالمثلالية ذاتها، ثم انتعلت حذائي وضربت بقدمي الأرض من أسفل، فشعرت أنني عدت إلى عامي التاسع عشر من جديد وقتما ارتديت زي الرامية للمرة الأولى، بعدها خرجت إلى خارج الخيمة كان في انتظاري على بعد أمتار فاضل وريان وببول والأربعة شبان حاملوأرواح الشامو، يقف وراءهم بضعة من النسالى يحملون شعلاً نارية مكتنثي من رؤية وجههم، شعرت أن الخجل يسري في كامل جسدي وأنا أتجه نحوهم بتلك الثياب حتى أتي استرقت النظر إلى وجههم لكنني لم أر في نظراتهم نحو إلا الحماسة والفخر والثقة خاصةً فاضل الذي تقدم إلى وأعطاني سلاحين ناريين أحدهما مسدس والآخر بندقية ذات حزام جلدي كنت أعرف أنهما من غنائم يوم الغفران الأخير، وقال لي بعدما وضعت المسدس بجانب خصري وعلقت البندقية على ظهري:

- سئلتني في أقرب وقت أيتها القائدة.

ابتسمت إليه وقلت:

- سأحرص على ذلك.

أما ريان الذي كان يمسك في يده كتاباً، فأعطاني نظارةً مُعَظّمة أحادية العين وقال:

- اغتنمتها من أحد طواطم المدافع، قد تحتاجينها هناك.

فسألته:

- ما هذا الكتاب؟

قال:

- إنه كتاب عن تضاريس چارتين الجنوبيّة، كان بين الكتب التي
أحضرناها من مكتبة أبيك إلى مدرستنا، أفادني كثيراً أثناء
هروبي من الأشراف في الشهور الماضية، وسأقود من يدقون
الطبول معى طبقاً لخريطة تُوجَد فيه.

فأومأت برأسِي باسمه، قبل أن أنظر إلى يعقوب وأقول:

- ستحرك إلى الشمال الآن بأقصى سرعة لنا في صمت مطبق دون
زئير.

هزّ رأسه إيجاباً قبل أن تأتيني بتول بالفرس التي أتيت بها يوم
الغفران، فوثبت إلى صهوتها ومن بعدي وثب كل منهم إلى صهوة جواهه،
لأنحرك ومن بعدي يعقوب إلى ممر جبلي جانبي كان ينتظرنَا فيه ما
يقرب من مائتي نسلي زائر يمتنى أغلبهم أحصنة فيما كان الباقيون
مشاةً يحمل بعضهم مشاعل نارية، في الوقت ذاته تحرك فاضل وريان
إلى من ينتظرونهم من نسالى زائرين وبشريين ليشرعوا فيما خططنا
له.



لم نسلك الطريق المهددة المعتادة إلى جويدا واتخذنا طريقاً أخرى
كانت أكثر وعورة وتشعباً خشية أن يكون هناك فخ أعده لنا كيوان ورجاله.
في منتصف الطريق تقرباً كان النسالى من خلفي بما فيهم يعقوب قد
استحالوا جميعاً لهيئتهم الزائرة، وإن هدأت زجرتهم إلى حد السكون
بعدما بدا أن يعقوب قد نقل إليهم تعليماتي جيداً، حتى الأحصنة بدت
هي الأخرى كأنها فهمت ما نحن بصدده وتحركت في خفة دون صهيل
واحد.

حين اقتربنا من أقرب الجبال إلى جنوب جويدا هبطنا جميعاً عن الأحسنة وتركناها في ممر يقع خلف ذلك الجبل، رأيت يعقوب الزائر يهمس إلى حسانه، لم أعرف إن كان يأمره بشيء أم ماداً، لكننا تركنا أحصنتنا في النهاية دون أن نعقل حساناً واحداً منها أو يقف أي نسي لي لحمايتها، ثم تحركنا في هدوء نحو سفح الجبل وهناك أمرت بإطفاء شعلنا، قبل أن نصعد إلى أعلىه، وتنبطح ب أجسادنا على رماله، لظهور لنا أنوار مشاعل جويداً أمام أعيننا، كانت الباحة مُناارة عشرات المشاعل على امتداد مساحتها بينما ظهرت نيران متحركة عند مداخل المدينة الجنوبيّة بعيدة عن الباحة لم أكن أحتاج إلى النظارة المعظمة لأعرف أنها مشاعل يحملها فرسان لا يكُونون عن الحركة جيئاً وذهاباً، كذلك كانت بعض منازل الأشراف البعيدة تحمل في نوافذها مشاعل خافتة الإضاءة كعادة مشاعل البيوت فهزّت رأسي أسفًا بأن أصحابها لم يغادروا مدینتهم كما أملت، ثم أجهلّت عندما صدر صوت مفاجئ من خلفي قائلاً:

- إن تعزيزات المدخل البعيدة ليست بقوة تعزيزات الباحة.

كان يعقوب قد استعاد هيئته البشرية، فقلت له:

- نعم، يبدو أن كيوان سيجعل مهمة صد أي هجوم لنا هناك على الأهالي أنفسهم، إن تلك المداخل تحمل وراءها مئات البيوت وساكنيها.

وتابعت إليه بنبرة جادة للغاية:

- إن اضطررنا للقتال سنحرض على عدم قتل أي فرد غير مسلح يا يعقوب .. عدنى بذلك.

قال بعد صمت:

- حسناً.

قلت وأنا أنظر إلى السماء:

- لم يعد إلا وقت قليل للغاية على دق ريان ومن معه أولى طبول الشامو، أتمنى أن يبتلع كيوان طعمتنا مبكراً ويكشف لنا عن مدى مدافعي في أقرب وقت، لا أريد بقاءنا هنا لوقت أطول.

بعدها ساد الصمت بينما لفترة طالت لم يقطعه إلا دقات الشامو التي صدعت جنوباً ليرج صدى صوتها الآفاق الساكنة، ومعها اندلع الضجيج في الباحة أمام أعيننا، وهرولت المشاعل فيها جيئهً وذهاباً مثلها مثل مشاعل المداخل الأخرى، أما مشاعل البيوت فأطافت جميعها.

كانت صيحات الفرسان القادمة من تجاه الباحة تتعالى أكثر وأكثر مع استمرار دقات الطبول يحيطها حالة هائلة من الهرج والمرج في صفوف الجنود، فقلت ليعقوب ونحن نشاهد تلك الحالة الشديدة من الاضطراب:

- لن ينتظر كيوان حتى يتملك الرعب من جنوده فلا يقوى على رد فعلهم .. لقد ترك هجومكم الأول على الباحة شرحاً عظيماً في نفوسهم.

قال وهو ينظر بعيداً نحو أحد المداخل البعيدة للمدينة:

- نعم، أرى هذا.



استمرت دقات الطبول في دويها ونحن ننتظر اللحظة التي تخرج فيها المدافع من الباحة لتطلق قذائفها، لكننا فوجئنا بطبلولٍ أخرى تدق في الباحة لتحرك معها حشود الجنود والفرسان خارجةً عبر البوابة الجنوبيّة كسيل نعل منتظم كان ينقسم بمجرد اجتيازه البوابة إلى اليمين واليسار في ثلاثة صفوف ظلت تواصل زحفها على امتداد الجهة الجنوبيّة لجويدا حتى أغلقت جانب المدينة المواجه لنا تماماً، بعدها تعالت أصوات الأبواق لتطلق معها في آنٍ واحد عشرات القذائف المتوازية في اتجاه الجنوب لتصيبني الصدمة كلّياً من الموضع التي انطلقت منها القذائف بعدما وجدت جميعها مناطق مأهولة بالسكان قد يسبب اشتعال قذائف مدفع واحد بها إبادة المنطقة بأكملها.

قال يعقوب وهو ينظر إلى القذائف العالية المتالية العابرة من فوقنا:

- ستصل هذه القذائف إلى أقصى الجنوب بدون أن تتحرك مدافعاً جنوبياً .. لا بد وأن ندمر هذه المدفع داخل جويدا، لن أستطيع الوفاء بوعدي إليك سيدتي.

ضمت شفتي في صمت، كان الشاب محظياً في كلامه، لم ير أحدنا في چارتين ارتفاعاً للقذائف مثل ذلك الارتفاع من قبل، لكنني قلت له:

- إن دُمرت قذائف تلك المدفع داخل المدينة ستُسْجِرُها كلية.

قال:

- وإن تركت قد لا يستطيع الباقيون منّا في الجنوب النجاة.

وأردف:

- هناك أوقات ما لا تدع لنا الحياة مجالاً لاختيار الحلول الرمادية، وهذا ما نحن فيه الآن سيدتي، سأهبط برجالي لقتال أولئك الجنود حتى أعبر إلى وسط المدينة .. لن أكشف مكاننا بضرب دقات الشامو من أجل قدوم دعم الباقيين، وكذلك لن أتحرك جنوبًا لإحضارهم في صمت بعد معرفتنا بأماكن المدافع الحالية والتي قد تتغير مع أي تأخير لنا، إنها فرصة قد لا تتكرر، سأستغل الخوف والارتكاب اللذين أراهما في أولئك الجنود، قام خمسون فقط منا يوم الغفران السابق بتحقيق انتصار حقيقي والآن لدى مائتا زائر، إن فرصة انتصارنا مؤكدة.

وابع وهو ينظر إلى النسالى الزائرين من خلفه:

- سأترك معك ثلثين منهم، سيدق بعضهم الطبل إن كنا في حاجة حقيقة لها وإن كنت لا أتوقع ذلك.

حاولت أن أنطق إليه، لكنه لم يمهلي فرصة للحديث، وزحف بجسده إلى الخلف واستحال إلى هيئته الزائرة، فقلت:

- إن استطعت قتل جنود المدافع دون تدميرها فلتفعل ذلك.

فزمجر بغير أن أعرف إن كانت تلك الز مجرة موافقة منه أم اعتراض، بعدها انسل هابطًا هو ومن معه من النسالى الزائرين إلى الممر الذي وقفت فيه الخيول.

بعدها بقليل توقفت دقات الشامو عن الدق جنوبًا، فتوقفت المدفع عن قصها، لتخيم حالة شديدة من الصمت والترقب على جميع الجنود المصطفين على حدود جويدا قبل أن تشتعل الجلبة فجأة عندما وجدتُ الخيول التي تحمل النسالى الزائرين تركض بأقصى سرعتها يميناً

ويساراً تجاه الجنود الواقفين، يقودهم يعقوب الذي أطلق زئيرًا رجّ به الأجواء الساكنة تبعه زئير الآخرين الهائل، لتبدأ معه أصوات الطلقات النارية العشوائية في الدوي.

كنت أعلم أن الدروع الحديدية التي يرتديها جنود الأشراف ستقيهم بعض الشيء من مخالب النسالي، لكنها في الوقت ذاته جعلت حركتهم ثقيلة للغاية، ومع سرعة انقضاض الزائرين والذكاء الذي شعرت بأن يعقوب يتمتع به كان بادياً أن تلك الدروع لن تفع شيئاً سوى تأجيل موته الجنود بعض الوقت.

سقطت بعض خيول النسالي مع اقترابها من صفوف الجنود، فواصل راكبوها هجومهم في شجاعة بالغة غير عابئين بوابل الطلقات النارية المتواصلة، حتى التحم الجيشان فتعالت صرخات جنود الأشراف الذين ساد الارتكاك والتقهقر صفوفهم بسرعة لم تخيل حدوثها مع مائة وسبعين نسلي فقط.



كان العراق متمركزاً في المنطقة الجنوبيّة الملائقة للباحة ومع اشتداذه وجدت الصفوف المتعددة إلى الاتجاه الغربي لحدود جويداً من أجل حماية بقية مداخلها قد اندفعت تاركة أماكنها إما لمساعدة الجنود المجاورين للباحة أو لتطويق النسالي الزائرين من كافة الجوانب، وقتها جال في بالي أن أستغل هذه الفرصة التي لاحت في الأفق لأتسلل مع الثلاثين نسلياً المتبقين معي عبر تلك المداخل من أجل شيء واحد فقط وهو الوصول إلى قذائف المدفع قبل أن يصل إليها يعقوب الذي كنت أشعر بأن مسألة انتصاره مجرد وقت لا أكثر رغم فارق الأعداد

بين الجانبين، وفكرت في أني لو استطعت أمر من معي بالسيطرة على تلك المدفع واحداً وراء الآخر وإبعاد عربات قذائفها بعيداً عن مناطقها المأهولة بالسكان سيكون أفضل انتصار لنا، وقد يعطينا مزيداً من الود والتعاطف من أهالي جويدا في حال سيطرتنا على مدینتهم بعدما لم يعبأ كيوان بحياتهم، وفي تلك اللحظة قلت بنبرة آمرة لأقرب النسالى الزائرين بجواري وأنا أشير إلى مدخل غربي لم يكن محمياً إلا بمتراس يقف خلفه بضعةٍ من الجنود ظهروا مع بزوج النهار:

- سنتسلل عبر ذلك المدخل.

ونهضت من رقدي، فتبعني النسيي الذي حدثه ومعه الباقيون، وهبطنا مسرعين إلى ممر الخيول، لنركب خيولنا وننطلق في صمت من وراء الجبل بعيداً عن المعركة القائمة نحو مدخلنا المنشود إلى أن وصلناه، وهناك صوّيت مسدسي نحو رأس جندي حاول أن يصوّب نيران سلاحه تجاهي، فسقطت من طلقة واحدة، قبل أن يسبقني النسالى من خلفي وينقضوا على الباقيين من الجنود، لنعبر إلى داخل المدينة راكضين بخيولنا يحيطني النسالى من كافة الجوانب، ونواصل تقدمنا في صمت مُطبق وسط شوارعها الخاوية، حتى ظهرت أمامنا بعض المتراسين الأخرى يحتمي خلفها طاقم من الجنود والفرسان الذين تفاجئوا من ظهورنا أمامهم، كان مدفع ضخم يظهر في نهاية الشارع من خلفهم على مسافة مائة متر تقريباً، فصحت في النسالى من حولي للتقدم نحو ذلك المدفع، ليتعالى زئيرهم جميعاً ويُسرعوا من ركض خيولهم، ويندفعوا نحو المتراسين والجنود كالسيل الجارف ليقتلوهم جميعاً، واصلنا التقدم نحو ذلك المدفع، وهناك أمرت النسالى بالتوقف، وكُلّفت ثلاثة منهم بجرّ عربة قذائفه نحو صحراء الجنوب، ثم أمرت الباقيين بأن نكمل طريقنا

إلى باقي المدافعين، لم أكن أحتج إلى تأكيد بأن النصر حليفنا بعدما رأيت ذلك الخوف المنطبع على وجوه الطاقم الثاني من جنود الأشراف وهم يصوّبون أسلحتهم نحونا بأيادٍ مرتعشة، قبل أن يلقوا مصرعهم أسفل أقدام أحصنتنا ولم يُصب الناسى من حولي إلا بعض الإصابات التي لم تضعف من قواهم شيئاً، لنواصل طريقنا نحو المدفع الثاني والذي كان قابعاً في نهاية الشارع الأكثر طولاً في جويداً، لكنني تقاجأت بظهور بعض الفرسان فجأة في الناحية الأخرى من الشارع، كانوا يندفعون بسرعة قصوى تجاه المدفع لحمايته في حماسٍ شعرت أنه يختلف عما بدا من غيرهم من الجنود، يقودهم فارس لا يرتدى خوذة فوق رأسه ولا أعتقد أنه قد يكمل العشرين من عمره، صرخت في الناسى بأن يواصلوا طريقهم، وتقدمنا يعلو زئيرهم من حولي ليختلط مع صياح الفرسان بالجانب الآخر كأننا في سباقٍ لاقتراض ذلك المدفع، حتى توقف القادمون من فرسان الأشراف عن ركضهم تجاهنا فجأة ومع ذلك التوقف شعرت أن الزمان قد توقف بي عندما وجدت الناسى الزائرين من حولي يستعيدون هيئتهم البشرية واحداً وراء الآخر، لتصبح في لحظات قليلة جماعة من بشر عزّل يمتطون جيادهم، بعدها لم تتأخر طلقات الأشراف النارية عن حصدنا واحداً تلو الآخر.



(٨)

ذِهَبَر

انطلق آدم بحصانه دون أن ينتظري بعدهما قال أنه يشعر باقترب النسالى الزائرين، فوثبتت على الفور من نومتي، وركضت إلى أقرب الأحسنة لي وقفزت إلى صهوته لألحق به، كذلك وجدت بضعة من الفرسان قد انطلقوا بخيولهم خلفه عندما عبر البوابة الرئيسية للمعسكر -لم أعرف وقتها إن كان هؤلاء من كلفهم أبي بمراقبته أم أنهم حرس البوابة المكلفين بعدم هروب أي جندي أو خروجه من المعسكر دون إذن- فانطلقت وراءهم بحصاني في سرعة كانت أخف كثيراً من سرعتهم -بعدما ظلت قلة إجادتي لركوب الخيل عائقاً ملازماً لي منذ طفولتي-. بعدها جذبت عنان حصاني فجأة لأوقفه، وتسمرت مكانياً تلتفت حولي وقلبي يخفق بقوة عندما دقّت في الأفق فجأة طبول الشاموا وأطفئت نيران مشاعل جويدا التي كان يفصلني عنها أقل من نصف ميل، وحدثت نفسى بالعودة إلى المعسكر مرة أخرى وترك آدم لمن يلاحقونه وخاصة مع تصاعد تلك الدقات وبداء اهتماج الحصان من أسفله. لكنى مع إطلاق مدافع الجدار قذائفها نحو الجنوب قررت أن أكمل طريقى نحو جويدا للحاق بآدم رغم أن داخلي كان يشعر بقوة أنتا على وشك طامة كبيرة وإن امتلكنا مثل هذه المدافع التي يثق فيها أبي كثيراً .. وملت بجذعي

للامام واحتضنت عنق حصاني بذراعي كي أتشبث به جيداً، ثم لكرت مؤخرته بکعب قدمي كي ينطلق مسرعاً، فأسرع من ركضه نحو المدينة وأنا أتأرجح فوق منته يميناً ويساراً، حتى وصلت إلى المدخل الشمالي لجoidاً مع توقيف المدافع عن قصفها المتواصل، وما إن عبرت ذلك المدخل حتى سمعت صوتاً ينادي مسفيثاً:

- زهير.

فالتفتُّ نحو مصدر الصوت، كان الجنود الملاحقون لأدم قد أمسكوا به بمساعدة حامية المدخل الشمالي، وأنزلوه عن حصانه وقيدوا ذراعيه وقدمييه بقائم حديدي مثبت في الأرض، فاقتربت منهم، فقال لي قائدهم الذي كان يعرفني قبل أن أنطق:

- إن لدينا أوامر باعتقال أي جندي يحاول الهروب من المعسكر، حتى وإن كان صديفك سيدي.

وأردف وهو ينظر إلى آدم:

- لا بد وأن يكون عبرة للأخرين والا فعلوا مثلما فعل.
أدركت أنهم ليسوا من كُلفوا بمراقبته مثلما أخبرني أبي، فتجاهلت كلامه واقتربت من آدم الذي قال:

- إنهم قريبون للغاية يا زهير .. اجعلهم يحرروني.

نظرت إليه ولم أعرف ماذا أفعل، فقط تمنيت داخل نفسي لو لم يكلّفني أبي بهذه المسئولية واعتقله أو قتله من البداية، ثم ارتبت الأمور جميعها عندما مرّ بنا جندي يركض بحصانه نحو المعسكر الشمالي وهو يصرخ إلى حامية المدخل الذين حاولوا إيقافه بأن النسالى الزائرین قد بدأوا في مهاجمة معسكر الباحة، وقتها شعرت بأن عقلي قد شُلّ تماماً

عن التفكير، ونظرت إلى آدم الذي كان يحدق غاضبًا في الجنود، قبل أن يصرخ فينا جميعاً بأن نحرره كي يساعد جنود الباحة. كنا وقتها قُبيل شروق الشمس ومع انتشار المتأريس والأسلال الشائكة في أغلب شوارع جويدا كنت أعرف أن المسافة بين المدخل الذي كنا نقف عنده وبين باحة جويدا قد تستغرق ضعف الوقت المعتاد لاجتيازها، ومع السرعة التي رأيت عليها النساى الزائرين يوم الغفران كان ذلك وقتاً كافياً لإحداث خسارة عظيمة بين جنودنا إن فشلت دروعهم الحديدية في حمايتهم، ثم ظهر حسان جريح يحمل فارساً مُصاباً بإصابات بالغة فقدته وعيه على مقربة منا، فأسرع إليه الجنود، وأنزلوه عن حسانه ونزعوا عنه دروعه ليظهر جسده الغارق في دماءه أمامنا، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فأدركت أن الأشراف يعانون بشدة في الجانب الآخر من المدينة، وقتها صرخ في آدم راجياً:

- لا بد وأن نساعدهم يا زهير، أرسل إلى أبيك كي يأمرهم بتحريري.. أقسم بأنني سأشبعك ضرباً على كل هذا التأخير.

فنظرت إليه ضاماً شفتني في حيرة، ثم نظرت إلى جثة الفارس من جديد، بعدها أخرجت زفيري وتحركت إلى قائد الجنود الذي كان يقف على بعد خطوات مني، وأخرجت الشارة التي كان أبي قد أعطاها لي، وقلت له بلهجة آمرة:

- لقد استأذن مني هذا الجندي بصفتي فارساً معيّناً من الفارس كيوان بشخصه .. وأمرك أن تحل وثاقه في الحال.

نظر الفارس إلى الشارة وفكر للحظة، قبل أن يومئ إيجاباً ويلقي تحيته العسكرية لي ويأمر جندياً خلفه ليحل وثاق آدم، بعدها ركب آدم فرسه وركبت فرسي أنا الآخر، لمنطلق أنا وهو عبر شوارع جويدا إلى

الباحة، يسبقني آدم الذي شعرت حقاً بأنه فارس عظيم بعدهما رأيته يقفز بحصانه ليعبر المatriس والأسلال الشائكة .. على عكسي تماماً بعدما كنت أنتظر حتى يزيلها الجنود المنتاثرين في الشوارع لحماية المدافع قبل أن يعيدها إلى أماكنها بمجرد عبوري.

كنت أنظر إليه وهو يركض أمامي وأفكر؛ ما إن كنت قد اتخذت القرار الصائب أم لا؟ وما الذي قد يحدث في الدقائق القليلة القادمة عندما يرىبني جنسه وهم يهاجمون جنودنا؟ وإن كان سيثور مثلهم لأكون أنا وأبي سبب نكسة بلادنا أم سيفي بوعده لي وسيستطيع إخمام أرواحهم وينفذ بلادنا حقاً؟ كنت أدرك أنني مع تلك المسافة التي يتبعها عنني ومع عدم إجادتي لقيادة الحصان بيد واحدة أنتي لن أستطيع تصويب سلاحي تجاه قلبه إن ثارت روحه، لكنني لم يكن أمامي حلٌ غير تلك المقاومة بعدما بدت الخسارة وشيكة في كافة الاحتمالات.

عندما اقتربنا من باحة جويداً أبصرت ما نحن بصدده القديم عليه، كانت الصورة طبق الأصل مما حدث يوم الففران السابق .. ارتباك وفوضى كبرى بين صفوف الأشراف يقابلها انقضاضُ من النساى والزائرین بلا رحمة أو شفقة .. كنت أعرف أن القادمين من المعسكر الشمالي لدعم جنود الباحة سيأخذون وقتاً طويلاً قد يُمكّن النساى من القضاء على كل الموجودين حرفياً، وربما يفضل القادةبقاء الآخرين بذلك المعسكر حمايةً للمدن الأخرى والتخلّي عن جويداً حتى إشعار آخر بعدما كان باديأً أن الخسارة هي النتيجة الأقرب لنا مهما كان عددها من جنود .. وجدت آدم ينحرف بحصانه عبر المدخل الشمالي لباحة جويداً فانحرفت من خلفه، إلا أنني توقفت عندما وجدته يندفع بقوّة نحو ساحة القتال، لست أنا من يندفع إلى ساحة القتال بصدر مفتوح،

وذهبـت عن حصـاني وركـضت إـلى سـلم المـنـصة صـاعـداً إـلى أـعلاـها،
لـأـرـاقـب بـعـينـي آـدـم الـذـي واـصل شـق طـريقـه غـير عـابـئ بـالـطـلاقـات النـارـية
الـعـشوـائـيـة المـتـاثـرـة هـنـا وهـنـاك، ثـم وجـدتـه يـنـحـرـف بـحـصـانـه عـنـدـما عـبـر
بـوـاـبـة الـبـاحـة الـجـنـوـبـيـة ليـرـكـض خـلـف صـفـوف الـجـنـود بـأـقـصـى سـرـعـة نـحـو
الـاتـجـاه الـفـرـقـيـ، حتـى اـخـتـفـى عـن بـصـري تـامـاً، وـفيـ الحـقـيقـة خـشـيـت أـن
أـهـبـط عـنـدـمـنـصـة وـأـقـرـب أـكـثـر مـنـمـنـطـقـة الـاشـتـبـاك، وـبـقـيـت مـوـضـعـيـ،
ثـم وجـدتـه يـعـود بـحـصـانـه رـاكـضاً فيـ الـاتـجـاه الـآـخـر خـلـف الـجـنـود الـذـين
كـانـوا يـواـصـلـون تصـوـيب طـلاقـاتـهـمـ النـارـيـة فيـ يـأسـ نـحـوـ النـسـالـيـ .. إـلـىـ أـنـ
حـدـثـ ماـ كـانـ مـفـاجـئـاً لـلـجـمـيعـ، وـرأـيـت سـرـعـةـ النـسـالـيـ الـزـائـرـيـنـ الـرـهـيـبـةـ
قدـ بدـأـتـ تـقـلـ وـتـتـنـاـقـلـ بـوـضـوـحـ فيـ أـمـرـ كـانـ مـثـيـرـاً لـلـغـاـيـةـ، وـمـعـ مـرـورـ الدـقـائقـ
وـجـدـتـ بـعـضـهـمـ قـدـ بـدـأـوا يـفـقـدـونـ هـيـئـتـهـمـ الـزـائـرـةـ وـيـسـتـعـيـدـونـ أـجـسـادـهـمـ
الـبـشـرـيـةـ شـيـئـاً فـشـيـئـاً فيـ مشـهـدـ كـنـتـ أـرـاهـ كـالـحـلـمـ، ليـتـسـاقـطـواـ وـاـحـدـاً وـرـاءـ
الـآـخـرـ دـوـنـ أـدـنـىـ مـقاـوـمـةـ، وـقـتـهـاـ دـبـتـ الـحـمـاسـةـ فيـ قـلـوبـ جـنـودـناـ الـيـائـسـيـنـ،
وـتـعـالـتـ صـيـحـاتـهـمـ لـيـواـصـلـواـ إـطـلاقـ نـيـرـانـهـمـ نـحـوـ مـنـ تـبـقـىـ مـنـ أـولـئـكـ
الـلـوـحـوشـ، لـتـعـكـسـ الصـورـةـ تـامـاً فيـ دـقـائقـ وـيـنـتـقـلـ الـارـتـبـاكـ وـالـفـوـضـيـ
إـلـىـ صـفـوفـ الـزـائـرـيـنـ الـذـينـ بـدـأـواـ كـانـهـمـ تـفـاجـئـواـ بـمـاـ حـدـثـ مـثـلـنـاـ تـامـاًـ،
قـبـلـ أـنـ يـسـتـحـيلـواـ هـمـ الـآـخـرـونـ إـلـىـ صـورـتـهـمـ الـبـشـرـيـةـ جـمـاعـةـ وـرـاءـ الـأـخـرـىـ
لـتـحـصـدـهـمـ طـلاقـاتـاـ النـارـيـةـ، بـعـدـهاـ وـجـدتـ آـدـمـ يـرـكـضـ بـحـصـانـهـ إـلـىـ
الـبـاحـةـ منـ جـديـدـ، فـهـبـتـ مـسـرـعاًـ مـنـ أـعـلـىـ مـنـصـةـ فيـ فـرـحةـ كـبـرىـ،
وـرـكـبـتـ حـصـانـيـ وـرـكـضـتـ بـهـ نـحـوـ لـأـلـاقـيـهـ وـأـحـضـنـهـ بـعـدـمـاـ قـلـبـ هـزـيـمـتـناـ
الـمـحـقـقـةـ إـلـىـ اـنـتـصـارـ سـاحـقـ لـمـ يـكـنـ لـيـحـدـثـ أـبـدـاـ لـوـلاـ وـجـودـهـ بـيـنـنـاـ، لـكـنـيـ ماـ
إـنـ اـقـرـبـتـ مـنـهـ حتـىـ سـمـعـتـ آـذـانـاـ أـصـوـاتـ طـلاقـاتـ نـارـيـةـ فـرـديـةـ فيـ الجـانـبـ
الـفـرـقـيـ، فـصـحـتـ إـلـيـهـ:

فجذب عنان حصانه لينطلق به إلى خارج الباحة، فصحت في حصاني أنا الآخر، وأمرتُ جماعة من الفرسان كانوا على مقربة مني بأن يتبعونا، لركض جميعاً إلى الشارع الجانبي للباحة عبر أحد مداخلها الغربية يقودنا آدم، ثم تقدمنا في طريقٍ مختصر كنت أعرفه نحو مصدر الطلقات النارية، لنجتاز الطرقات والشوارع واحداً تلو الآخر، حتى وصلنا إلى أطول شوارع جويداً والذي كان يقع في أوسطه مدفوع من مدافع الجدار.. ظهرت على الجانب الآخر جماعةٌ من النسالى الزائرين تقدمنا براجمية المتمردة يركضون بأقصى سرعة لهم نحوه بعدهما نجحوا في اجتياز الجنود المكلفين بحمايته، لأجد آدم يصرخ علينا بأن نسرع في الوقت الذي أسرع فيه النسالى الزائرين نحونا، قبل أن يبطئ آدم من سرعة حصانه ويوقفه فجأة، فوضعت يدي على مقبض سلاحه خشية أن تكون رؤيته للرامية النسلية قد غيرت في داخله شيئاً، وعزمت داخل نفسي أنتي سأقتله وسأقتلها إن اقتضى الأمر، لكنني وجدت النسالى الزائرين أمامنا يفقدون هيئتهم الضاربة ليتحولوا إلى صورتهم البشرية مثلهم مثل من لقوا حتفهم عند جنوب الباحة، لتصدفهم طلقات أسلحة الجنود المرافقين لنا بسهولة بالغة، بعدها تقدمنا أكثر وأكثر نحوهم لتأكد من موتهم جميعاً وموت الرامية التي سقطت عن حصانها، لكننا تفاجئنا بذلك النسلي الزائر الذي ظهر بحصانه من العدم أمامنا وانقضّ مائلاً بجذعه ليحمل الرامية أمامه، قبل أن يستدير بحصانه ويركض بها فاراً نحو الجنوب مبتعداً عناً، حاولنا تصويب الأسلحة جميعها نحوه، تحمل جسده ما أصابه من بارود دون أن يتوقف

حتى غاب عن أعيننا، فواصل من معنا من جنود وفرسان ملاحته، إلا
آدم الذي توقف منهاً، فسألته في دهشة بعدما نزلنا عن خيولنا:

- لماذا لم يخضع لك ذلك النسلي الذي أنقذ الرامية؟!

قال وهو يلقط أنفاسه:

- لا أعرف .. ظلت أن الجميع خضعوا لي.

فتابتت فرحاً وأنا أضرب كتفه بقبضتي:

- لا عليك يا صديقي .. لقد حققت لنا انتصاراً عظيماً سيدذكرك
به أهل چارتين أبد الدهر.

ابتسם وهو يقول:

- على عملك أن يمنحك ترقيةً كبرى إذن.

فقلت ضاحكاً:

- لو كنت مكانه لجعلتك قائداً لجيوشة جميعاً.

فضحك قبل أن نجلس على جانب الطريق، ثم سأله ونحن ننظر إلى
قتلى النسالى:

- هل يوجد المزيد منهم؟

قال:

- لا أعرف .. لكنني هنا حتى نقضي عليهم جميعاً.



كان عدد أسرى النسالى في ذلك اليوم واحداً وستين نسلياً، كانوا قد
أصيروا بنيران أسلحتنا النارية ولم يموتوا، فتم تكبيل أعناقهم وأطرافهم

بأغلال فولاذية سميكة خوفاً من عودتهم إلى صورتهم الزائرة في أي وقت، قبل أن يوضع كل واحد منهم في قفص حديدي منفصل، ويحملهم الجنود على العربات إلى المعسكر الشمالي في مهمة كانت صعبة للغاية مع خروج الأهالي الناقمين من بيوتهم لإلقاء الحجارة والمياه الساخنة القذرة على تلك الأقفاص، كذلك استخدم بعضهم قضباناً حديدية طويلة ذات أطراف مدببة لنكز أجسادهم العارية وإسالة الدماء منها، حتى شعرت أنها لن تصل إلى المعسكر الشمالي وأحددهم على قيد الحياة.

فُبْيل ظهيرة ذلك اليوم قدم أبي وعمي مع باقي القادة إلى المعسكر الشمالي، ثم استدعاني أبي إلى خيمته، فقلت له في حماس بمجرد أن دلفت إليه ووجده بمفرده:

- لقد كان آدم العامل الرئيسي في انتصارنا صباح اليوم عندما استطاع إعادتهم إلى هيئتهم البشرية .. لقد كنت محقاً فيما خططت له يا أبي.

وتابعت:

- لا يعرف أحدٌ بعد ما حدث .. تناشر الأقاويل بين الجنود بأن ما حدث كان لعنةً من الباحة للنسالى.

فابتسم أبي ابتسامة خفيفة، وقال:

- نعم سمعت ذلك أيضاً.

فسألته في ترقب:

- هل أخبرت عمي بأمر آدم؟

أومأ برأسه نافياً وقال:

- إنه لا يعرف بعد سر ما حدث، وكذلك لا يقتنع بما ينتشر بين الجنود، ولا أعتقد أنه سيهداً حتى يعرف السبب، لكنني أكثر من يعرفه ويعرف تهوره، ولا أضمن ماذا سيفعله بأدم إن عرف حقيقته حتى وإن حقق لنا الفتى انتصارنا العظيم اليوم .. سأخبره في الوقت الذي أراه مناسباً.

وأضاف:

- ما زال هناك المزيد من النسالى الزائرين، نحتاج إلى آدم في حرربنا ضدهم.

قلت في قلق:

- هناك زائر لم يستطع آدم التحكم فيه.

قال:

- لا يهم .. لقد تحكم في مائتين منهم، وقدّمهم لنا ما بين أسرى وقتلى، خمس عددهم في ضربة واحدة، لقد وهبت لنا أرض چارتين صديقك في الوقت المناسب.

هزّت رأسِي إيجاباً، ثم قلت متذكرةً:

- كان بمقدور الرامية تدمير قذائف أحد المدافعين داخل جويدا ولم تتفعل.

قال ساخراً في برود وهو يتوجه نحو طاولةٍ تراصت عليها زجاجات الشراب:

- سنكافئها على طيبة قلبها فيما بعد.

فقلت:

- وماذا سيحدث لآدم بعد انتهاء حربنا؟

ابتسم وهو يسكب شراباً لنفسه وقال:

- مثلما سيحدث بعد قليل من اعتقلوا صباح اليوم.

وابتاع وهو يرفع كأسه نحو:

- ابتسم يا صغيري فالاليوم للاحتفال وحسب.

أومأتُ برأسِي إيجاباً في صمت قبل أن أطلب المغادرة، فاذن لي، فخرجت إلى الساحة مرة أخرى، كانت الأقباصل الحديدية المحتجز في داخلها النسالى قد عُلقت جميعها في منتصف الساحة بأحجام سميكية تتدلى من رافعات خشبية مائلة قام الجنود بتثبيتها في أرض الساحة قبل قدوم عمي ومساعديه، كما شيدوا منصة صغيرة للسادة على بعد أمترار منها، كذلك خلت الساحة من حشود الجنود المكذبين بعدما قسموا إلى ثلاثة فرق؛ انتقلت الفرقة الأولى التي كان يقارب عددها نصف العدد تقريباً إلى باحة جويدا للانضمام إلى الجنود هناك، وأحاطت الفرقة الثانية الساحة الشمالية من الخارج ليتركوا أماكنهم للقادمين من أهل جويدا ومن أرادوا حضور مراسم إعدام أولئك الوحش، فيما أحاطت الفرقة الثالثة منتصف الساحة المعلق به الأقباصل في إطار دائري من سبعة صفوف .. فكرتُ وأنا أقف بالصف الأخير منها أن عمي قد اختار الساحة الشمالية بعيداً عن باحة جويدا لتنفيذ الإعدامات تجنباً لانتقال أرواحهم الشريرة إلى أي جنين بالخطأ هناك حتى وإن كان من أهل چارتين الأشراف، لتذهب أرواحهم النجسة بلا رجعة عن بلادنا .. قبل أن ينصبّ تفكيري على آدم الذي كان يقف بالصف السابق لي أمامي مباشرة يحملق في الأقباصل المتراجحة والنسالى التائرين بداخلها دون

أن يحرك رأسه يميناً أو يساراً. لاضع يدي على مقبض سلاحي تحسباً لأي رد فعل غير متوقع منه مع تنفيذ الإعدامات.

بعدها بدأ الأهالي يحضرون إلى الساحة جماعة وراء الأخرى حتى صار زحامهم من خلفنا في وقت قليل يشبه زحام باحة جويدا في أيام الغفران، ثم زادت الجلبة بينهم بعض الشيء عندما طالبهم الجنود بالتنحى جانباً كي يفسحوا طريقاً للأحصنة التي دلفت إلى الساحة وهي تجرّ في بطء شديد عربات خشبية تحمل كل واحدة منها قدرًا معدنياً كبيراً يتضاعد البخار من أعلىها، قبل أن يوقف كل قائد عربته أسفل قفص من الأقفاص المعلقة، ويحرر أحصنتها وبيتعد بها جانباً، وقتها تزايدت الهممات المترقبة بين صفوف الحاضرين الذين تدافعوا من خلفنا كي يروا ماذا ينوي عمي فعله .. بعدها صعد عمي وأبي وبباقي السادة إلى المنصة الخشبية ودقّت الموسيقا، فهدا الجميع إلا النسالى المحتجزين في الأقفاص والذين واصلوا طرق الأقفاص بأغلالهم الحديدية في هياج شديد دون توقف حتى صدر الرزير الأول بينهم بالأعلى.

نظرت إلى آدم في توتر، كان يواصل تحديقه فيهم فحسب، بعدها أجمل جسدي عندما انطلق زئير آخر من قفص آخر، وفي غضون دقائق كانت الأقفاص جميعها تضج بالرزير الغاضب ومعه تزايد تأرجح الأقفاص في الهواء، ودب السكون الحذر أرجاء المحتشدين، فتحرك عمي إلى مقدمة المنصة، ووقف على حافتها، ودون أن يقول شيئاً أشار إلى مساعديه لبدء الإعدامات، فانزلقت الأحبال جميعها في وقت واحد إلى أسفل لتنغمس الأقفاص رويداً رويداً داخل القدور ويتعالى زئير النسالى الصارخ إلى حد غير مسبوق فيما انقطعت الأحبال وتراجحت يميناً ويساراً مع الهواء، وقتها أخرجت سلاحي الناري وأمسكت مقبضه بأيدي مرتعشة وأنا أنظر

إلى آدم الذي كان يواصل تحديقه نحو القدور، إلى أن تحول الزئير من أمامنا إلى صرخات مكتومة تلاشت شيئاً فشيئاً حتى سكنت تماماً، حينذاك تلتف خلفي، كانت الوجوه جميعها تتظر بأنفاس محتبسة ووجوه حمراء متربعة إلى قدور الأحماض المذيبة خاصةً بعدما تحرك ثلاثة جنود بأمر من عمي كيوان إلى إحدى العربات التي تحمل أحد القدور، وقاموا برفع ذراعيها عالياً لينزلق القدر إلى مؤخرتها ويسقط مرتطماً بالأرض، ويسكب ما يداخله أمام أعيننا لنجمه الحمض فقط دون أي بقايا من النسل الذي غمس فيه قبل دقائق، فصاح الجميع من خلفي مهلايين، قبل أن تدق موسيقاً الفرح وتزداد معها الهتافات الحماسية من الحاضرين دون توقف، حينها أخفيت سلاحي أسفل قميصي مرة أخرى، ومددت يدي وربت بها على كتف آدم الواقف أمامي فأجفل، فقتلت فرحاً في صوت عالٍ لعله يسمعني بين ذلك الضجيج:

- هذا صنيعك يا صديقي، لولاك ما رأينا هذه الفرحة على وجوه أهلنا مرة أخرى.

ابتسم وقال مازحاً بالصوت العالي نفسه:

- ما زلت أصر على ترقتي.

فضحكت واحتضنته في سرور.



في ذلك اليوم استمرت احتفالات الجنود في ساحتنا حتى وقت متأخر من الليل بعدما انصرف أهل جويداً إلى بيوتهم، ولم تعرف مجالس المعسكر ليلتها إلا قصصاً كانت تتمحور جميعها عن لعنة باحة جويداً الغاضبة التي حولت النساء والزوار إلى بشريين مرة أخرى، فأخذت

أتقل أنا وأدم من مجلس إلى آخر لنستمع إلى هرائهم ونحن نكتم
ضحكاتنا داخل أنفسنا بعدما سمعنا أكثر من عشرة قصص مختلفة
عما حدث صباح اليوم، حتى سأم آدم تلك القصص وأخبرني أنه سيخلد
إلى النوم، فأومنت إليه برأسى إيجاباً وأكملت جلوسي مع جماعة أخرى
من الجنود كانت لديهم قصة جديدة عما حدث ذلك الصباح، إلى أن
 جاءني جندي وهمس في أذني بأنه قادم إلى من معسكر الباحة، فنهضت
وتحركت معه بعيداً عن الجنود، فقال بأن هناك من تم احتجازها في
معسركهم بعدما اعتقلت وهي تتفحص حيث قتل النسالى، ولا تنطق
بشيء بعد اعتقالها سوى أنها تريد مقابلتي، فتعجبت من حديثه وسألته
عاقداً حاجبيًّا:

- من هي؟!

قال الجندي:

- الحقيقة أنتي لم أرها .. قال قائدي الذي أرسلني بأنها لا تقول أي شيء سوى أنها تعرفك، وتلح بشدة كي تراك.
ضممت شفتي تعجبًا، ثم نظرت إلى الخيمة التي ينام فيها آدم
وأخرجت زفيرى، وقلت للجندي رغم إرهافي الشديد:

- حسناً، سأتي معك.

ثم ركبت حصاني وتحركت به وراء حصان الجندي نحو باحة جويدا،
وحين وصلت إلى هناك عبرت باب الخيمة المحتجز فيها تلك المرأة
فوجئت بأنها السيدة سيرين، فتسمرت مكاني من المفاجأة غير المتوقعة،
فقالت بمجرد أن رأته:

- زهير.

قلت في نبرة مستغربة:

- خالي سيرين!!

ثم أدركت في بالي سريعاً لماذا كانت تتفحص جثث قتل النسالى،
فسألتها في مكر:

- ما الذي جاء بك إلى جويدا؟!

نظرت إلى الجنود من خلفي وسكتت، فأمرت الجنود بأن يغادروا،
فقالت على الفور بعدما غادروا:

- لقد كنت في الساحة الشمالية اليوم، ورأيت النسالى المحتجزين
في الأقباص وما حدث لهم.

ثم سكتت من جديد، فنظرت لها كي تكمل، فتابعت:
- لا بد وأنك تتذكر الأحلام التي كان يحكىها لك آدم في السنوات
الماضية.

هززت رأسي إيجاباً، فقالت:

- إن صديق عمرك يحمل روحًا من تلك الأرواح الشريرة .. ثارت
مرة من قبل عند قدوم النسلية الشريفة وطفلها إلى بريحا،
وثارت مرة أخرى في الليلة التي سبقت يوم الغفران الماضي.

لم أنطق بشيء وتركتها تكمل:

- لقد رحل آدم عن بريحا بعدما ثارت روحه في المرة الأخيرة ولم
يعد لها مرة أخرى .. لا بد وأنه انضم إلى النسالى في الجنوب.
وابتلعت ريقها وقالت:

- أرجوك، اجعلهم يتركوني لأذهب إلى الجنوب للقاءه، لحسن الحظ لم أجده مع من تم إعدامهم في الساحة اليوم وكذلك لم أشعر على جثته بين قتلاهم، إنه يحبني كثيراً وأستطيع أن أقنعه بأن يقنع الباقيين منهم بالعدول عن حربهم، إنه يحمل روحًا من أرواح قادتهم كما حدثني أبي الذي كان يعرف عنهم الكثير، إنه من أخبر عمك السيد كيوان بأمرهم.

ثم اختلط صوتها بالبكاء وهي تقول:

- أرجوك يا زهير، لن تري أن يموت صديقك مثل هذه الميادة التي رأيتها في الساحة اليوم، إنه ليس شريراً كما تعرف وتحب كثيرة، وأنت تعلم أكثر مني أنه على استعداد بأن يضحى بحياته من أجلك إن استلزم الأمر ذلك، أرجوك اجعلهم يتركوني فحسب لأمضي إلى وديان النسالى، إنه بحاجة إلينا ..

وزادت في البكاء وهي تقول:

- أرجوك، إنه كل ما لدى في هذا العالم.

قلت:

- ومن يعرف أيضاً عن أمر آدم خالتي سيرين؟

قالت على الفور وهي ترثشف دموعها:

- لا أحد، كان أبي فحسب، لا أحد يعرف سوانا.

وعادت إلى النشيج مرة أخرى وهي تقول:

- سأستطيع إقناعه بترك النسالى والرحيل معي عن چارتين بأكملها، إنتي أعرفه جيداً وأعرف أنه لن يريد أبداً أن يكون في الجانب المعادي لك.

وَسَكَتْ وَهِي تَمْسَحْ دَمَوْعَهَا، ثُمَّ نَظَرَتْ فِي عَيْنِي تَنْتَظِرْ إِجَابَتِي، فَكَرْتْ
قَلِيلًا ثُمَّ قَلَتْ لَهَا فِي صَوْتِ هَادِئٍ:

- لَقَدْ دَمَرْ عَمِي الْمَوَانِئَ، لَنْ يَسْتَطِعَ أَحَدُ الرَّحِيلِ عَنْ چَارَتِينَ خَالِتِي
سَيِّرِينَ، وَلَكِنْ لَا تَقْلِيقِي سَيِّدِتِي، لَنْ تَكُونَ أَعْدَاءُ فِي الْمَعرِكَةِ، إِنْتَ فِي
الْجَانِبِ ذَاتِهِ، وَلَا يَحْتَاجُ الْأَشْرَافُ إِلَى آدَمَ كَيْ يَقْنَعَ النَّسَالِي بِأَنَّ
يَعْدِلُوا عَنْ حَرْبِنَا، سَيَحْمِي آدَمُ هَذَا الْبَلَدَ وَسَيَحْقِقُ لَنَا انتِصَارَنَا
الْعَظِيمَ طَالِمًا لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ نَسْلِي.

وَتَابَعَتْ بِالنَّبْرَةِ الْهَادِئَةِ ذَاتِهَا بَعْدَ لَحْظَةِ مِنَ السَّكُوتِ:

- أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَخْبُرُهُ بِأَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى النَّسَالِي.
ثُمَّ أَخْرَجَتْ سَلاْحِي النَّارِي وَصَوْبِتِهِ نَحْوَ رَأْسِهَا، فَنَظَرَتْ فِي عَيْنِي
بِحَدْقَتِينِ مَتْسَعَتِينِ غَيْرِ مَصْدَقَةٍ، فَقَلَتْ:

- آسِفُ خَالِتِي، لَكُنَّهَا الْحَرْبُ.
بَعْدَهَا ضَغَطَتْ زَنَادَ سَلاْحِي لِلْمَرْأَةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِي، لَتَسْقُطَ أَمَامِي فِي
لَحْظَتِهَا جَثَّةً مَهْشَمَةً لِلرَّأْسِ.



(٩)

مُفْرَان

لم أعرف ماذا حدث، انقلب كل شيء من حولي فجأةً، وفي لحظات وجدت كل من يرافقوني من النساىِ الزائرين قد استعادوا صورتهم البشرية وسقطوا جميعاً في صرخات مكتومة بين قتل وجرح بينما كان الأشراف يواصلون الاقتراب منّا في سرعة وثقة كبيرتين يقودهم ذلك الفتى الجريء الذي أبطأ فجأةً من سرعة حصانه قبيل أن يحدث كل هذا، حاولت أن أبطئ من حصاني أنا الأخرى لاستدير به من أجل الفرار، لكنني لم أمتلك الوقت الكافي لذلك، وفي لحظة واحدة وجدت نفسي أسقطت إلى الأرض لأرطم بها بقوّة وأتدرج إلى الأمام بضعة أقدام بعدها تلقى حصاني طلقة نارية بين عينيه أرداه قتيلاً في الحال، حاولت أن أنهض وأصوّب طلاقاتي النارية نحو الفرسان الراكضين تجاهي لكنَّ ساقِي المُصابة من أثر سقوطي لم تُعنِّي، فارتکرت بيدي وركبتي إلى الأرض وأنا أنظر إلى قتل النساىِ من حولي، ثم أغمضت عيني بعدما بدأ داخلي يشعر بأن الموت صار وشيكاً للغاية هذه المرة حتى وإن استطاعت البطانة المعدنية لسترتِي الصمود أمام البارود الذي أصابها، إلى أن فوجئت بيعقوب الذي لم يفقد هيئته الزائرة ينتشلني فجأةً قبل وصول الأشراف إلىّي، ليضعني أمامه على حصانه ويحيط رأسِي بذراعيه

القويتين قبل أن ينطلق بي بعيداً وأنا أنظر غير مصدقة إلى ذلك الشاب الذي هبط عن حصانه وظل ينظر نحونا ونحن نهرب دون أن ينضم إلى باقي الفرسان الذين واصلوا مطاردتنا بأسلحتهم الناريه، حتى احتفى عن عيني فدستت رأسي في صدر يعقوب العاري الذي غطى بدمائه الساخنة، ولم أرفعها عنه مجدداً إلا عندما قفز بحصانتنا فوق متراس حديدي مرتفع أتاح لنا وجوده مزيداً من الوقت للفرار من ملاحقينا الذين انتظروا إزالته عن الطريق.

بعدها خرجنا من المدينة إلى الصحراء الجنوبيه عبر المدخل الذي كنت قد دلفت من خلاله مع النسالي، وأكملنا ركبنا نحو ممر جبلي في سرعة ظلت تباطئ شيئاً فشيئاً مع خوار قوي يعقوب، ليقترب منا فرسان الأشراف بصورة كبيرة من جديد، حتى صارت المسافة بيننا وبينهم لا تتجاوز أمتاراً قليلة فواصلوا تصويب نيرانهم إلى جسد يعقوب الذي بدأ يفقد سيطرته على حصانه ويضعف صوت زئيره بشكل ملحوظ، قبل أن يميل جسده فجأة إلى الجانب الأيمن من صهوة الحصان، فأمسكت به في صعوبة وأنا أصرخ فيه بأن يتماسك، لكنه سقط في النهاية بجسده الثقيل إلى الأرض بعدما أفلت من يدي، فالتفّ الفرسان بأحصنتهم من حولنا وتوقفوا عن إطلاق بارودهم، واقترب أحدهم للإمساك بلجام حصاني وكأنهم غيروا قرارهم بقتلنا وعزموا على أسرنا مع قوانا الخائرة، لكننا تفاجئنا جميعاً بمن ظهروا فجأة ليها جموهم دون رحمة .. كانوا الثلاثة النسالي الزائرون الذين كلفتهم بإبعاد عربة الذخيرة إلى خارج جويداً، وكان انفصالمهم عنّا في ذلك الوقت قد جنّبهم لعنة التحول إلى بشريين، ليقفزوا من حصان إلى آخر في سرعة رهيبة وينقضوا بمخالبهم القاتلة على أنفاس الفرسان ويسقطوهم جميعاً صرعى دون مقاومة تذكر ..

لأنهبط بعدها عن حصاني وأتحرك بصعوبة إلى يعقوب الذي كان يلتقط أنفاسه بمشقة في تلك اللحظات، قبل أن يستحيل إلى هيئته البشرية عندما وجدني بجواره ليظهر جسده الشاحب المزق بشقوب الطلقات النارية، وقال بصوت خافت ضعيف:

- كنا على وشك الانتصار لولا ظهور من يحمل روحًا للشامو بين الأشراف.

وابع وهو يتالم:

- لم يستطع التحكم فيّ، لكنني لم أستطع منع النساى الزائرين من الخضوع لأوامره، كانت روحه أقوى مني كثيراً، إنني آسف لأنني خذلتكم سيدتي.

مسحت على وجهه وأنا أقول له بعينين دامعتين:

- لم تخدلني يا يعقوب، لقد قمت بدورك على أكمل وجه. أومأ برأسه إيجاباً، قبل أن تتوقف أنفاسه فجأة، وتكتسب شفاه اللون الأزرق مفارقاً الحياة.

غضبت على شفتي وأنا أغلق عينيه الغائرتين، ثم التفت إلى الثلاثة الزائرين الذين وقفوا من خلفي ينظرون إليه في وجوم وصمت، وقلت لهم بصوت تخنقه الدموع:

- فلنحمل قائدكم معنا إلى الجنوب قبل أن يهاجمنا المزيد من الأشراف.

بعدها حمل أحدهم جثة يعقوب أمامه على حصانه، وجرّ الآخر حصانين من أحصنة الفرسان القتلى، فيما افترق عنّا الثالث بعدما

كُلْفَتَه بِإِخْفَاء عَرْبَة ذَخِيرَة المَدْفَع بِمَكَان يُسْتَطِيع الْوَصْول إِلَيْهِ فِيمَا بَعْدَ
عَلَى أَن يَلْحِق بِنَا بَعْد اِنْتِهَائِه مِنْ ذَلِك، ثُمَّ اِمْتَطَيْت حَصَانًا أَنَا الْأَخْرَى
وَانْطَلَقْت مَعَ النَّسْلِيْن الْبَاقِيْن مَعِي فِي صَمَت إِلَى الْجَنْوَب.



كَان جَسْدِي يَتَحْرُك جَنْوَبًا أَمَا عَقْلِي فَلَم يَغْادِر جَوِيدًا لِلْحَظَة، وَظَلَّتْ
كَلْمَات يَعْقُوبُ الْأَخِيرَة لِي تَدْقِ في رَأْسِي طَوَال الطَّرِيق بِالتَّزَامِنِ مَعَ
تَفْكِيرِي فِي نَظَرَاتِ ذَلِك الْفَتَى الَّذِي أَبْطَأ مِنْ سَرْعَة حَصَانِه حِينَ اِنْدَفَعَ
الْفَرَسَان بِأَسْلَحْتِهِم تَجَاهِي لِلنَّيل مِنِي، لِيَصْرَخ صَوْتٌ فِي دَاخِلِي بِأَنَّ ذَلِكَ
الْفَتَى هُوَ مَا لَمْ أَتَمْنَه أَنْ يَكُون قَط .. آدَم .. حَامِل رُوحِ نَدِيم، وَإِنْ ظَلَّ
جَانِبَ صَغِيرٍ فِي عَقْلِي يَرْدَدُ بِأَنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَة مِنْ حَامِلِي أَرْوَاحِ الشَّامِ وَلَمْ
نَجِدْهُمْ بَعْدَ.

لَم يَخْرُجْنِي مُؤْفِقًا مِنْ تَفْكِيرِي إِلَى رَائِحَةِ الْعَشْبِ الْمُحْتَرَقِ وَآثَارِ الْبَارُودِ
الَّتِي فَاحَت بِقُوَّةِ عِنْدِ اِقْتِرَابِنَا مِنْ مَشَارِفِ الْجَبَالِ الْحَمْرَاءِ، وَقَتَّهَا تَقدِّمُ
الْنَّسْلِي الَّذِي يَحْمِل جَثَّةً يَعْقُوبَ لِيَقُود طَرِيقَنَا مُطْلَقًا زَئِيرَه بَيْنَ الْحَيْنِ
وَالْآخِرِ فِي اِنْتِظَارِ أَنْ يَأْتِيَنَا أَيْ زَئِيرٌ مِنْ الْجَانِبِ الْآخِرِ يَكُونُ دَلِيلَنَا إِلَى
مَكَانِ بَاقِيِ النَّسَالِيِّ، وَوَاصِلْنَا طَرِيقَنَا عَابِرِينَ مَمْرَاتِ تَلِكَ الْجَبَالِ وَاحِدًا
وَرَاءَ الْآخِرِ، حَتَّى جَاءَتْنَا الْاسْتِجَابَةُ الْأُولَى أَخِيرًا مَعَ اِقْتِرَابِ الشَّمْسِ مِنْ
غُرُوبِهَا، فَأَطْلَقَ النَّسْلِيَان الرَّازِئَان مَعِي زَئِيرَهُما الطَّوِيلِ بِقُوَّةِ، قَبْلَ أَنْ
تَنْدُفعَ بِخَيْولِنَا فِي اِتِّجَاهِ ذَلِكِ الزَّئِيرِ الَّذِي تَوَاصَلَ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَوْلَى
الْنَّسَالِي الرَّازِئِينَ الْمُتَنَاثِرِينَ فَوْقَ قَمَةِ أَحَدِ الْجَبَالِ، حِينَذِاكَ سَكَتَ الزَّئِيرُ،
وَهَبَطَ إِلَيْنَا أَحَدُهُمْ وَامْتَطَى حَصَانًا مَمَا كَانُوا مَعْنَا، وَتَقدِّمَ بِنَا عَابِرًا
مَمْرَينَ آخَرَيْنَ، لِتَظَهَّرَ أَمَامِي أَوْلَى تَجَمِّعَاتِ النَّسَالِيِّ وَالَّذِينَ نَهَضُوا مِنْ

أماكنهم وحدّقوا بوجوه غير مصدقة في وفي جثة يعقوب الممزقة بثقوب
الطلقات النارية ولسان حاليهم يسأل عن باقي النسالى الزائرين الذين
رحلوا معي فجراً .. فأكملت طريقي في صمت مطأطأة الرأس حتى ظهر
أمامي فاضل وريان والثلاثة شبان حاملو أرواح الشامو، وقتها هبطت عن
حصاني بمساعدة أحد مرافقي من الزائرين والذي حملني ودلف بي إلى
أقرب الخيم المنتسبة هناك بعدما أعاد تورم ركبتي قدرتي على السير.

سألني فاضل الذي دخل خلفي إلى الخيمة مع الباقيين:

- ماذا حدث؟!

قلت في نبرة حزينة:

- لقد مات كل النسالى الزائرين الذين رافقوني عدا ثلاثة منهم ..

احمررت وجههم جميعاً، فأسرع منذر متسائلاً:

- كيف حدث ذلك؟!

مسحت دمعة كادت تقر من عيني .. ثم بدأت أحكي لهم ما حدث، إلى أن أنهيت حديثي قائلة بنبرة جامدة:

- لن ننتصر أبداً طالما يقف حامل تلك الروح إلى جانبهم.

خيم عليهم الصمت لأن صاعقة أصابتهم، إلى أن قطع ريان ذلك الصمت وقال:

- سنجد حلاً سيدتي، أعدك بذلك، كان حظنا جيداً بعدم استماعك إليّ عندما أردت الهجوم على جويدا بكل ما لدينا من نسالى زائرين.

بعدها طلب الانصراف نيابة عن الباقيين، فأومأـت إـلـيـه بـرـأـسـيـ إـيـجـابـاـ دون أن أـنـطـقـ، فـانـصـرـفـوا جـمـيـعـاـ عـدـا فـاضـلـ الذـي بـقـى لـفـحـصـ إـصـابـاتـ رـكـبـتـيـ الـيـمـنـيـ وـالـتـيـ آـلـتـنـيـ كـثـيرـاـ حـينـ شـرـعـ فـيـ تـحـرـيـكـ سـاقـيـ، حـتـىـ اـنـتـهـىـ فـقـالـ:

- إنـهاـ كـدـمـةـ قـوـيـةـ، سـيـزـوـلـ وـرـمـهـاـ فـيـ غـضـونـ أـيـامـ، سـأـعـطـيـكـ أـعـشـابـ تـخـفـفـ مـنـ أـلـمـهاـ.

أـوـمـأـتـ بـرـأـسـيـ إـيـجـابـاـ، فـقـالـ وـهـوـ يـفـحـصـ السـاقـ الـأـخـرـىـ:

- لمـ يـكـنـ عـلـىـ فـقـدـ آـدـمـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ.
فـقـلـتـ:

- لـسـنـاـ مـتـأـكـدـيـنـ أـنـهـ هـوـ بـعـدـ.

ثمـ تـابـعـتـ مـنـاقـضـةـ نـفـسـيـ:

- كانـ الـأـجـدـرـ بـيـ أـلـاـ أـقـتـلـ نـديـمـ.

رـبـتـ عـلـىـ سـاقـيـ بـرـفـقـ وـهـوـ يـنـهـضـ، وـقـالـ:

- لقدـ عـلـمـتـ الـجـمـيعـ أـلـاـ يـيـأسـواـ، وـخـسـارـةـ جـوـلـةـ لـاـ تـعـنـيـ خـسـارـةـ حـرـبـناـ، اـسـتـرـيـحـيـ الـآنـ وـسـنـجـدـ حـلـاـ قـرـيبـاـ.

ثمـ هـمـ بـالـمـغـادـرـةـ، فـقـلـتـ:

- بـمـجـرـدـ أـنـ يـزـوـلـ وـرـمـ رـكـبـتـيـ سـأـذـهـبـ مـرـةـ أـخـرـىـ إـلـىـ كـهـفـ الـعـجـوزـ خـشـيـبـ.

أـوـمـأـ بـرـأـسـهـ إـيـجـابـاـ، ثـمـ غـادـرـ.



في اليوم التالي عرفت أن فاضل وريان قاما بتقسيم النسالى إلى ثمان مجموعات تأثرت جميعها على مسافات متباعدة في المرات الجبلية الضيقة التي انتشرت بكثرة في تلك المنطقة، قاد فاضل الجماعة التي كنت فيها، وقاد ريان أبعد الجماعات عننا، أما منذر وأصيل وبيجاد فقدادوا ثلاثة جماعات مختلفة، بينما تولى ثلاثة من الزائرين الأقوباء غير حاملين لأرواح الشامو الثلاثة جماعات المتبقية، ومع ظهيرة ذلك اليوم بدأت جماعتنا تتحرك جنوباً بعد سماعنا زئيراً طال بعض الشيء، عرفت من فاضل بعدما ردد أحد النسالى الزائرين معنا زئيراً مشابهاً له بأنها إشارة للتواصل المتفق عليها بين الجماعات للتحرك جنوباً في آن واحد بعدما أجهضت خطة الطبول في يومها الأول مع وصول بعض قذائف مدافع الجدار إلى أقصى الجنوب.

في خلال ثلاثة أيام كنا قد تحركنا ستة أميال فقط .. كان ذلك منطقياً جداً مع قلة الخيول معنا ووجود الكثيرين من الأطفال والنساء برفقتنا. في تلك الأيام لم تتوقف مدافع الأشراف عن قصفها الشديد لأماكن كانت بعيدة عننا نسبياً، وإن كانت تقترب منا كل يوم عن اليوم الذي يسبقه، ثم هدا قصفهم بعض الشيء في اليوم السادس وتوقف تماماً مع اليوم التاسع، لم أعرف إن كان ذلك بسبب تحرك جنودهم جنوباً أم أنهم قرروا أن يحافظوا مؤقتاً على ذخائر مدافعتهم التي كانت تقل يوماً بعد يوم مع كل قذيفة تحطمتنا.

في مساء اليوم العاشر أخبرت فاضل وهو يفحص ركبتي التي زال عنها ورمها بأن يستعد للذهاب معه إلى كهف العجوز خشيب، وافقني دون نقاش، واقتصر بأن يرسل إلى منذر لينضم إلينا في طريقنا إلى هناك لعل روحه الزائرة ترشدنا إلى شيء قد يغفل عنه كلانا، فوافقته

على الفور بعدها كنت أفك في الأمر ذاته، ثم تحركنا سوياً في فجر اليوم التالي يرافقنا منذر بهيئته البشرية ونسلي آخر زائر لا يحمل روحًا للشام و كان اسمه «بكيـر» قررتُ انضمامه إلينا في اللحظات الأخيرة قبيل مغادرتنا من أجل تأمين خيولنا أثناء وجودنا داخل الكهف وتبيهنا في حال اقتراب أي صحبة غير مرغوب فيها، لنسلك طريقنا إلى الشمال يقودنا فاضل الذي بدا أنه لم ينس الطريق إلى ذلك الكهف وإن مرّ على زيارته الأخيرة له ست سنوات كاملة.

إلى أن وصلنا إلى الجبل الذي قادنا إليه العجوز من قبل، فهبطنا عن أحصنتنا وتركناها برفة بكيـر، وبدأت الصعود إلى الأعلى بمساعدة منذر، خلف فاضل الذي سبقنا بأقدام .. قبل أن ينتظروا عند مدخل الكهف لننالف إليه سوياً، وهناك التقط الشعلة المُطفأة المعلقة على جداره وأشعل نيرانها، ثم قادنا في حذر عبر الشق الضيق المنحدر إلى سرداب الكلمات المنقوشة، ومنه تقدمنا إلى غرفة الجداريات فغمس شعلته في أحواض الزيت الممتدة على امتداد حوائطها فاشتعلت نيرانها لتضيء الغرفة بالكامل في لحظات، لأجدتها كما تركناها قبل ست سنوات، لا ينقصها إلا تمثال النسلي الزائر الذي حصلت سبيل على رأسه، ثم علق فاضل شعلته جانبًا، وقال وهو ينظر إلى الجداريات:

- ظننت أن كيوان دمر الكهف وما يحتويه.

قلت:

- كان سيفعل ذلك خطوةأخيرة بعد معرفة كل أسراره، لكن يبدو أن مفاجأة هجوم النسالى يوم الغفران الماضي سبقت تلك الخطوة منه.

كان منذر الذي ظل على هيئته البشرية ينظر في تمعن وشروع شديد إلى كل جدارية من الجداريات حولنا وخاصة الجدارية التي رسمت بها باحة جويدا وهي محشدة بنساء النسالى الحوامل وأقماص الحيوانات المفترسة، قبل أن يتحرك إلى الجدارية المُكبل بها النسلي الزائر بسلام جنود الأشراف ويتوقف أمامها، ثم وجده يستحيل إلى هيئته الزائرة، وأكمل تحديقه في تلك الجدارية بأنفاس صاحبة، فسألته:

- أتتذكر شيئاً يخص هذه الجدارية؟

هز رأسه نافياً، قبل أن يتحرك من أمامها ويعود ليحدق في الجداريات الأخرى من جديد، ثم عاد إلى هيئته البشرية مرة أخرى، وقال في خيبةأمل:

- لم أتذكر أي شيء.

نظرت إلى فاضل في إحباط وقلت له:

- لا بد أن هناك نصاً في هذا الكهف نقش عن صاحب تلك الروح التي تحكم في كل هذا العدد من النسالى الزائرين.

قال:

- أعتقدين أن خُشيب قد أخفى علينا شيئاً هاماً مثل هذا؟

أومأت برأسني نافية، وقلت:

- كان ذلك الرجل خبيثاً، لكن داخلي يميل أكثر إلى أن شيئاً قد فاته هنا هو الآخر.

قال:

- لسنا ماهرين في قراءة الجارتينية القديمة، ستأخذ منا قراءة هذه النقوش وقتاً طويلاً قد يكون كافياً لوصول الأشراف إلى النساى في الجنوب.

زممت شفتي وقلت وأنا أنظر إلى جدارية النسي المكبل التي عاد منذر ليقف أمامها:

- أعلم أنها محاولة يائسة، لكن دعنا نحاول بقدر ما نستطيع.
وأردفت إليه:

- على كل منّا أن يحمل شعلته، ويحاول افتراض أماكن النقاط فوق الحروف أو تبديل ترتيبها لاستباط كلماتها.
لم يبدُ على وجهه الاقتئاع، لكنني لم يكن في يدي حيلة أخرى، فتابعتُ محاولة تحميشه:
- هيا، لا يجب أن نضيع وقتاً.

وحملت شعلة مُطفئة كانت معلقة على الحائط، وغمستها في حوض النيران فأشعلت، ثم اتجهت إلى سرداد جانبى، فتحرك فاضل هو الآخر وحمل شعلته التي تركها قبل دقائق، وتقدم إلى السرداد نفسه الذي توغلت بداخله، قبل أن ينعطّ إلى أحد المرات المتفرعة منه، فيما تركنا منذر بغرفة الجداريات لعل معجزة تحدث وتذكر روحه شيئاً.



مرّ الوقت ساعة وراء الأخرى وأنا أتنقل بين الجدران أحاول تفحص النقوش وفهمها، لكنني لم أستطع قراءة كلمات جملة واحدة، ربما كان الأمر سيصبح سهلاً إن كانت تلك الكلمات مكتوبة بقلم على ورقة أما أن

تكون محفورة منذ مئات السنين بألة حادة على جدار صخري فكان التبؤ بها في ظل تشابه رسومات كثيرة من الحروف شيئاً يقارب المستحيل، ثم ناديت فاضل بعدها تملك اليأس مني، وسألته إن كان قد توصل إلى شيء، فقال أنه لم يصل إلى شيء مطلقاً، فأخرجت زفيري في إحباط، وتنتقلت بشعلتي إلى ممر آخر لعل جدرانه تحمل حروفاً وكلمات تكون أسهل مما قابلتني، لكنها لم تختلف كثيراً عن غيرها، فعلقت شعلتي جانبًا، وجلست على الأرض في ذلك الممر، بعدها جاء فاضل وجلس بجواري هو الآخر، فقلت في يأس:

- ظننت أنتي قد أجد شيئاً تركه لنا مشيدو هذا الكهف، لكن يبدو أنهم وجهوا رسائلهم إلى علماء الچارتينية القديمة فحسب.
وتابعت:

- كان خشيب محقاً عندما قال أنه أفتى عمره في فك لغز هذه النقوش.

ولاصقت برأسي الجدار من خلفي، وأكملت وأنا أنظر نحو النقوش:

- كان محقاً كذلك في اعتقاده باستحالة أن يكون مشيدو هذا الكهف من النسالي، كانوا أفراداً من الأشراف تعلموا الچارتينية القديمة جيداً.

وأغمضت عيني وقلت بنبرة مستسلمة:

- كان عليهم أن يسهّلوا الأمور قليلاً إن أرادوا في داخلهم مساعدة النسالي حقاً.

قال فاضل في هدوء:

- يكفي أتنا عرفنا من هذا المكان سر الأرواح الزائرة في داخل أجساد النسالي.

قلت في وجوه شديد:

- لا بد وأن نجد طريقةً لمنع استجابة النسالي لحامل تلك الروح، وإن استعود الحرب من جديد لتكون بين جيشين .. أحدهما مسلح بأفضل العتاد، والآخر من العُزل الذين لا يعرفون عن قتون المعارك شيئاً.

قال وهو ينظر إلى نقوش الجدار أمامها:

- يراودني شعور كبير بأن ذلك الفتى هو آدم.
وأضاف بعدهما نظر إلى:

- قد نمتلك فرصة حقيقة إن استطعنا التسلل إليه وإخباره بحقيقة.

قلت:

- ربع فرصة، إن كونه آدم يبقى احتمالاً واحداً من بين أربعة احتمالات مع عدم ظهور الثلاثة حاملي أرواح الشامو المتبقين من الثمانية.

قال:

- ول يكن .. إنها نسبة معقولة في ظل هزيمتنا المتوقعة.

وتتابع بعد لحظة:

- لا يعرفني الكثيرون من الأشراف ولا أحمل وشمماً، ماذا لو استطعت التسلل إلى جيشهم لأصل إلى ذلك الفتى؟ إن كان آدم سيتذكرني.

قلت:

- فكرت كثيراً في ذلك الأمر بالليالي الماضية، لكن ضع نفسك مكان
كيوان ومعك سلاح بأهمية ذلك الفتى، هل ستسمح باقتراب أي
شخص غريب منه؟ إنه أهم للأشراف الآن من باحة جويدا،
سيقتلونك لا محالة قبل أن تقترب منه ..

وأضفت بنبرتي اليائسة التي لم أستطع التخلص منها:

- وقد يكون شخصا آخر في النهاية، ونخسرك أنت أيضا إن كشفك
أحدhem.

فنظر إلى النقوش أمامنا من جديد، ثم قال:

- إذن، ليس هناك أمل لانتصارنا في هذه الحرب إلا قتل ذلك الفتى.

وتتابع بصوت هادئ بعدما سكت للحظة:

- حتى وإن كان آدم.

أومأت برأسه إليه موافقة له، وقلت وأنا أنهض من جلستي:

- فكرت في ذلك أيضاً، لكن السؤال الأهم الذي يجب أن نبحث
عن إجابته، كيف نستطيع الوصول إليه بين تلك الآلاف من جنود
الأشراف؟

نهض هو الآخر وقال:

- نعم، هذه هي الإجابة التي لا بد وأن ترقب عنها جيداً في أعماق
عقولنا.

وتمتم إلى نفسه وهو يلقي نظرةأخيرة على النقوش:

- مقتل رجل واحد يساوي نجاة الآلاف من الموت.

ثم حمل شعلته من جديد وتحرك أمامي، فحملت شعلتي وسرت من خلفه من أجل مغادرة الكهف، وفيما كنا نعود عبر السرداد للوصول إلى غرفة الجداريات حيث تركنا منذر، توقفت مكانني مستغربة عندما لمع شيء كان يقع في مهر جنبي مع ضوء شعلتي، فقلت لفاضل في استغراب:

- انتظر.

ثم تقدمت في حذر نحو ذلك الشيء، وقربت شعلتي منه فوجده وعاءً معدنياً صغيراً يتربس في قعره بقايا من طعام، فالتفت في دهشة إلى فاضل الذي اقترب مني وأخذ ذلك الوعاء ومد يده إلى بقايا الطعام ليتحسّسها بأطراف أصابعه، ثم قرّبها من أنفه وشمّها، وقال:

- لم يمض على وجود هذا الطعام هنا أكثر من بضعة أيام.
واباع متسائلاً في تعجب بالغ:

- ألم يؤخذ العجوز خشيب إلى وادي حوران يوم الغفران الماضي؟!
نظرت إليه في التعجب ذاته، قبل أن يكمل تساؤله:

- أم أن هناك شخصاً آخر ترك هذا الكهف قبل قدومنا؟!!



(١٠)

غُفران

قلت لفاضل:

- ربما استطاع خشيب الهروب من جنود الأشراف أثناء الفوضى التي أصابت جوبيا يوم الغفران الماضي.

ضم شفتيه ثم قال بنبرة حائرة وهو يقلب الوعاء بين يديه:

- ربما ..

ثم تحرك إلى داخل الممر مقرباً شعلته من الأرض بحثاً عن أي شيء آخر قد يؤكد لنا أنه ذلك العجوز، فتقدمت من خلفه باحثة بعيني أنا الأخرى، حتى وصلنا إلى نهاية الممر من غير أن نجد شيئاً، فسألته:

- هل تعتقد أن خشيب قد يساعدنا في البحث بين نقوش الكهف للوصول إلى ما عجزنا عن إيجاده ..

قال:

- علينا التأكد أولاً بأن صاحب هذا الوعاء هو خشيب، ليس غيره. أومأت برأسني موافقة له، ثم خرجنَا إلى الممرات المجاورة ودللنا إليها واحداً وراء الآخر باحثين في أرضها عن أي شيء قد يرشدنا إلى

صاحب وعاء الطعام .. إلى أن انتهت ممرات ذلك الجانب فعدنا إلى غرفة الجداريات من أجل إكمال بحثنا في الجانب الآخر منها .. لكن التعجب قد أصابنا بعض الشيء عندما لم نجد منذر، فناديت:

- منذر.

فلم أسمع إلا صدى صوتي يجيبني، ناديت مرة أخرى بصوت أعلى، فلم تأتنا أي إجابة، فتظرت إلى فاضل في تعجب يشوبه قلق، ثم تحركت بشعلتي إلى الباب المجاور لجدارية النسلي المُكبل والذي لم نكن قد فحصنا السراديب المتشعببة وراءه بعد، وقلت لفاضل الذي تقدم ورأي:

- لا بد وأنه هنا بمكان ما، ربما لا يصله صوتنا مع تشعبات السراديب الكثيرة بهذا الجانب.

وناديت من جديد، فبدأ فاضل في النداء هو الآخر، لكن نداءنا لم يلق إجابة واحدة، فواصلنا تقدمنا في حذر نفحص الممرات الجانبية على نحو سريع بدون الوصول إلى نهايتها، متوجهلين أمر وعاء الطعام مؤقتاً، إلى أن وصلت إلى الغرفة الدائرية التي رأيتها من قبل مع العجوز خشيب، تلك الغرفة التي رسمت على كامل محيط جدرانها الجدارية العظيمة لجيش النسالي الزائرين، وهناك تسمرت مكاني بمجرد أن خطوت إلى داخلها بعدها وجدت منذر راكعاً على ركبة واحدة بهيئته الزائرة، ومُحنيناً رأسه في خضوع شديد أمام تلك الجدارية دون أن يصدر حركة واحدة أو ينتبه إلىّ أو إلى صوتي.

وقتها جاء فاضل إلى جواري ونظر إليه في دهشة قبل أن ينادييه باسمه في صوت خفيض لكنه لم ينتبه إليـنا .. لم أفهم حينذاك إن كان ما نراه يحدث أمامنا طقوساً خاصة بالنسالي الزائرين لم نرها من قبل أم أن

هناك شيئاً ثميناً كنا على أعتاب اكتشافه. حاولت أن أتقدم إليه لكن فاضل أمسك بيدي كيأتوقف وأتركه ينتهي مما يقوم به، فلزمت مكانى وواصلت وقوف الصامت بجوار فاضل في انتظار انتهاءه مما يفعله، ثم تبهت بعدها إلى أنه يرتكز باتجاه معين أمام جانب الجدارية الذي رسم فيه قائد النسالى الزائرين واقفاً أمامهم على رابية عالية رافعاً يده اليمنى بقبضة محكمة إلى السماء، فنظرت حينها بطرف عيني إلى فاضل الذي كان ينظر محدداً في الجدارية هو الآخر، وكأنه كان يفكر فيما بدأ عقلي يفكر فيه.

لم يكن ذلك الخضوع الغريب الذي نراه من منذر أمام ذلك القائد المرسوم يحمل لعلقي إلا تقسيراً واحداً، أن تلك الجدارية لم تكن مجرد تخيل مرسوم لجيش النسالى حين تثور أرواحهم كما ظن العجوز خشيب، بل يبدو أنها رسمت نسخاً لمشهد حقيقي حدث في يوم من أيام الماضي وأن ذلك القائد الذي يقف أمامهم بشموخه العظيم لا يحمل روحًا للشامو فحسب، بل بدا أنه يمتلك من القيادة والقوة ما يجعل الباقي خاضعين له، حينذاك تسارعت دقات قلبي عندما خطر في بالي أنه وإن كان بين الأشراف من يحمل روحًا زائرة تستطيع التحكم في مئات النسالى إلى الحد الذي يلقون فيه بأنفسهم إلى التهلكة طاعةً لأوامره فلن تكون إلا روح ذلك القائد، بعدها تناهت إلى مسامعي كلمات فاضل التي أكملت دائرة التفكير داخل عقلي عندما غمغم إلى نفسه بصوت مسموع وهو يحدق في الجدارية:

- النسلي الزائر الأول !!



بعد دقائق وجدنا منذر يرفع رأسه للمرة الأولى منذ دخولنا الغرفة، ثم التفت ناحيتها ونظر إلينا بعينيه الحمراوين متعجبًا كأنه تقاجأ من وجودنا، قبل أن ينهض ويتحرك نحونا، فسألته على الفور:

- ماذا هناك يا منذر؟!

أكمل طريقه إلى خارج الغرفة بأنفاسه الصاخبة دون أن يعيّرني أي اهتمام .. ثم استحال إلى صورته البشرية بعد ابعاده عن الغرفة بخطوات .. فأعادت سؤالي إليه:

- ماذا هناك؟!

فالتفت إلينا وقال:

- لقد أعادت هذه الغرفة بعض الذكريات التي تحملها روحي فجأة إلى ذاكرتي.

وابع بوجوم لم أره على وجهه من قبل:

- إن هناك خطأ ما، إن سيدي يقف بالجانب الخاطئ من المعركة ..
فسأله فاضل في ترقب:

- تقصد ذلك القائد الذي يقف أمام النسالى؟
أو ما برأسه وقال:

- نعم، لا يستطيع غيره فعل ما حدث للنسالى الزائرين قبل عشرة أيام.

فسأله فاضل من جديد بنبرة الترقب ذاتها:

- كيف يستطيع إخضاع النسالى إلى هذا الحد؟

صمت قليلاً ثم قال:

- إنه سيد أرواحنا، لقد اتخذت أرواح النسالى الزائرين عهداً قدّيماً
بطاعة أوامرها أياً كانت، لم يُحل من هذا العهد إلا أصحاب أرواح
الشامو الذين لا يخضعون لأحد، لذلك لم يستجب له يعقوب.

فقلت:

- منذر، هل حضرت لك هذه الذكريات بعد رؤيتك لهذه الجدارية
أم أنك قرأت هذا على أي جدار منقوش هنا؟

قال:

- حين رأيت الجدارية ومضت بعض المشاهد في رأسي.
فقطقت إليه بما كنت أفكّر فيه ليؤكد لي ظنوني:

- هذا يعني أن هذه الجدارية ليست مجرد صورة تعبيرية رسمها
شخص ما تخيل جيش النسالى الزائرين اعتماداً على الجدارية
المُكَبِّل بها النسل؟

سكت مفكراً ثم هزَّ رأسه نافياً، وقال:

- إنها مشهد حقيقي، كنت ضمن الواقعين بين النسالى في ذلك
اليوم.

نظرنا إليه غير مصدقين، وأسرع إليه فاضل متسائلاً:

- تقصد أن النسالى الزائرين قد ثارت أرواحهم من قبل تحت
قيادة ذلك القائد؟!

قال:

- نعم، لكن ذاكرتي لم تستدعي شيئاً أكثر من ذلك، حاولت أن أتذكر أي تفاصيل أخرى لكنني فشلت.

قلت:

- هل تستطيع معرفة نفسك بينهم؟

قال:

- نعم.

فقلت:

- أرجوك .. تعالَ معي.

ثم دلفت إلى الغرفة مرة أخرى، فدلـف من ورائي هو وفاضل، فسألـته وأنا أنظر إلى النسالى المرسومين:

- أيـهم أنت؟

فاقتربـ منـ الحائـطـ ودونـ ترددـ أشارـ إلىـ نـسـليـ زـائـرـ كانـ يـقـفـ بالـصـفـ الـأـوـلـ أـمـامـ الرـابـيـةـ التـيـ يـقـفـ عـلـيـهـ قـائـدـ النـسـالـىـ،ـ وـطـرـقـ عـلـيـهـ بـإـصـبـعـهـ وـهـوـ يـقـولـ:

- هذا.

فنظرـتـ إـلـىـ النـسـليـ الزـائـرـ الذـيـ أـشـارـ إـلـيـهـ،ـ لـمـ يـكـنـ يـشـبـهـ عـلـىـ الإـطـلاقـ،ـ كـانـ ذـلـكـ مـنـطـقـيـاـ فيـ ظـلـ اـنـقـالـ الرـوـحـ مـنـ جـسـدـ لـآـخـرـ،ـ لـكـنـيـ فـحـصـتـ تـفـاصـيـلـ جـسـدـهـ جـمـيـعـهـ بـدـقـةـ حـتـىـ وـصـلـتـ إـلـىـ مـاـ كـنـتـ أـسـعـيـ إـلـيـهـ مـنـ سـؤـالـيـ عـنـ مـعـرـفـتـهـ لـحـامـلـ رـوـحـهـ بـيـنـ الـوـاقـفـيـنـ عـنـدـمـاـ تـبـهـتـ إـلـىـ سـوـارـ كـانـ يـلـتـفـ حـولـ ذـرـاعـ النـسـليـ الذـيـ أـشـارـ إـلـيـهـ يـتـدـلـىـ مـنـهـ نـابـ كـبـيرـ،ـ وـبـعـدـهـ نـظـرـتـ إـلـىـ مـجاـورـيـهـ بـالـصـفـ الـأـوـلـ وـالـذـيـنـ حـمـلـتـ أـذـرـعـهـمـ السـوـارـ ذـاتـهـ،ـ وـقـلـتـ مـغـمـفـمـةـ:

- أربعة.

ثم تفحصت بعيني على نحو سريع كافة النسالى المرسومين بحثاً عن آخرين يحملون ذلك السوار، لكنني لم أجد غيرهم، فقلت لفاضل بعدها:

- إنهم أربعة فقط!

نظر فاضل إلى الجدارية، فتابعت وأناأشير إليهم واحداً وراء الآخر:

- الذين يلتف السوار حول أذرعهم.

ونظرت لمنذر وسألته وأنا واثقة بأن إجابته ستتفق معى:

- حاملو أرواح الشامو، أليس كذلك؟

هز الشاب رأسه إيجاباً، فتساءلت إليهما بعدها متعجبة:

- لماذا لم يرسم ثمانية مثلما قالت الجداريات؟

ووجهت سؤالي إلى منذر:

- أين الباقيون؟!

قال:

- لم أذكر شيئاً عن ذلك اليوم إلا ذلك الاصطفاف أمام القائد.

فنطق إلينه فاضل بما غ沐ه به قبل قليل:

- النسلي الزائر الأول، أليس كذلك؟

قال منذر:

- بلـى، كانت روحـه أقدمـنا.

قلـت:

- ألم تختفِ روحه كما ظنت الجداريات، وظن النسالى قبل إتمامهم
العهد الدموي؟!

قال:

- لا أعرف شيئاً عن هذا سيدتي.

فقال فاضل:

- لا عليك، ألم تذكر مرة واحدة لم يستطع فيها ذلك القائد إخضاع
النسالى الزائرين؟

قال:

- نعم لم أتذكر.

قلت:

- أرجوك .. حاول التذكر، قد يجنبنا هذا هزيمة قاضية.

قال وهو ينظر إلى القائد المرسوم:

- إن قواه تفوق قوة كل نسلي زائر.

وتتابع:

- ليبت الأمر يتوقف عند أمره للنسالى الزائرين بالتخلي عن
أرواحهم الزائرة فحسب، بل لديه المقدرة على أمرهم بمحاجمة
باقي النسالى البشريين إن فطن حامل روحه لهذا الأمر.
وأضاف بنبرة واجمة وهو ينظر في أعيننا:

- في لحظة ما، قد نجد أنفسنا في مواجهة الأشراف والزائرين غير
حاملي أرواح الشام وإن التقى الجيشان، وقتها لن يستمع باقي
الزائرين إلى أو إلى أصيل أو إلى بيجاد كما حدث مع يعقوب ..

زمًّا فاضل شفتيه، ثم قال:

- إذن كما اتفقنا، لا مفر من قتل حامل تلك الروح وإلا كان البديل
موتنا جمِيعاً.

هز الشاب رأسه موافقاً، ثم نظر إلى صورة قائده من جديد، وقال:

- بل يجب علينا الإسراع في وضع خطة محكمة لذلك.



بعدها غادرنا الكهف عائدين جميعاً إلى الجنوب عدا بكير الذي تركناه بأسفل ذلك الجبل من أجل ترقب ظهور محتمل لصاحب وعاء الطعام وأحضاره إلينا سواءً كان العجوز خشيباً أو غيره، على أن يقتات من الصيد إن استلزم هذا الأمر مزيداً من الأيام، ثم حلَّ الظلام من فوقنا، فقاد منذر طريقنا حتى وصلنا إلى جماعتنا من النساى مع منتصف الليل، فوجدنا ريان ومعه أصيل وبيجاد بهيئتهما البشرية في انتظارنا .. وعلى الفور سألنا بيجاد:

- هل وجدتم شيئاً؟!

فيبدأ منذر يحكى عما رأه وتذكره، فارتسمت علامات الدهشة على وجه أصيل وبيجاد، فسألتهما:

- ألا تتذكرا شيئاً عن هذا؟

أوما برأسيهما نافيين، وقال أصيل:

- ربما نتذكر شيئاً إن رأينا تلك الجدارية.

قلت:

- حسناً، سيرافقكم الطبيب إلى هناك بعد نيله قسطاً من الراحة.
أو ماً موافقين ومعهما فاضل، فتابعت:

- لكن مع وجود احتمالية كبرى بعدم تذكركم شيئاً أكثر مما تذكرة
منذر، علينا التفكير الآن في كيفية قتل حامل تلك الروح قبل أن
يسلب النسالى الزائرين قوتهم في ميدان المعركة.

نظروا إلى جميعاً صامتين، حتى نطق ريان:

- إنني أمتلك خطة بالفعل قد نستطيع من خلالها اصطياد ذلك
الشاب أو قتله.

قبل أن يصمت لهنيهة ويكمel وهو ينظر إلى الثلاثة حاملي أرواح
الشامو:

- لكنها قد تكلفنا نصف ما لدينا من نسالى زائرين.



(١١)

مُفْرَان

سألت ريان على الفور:

- ماذا تعني؟

تحرك أمامنا في الخيمة، ثم قال:

- سأشرح لكم ما أقصده.

ثم وجه سؤاله لي:

- لماذا نجا الزائرون الثلاثة الذين عادوا معك من جويد؟

قلت:

- لم يكونوا معنا أثناء مواجهتنا لحاميل روح القائد.

قال وهو يواصل تحركه أمامنا:

- هذا يعني أن ذلك الشاب لا يؤثر إلا في النساء والزائرين الذين

يراهنن بعينيه.

فكرت قليلاً، ثم قلت:

- أعتقد ذلك.

قال:

- إننا نتفق جميعاً أن خطوتنا الأولى للانتصار على الأشراف هي تحديد حامل تلك الروح واقتلاعه من بينهم، سواءً بقتله أو اصطياده، ولكن ذلك لن يتم إلا من خلال معركة أخرى مفتوحة بيننا نجد فيها طريقة للكشف عن هويته دون أن نخسر ما تبقى لدينا من النسالى الزائرين.

قلت:

- هذا صحيح، لكن تطبيقه على أرض الواقع غير مناسب، إن أقرب ممر جبلي إلى جويدا يفصله عن الباحة مساحة شاسعة من الأرض المسطحة المكشوفة، يستطيع من خلالها حامل تلك الروح التأثير على كافة النسالى الزائرين قبل أن يقتربوا من سور الباحة الجنوبي.

جلس على مقعد بجواره وقال:

- لم أقل أن المعركة ستكون في جويدا هذه المرة، ستكون بأرضنا في الجنوب.

فقال فاضل:

- كيوان ليس بهذا الغباء كي يطاردنا بجيشه في الشقوق والمرات الجبلية الملتوية التي تنتقل عبرها الآن وهو يعلم أننا أكثر خبرة وتحملاً من جنوده في مثل تلك الظروف، سيتركنا نواصل تحركنا وتتقلاطنا مكتفيًا بإطلاق قذائفه المطاردة لنا حتى يموت الكثيرون مما تعيًا أو يصيّبنا اليأس في النهاية فتهاجم جويدا فيحقق نصره المنتظر على اعتابها بمساعدة حامل روح القائد النصلي.

وصمت للحظة ثم تابع:

- لن يدفع بجيشه جنوباً إلا مع استقرارنا جميعاً بمكان يؤمنُ لنا
المعيشة لفترة طويلة، وفي الوقت ذاته لا يستطيع الوصول إليه
بقدائمه، وكما رأينا مدى مدافعته الجدار الرهيب، لن يفلت سهلاً
واسعاً أو وادياً من قذائفها مهما ابتعدنا جنوباً.

أخرج ريان من ثيابه صدفة بحرية في حجم كف يده، ثم تحرك نحونا
ووضعها على الطاولة أمامنا، وقال:

- إن هناك منطقة مؤمنة بالفعل من مدافعته الجدار.
نظرنا إليه جميعاً مشدوهين، فأخرج الكتاب الذي كان برفقته دائماً،
وبحركة واحدة فتح أوراقه إلى صفحة مطوية في منتصفه فرداها أمامنا
لتظهر لنا خريطة مرسومة، وقال:
- خريطة چارتين وتضاريسها.

نظرنا بتمعن إلى الخريطة التي رسمت، كما عرفتها دوماً، كحبة
كمثرى مقلوبة تتبع من الشمال لتحتوي مدن بلادي الأربع عشرة
وتضيق جنوباً عند صحرائها الجنوبية التي تحتوي وديان النسالى
والجبال الحمراء والجبال الصلدة، وقال بعدما التقى الصدفة البحرية
بيده اليسرى وأشار إلى موضع في الخريطة بيده اليمنى:

- لقد عثر على هذه الصدفة هنا.

نظرت إلى الموضع الذي أشار إليه وتعجبت عندما كان بعيداً كل البعد
عن المناطق المجاورة لجدار چارتين القريبة من بحر أكما، فتركتاه يكمل
ما يقصده دون أن يقاطعه أيٌّ منا، وأشار إلى خط رفيع منشق من آخر

سميك طویل یشق الخریطة من جنوبها إلى شمالها کنت أعرف أنه یمثل
النهر الجاف، وقال:

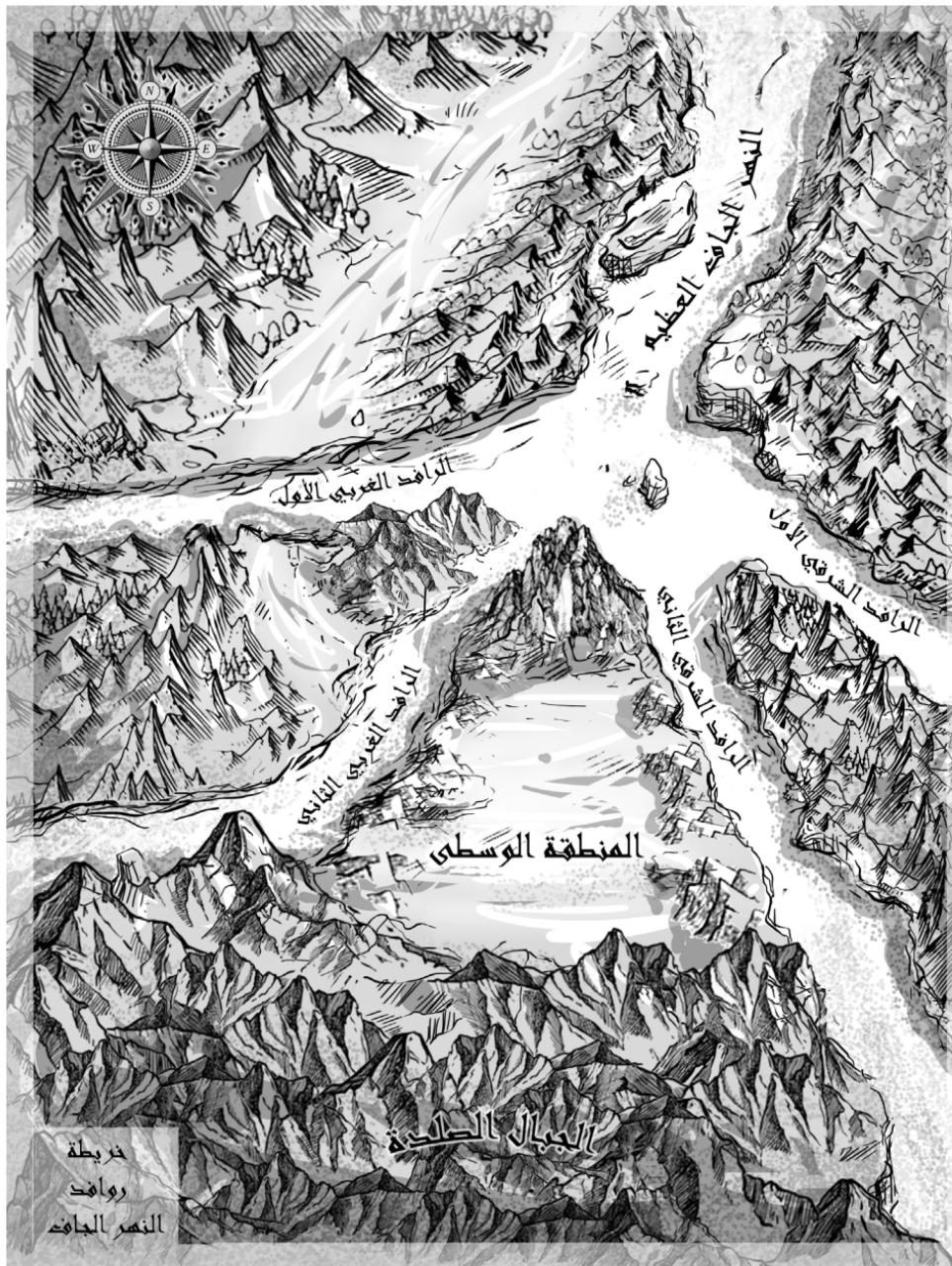
- أترون رواد النهر الجاف التي تلتجم لتكون مجراه العظيم؟ إنَّ
كل راقد منها ترك بعد جفافه أخدوداً عميقاً قد يصل عرضه إلى
ثلاثين متراً على الأقل.

وحرک إصبعه على الخریطة وأكمل:

- كما ترون، إنها أربعة، اثنان ينحدران من ناحية الشرق، وآخران
ينحدران من ناحية الغرب، يتلقون جميعهم عند هذه النقطة التي
تمثل بداية النهر الجاف العظيم الذي یواصل طريقه حتى شمال
چارتین.

ثم أشار إلى أول الرواقد غرباً وقال:

- كانت جماعتي تتحرك في الأيام الماضية بالمرات والدروب الجبلية
القريبة من ذلك الراقد دون دراية مني، ثم فقدنا أحد الأطفال
قبل خمسة أيام، تسلل من أمه مع غروب الشمس للحاق بأربن بـ
بریٌ حتى فقد جماعتنا، وقتها أوقفت التحرك جنوباً من أجل
البحث عن ذلك الطفل إلى أن وجده أحد شبابنا مع عصر اليوم
التالي في أخدود ذلك الراقد، ظن ذلك الطفل أنتي غاضب منه
لتسبيبه في تأخير تحركنا يوماً كاملاً، فجاء إلى مأهله وأعطاني
هذه الصدفة قائلاً ببراءة أنه عشر عليها وأراد إعطاءها لي كي
تكون تميمة حظي في حربنا ضد الأشراف، ولتوئس وحدتي ليلًا
عندما أضعها على أذني وأستمع إلى صوت البحر بداخלה، لم
أعطي اهتماماً للأمر في البداية وأمرت الجميع بالاستعداد للتحرك



مع صوت الزئير القادم، لكي نهضت من نومي ليتلها فجأة بعدما وثب إلى رأسي تساؤل عن وجود ذلك النوع من الصدف البحري في رايد جاف كان من المفترض أنه نهر للمياه العذبة، وظل ذلك التساؤل يورق نومي ليتلها إلى أن أخذت كتابي وركبت حصاني مع الفجر وتحركت إلى أخدود ذلك الرايد.

كان تل منخفض يمتد على امتداد ضفة الأخدود فعبرته قبل أن أترجل وأنزل جاراً حصاني إلى قاعه العميق بحذر، ثم تحرك متفحضاً أرضه الجافة بدقة شديدة إلى أن عثرت على بعض الأصداف البحرية صغيرة الحجم محسورة في شقوتها الضيقة، وقتها تأكّدت أن الطفل قد عثر على هذه الصدفة هناك بالفعل، فركبت حصاني وركضت به في ذلك الرايد تجاه الجنوب متجاوزاً انعطافاته واحداً وراء الآخر لعلي أجده شيئاً يفسر لي سبب وجود ذلك الصدف بأرضه إلى أن توقفت بعد أربعة أو خمسة أميال عندما وجدت الرايد أمامي مغلقاً بما لم أتوقعه قط، سدٌ صخري كبير مبني بصخور ضخمة مستطيلة الشكل تشبه الصخور ذاتها التي تبني جدار چارتين، لتصبح حيرتي حيرتين.

تركت حصاني وصعدت متراجلاً إلى ضفة الرايد لأرى ما يوجد بعد ذلك السد، كانت تكلمة قصيرة له لا تتجاوز نصف ميل، كان عمقها يتدرج إلى أعلى حتى اندمج مع جبل صخري منحدر أدركت أنه منبع ذلك الرايد قبل آلاف السنين، هبطت بعدها إلى حصاني مرة أخرى لأقطع الأخدود عائداً بالاتجاه الذي جئت منه وعبرت المكان الذي بدأت بحثي عنده، وأكملت طريقي حتى وصلت إلى النقطة التي التقت فيها الروايد الأربعة لتصب في النهر الجاف،

ثم انحرفت إلى أحدود الرافد الثاني، وفي أرضيته الجافة لمح أيضاً بعض الصدف والمحار البحري، فأكملت طريقني فيه إلى أن وصلت في النهاية إلى سد صخري مماثل لسد الرافد الأول.

عزمت وقتها أن آتي إليكما مباشرةً لأخبركما عما عثرت عليه لعل أحدكما يرى في ذلك شيئاً هاماً، لكنني قررت إكمال بحثي أولاً بالرافدين الآخرين لعلي أعثر على شيء إضافي يكون ذا جدوى، وأكملت طريفي عبرهما بالفعل، كانا أكثر عمقاً من أول رافدين وأكثر طولاً لكنهما كذلك انتهيا بسدين مشابهين للسدين الآخرين.

حينذاك وقفت أمام سد الرافد الأخير الذي ارتفع أمامي لعشرة أمتار تقريباً وأخرجت زفييري في خيبة أمل بعدما لم يهدني تفكيري لـأي شيء ثم استدرت كي أعود أدراجي، لكن بعد ركوبي حصاني للحظة خطرت في بالي هذه الخريطة التي تفحصتها العديد المرات بالشهور الماضية، ربما لم تُظهر بوضوح تلك الروافد لكنها بالطبع أظهرت امتداد النهر الجاف من الجنوب إلى أقصى الشمال حيث مصبها في بحر أكما قبل بناء جدار چارتين، وفكرت فيما أخبرني به الطبيب عما رأه في كهف العجوز قبل ست سنوات بشأن تحمل النساى عبء بناء جدار چارتين وعبء إصلاح جزئه المنellar، حينها نظرت إلى السد المبني من خلفي وإلى صخوره الضخمة التي تختلف في هيئتها عن صخور ضفتى الرافد والتلال القابعة على امتدادها، وببدأت أفكر في أمر لم أفكّر فيه من قبل وهو كيف استطاع النساى بأجسادهم البشرية نقل صخور تزن الواحدة منها أطناناً من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال،

ليثبت في رأسي افتراض فسر لعقله وجود الصدف البحري في أرض الرواقد، وهمسه إلى نفسي متعجبًا:

لقد استعملوا مياه بحر أكما نفسها ملء النهر الجاف من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، لذلك بنوا تلك السدود التي أغلقت الرواقد كي يحكموا ملئها، لقد استعملوا مجرى النهر الجاف ورواده كفتاة بحرية صناعية تجري فيها السفن حاملة للصخور من الجنوب إلى الشمال.

هناك وجدت الأفكار والتساؤلات تنهال على رأسي تباعًا، ليدق في بالي التساؤل الأهم:

إن كانت سواحل چارتين التي تمتد مئات الأميال قد أحاطت بأكملها بجدار شاهق يبلغ ارتفاعه عشرات الأمتار من تلك الصخور، كم احتاج النساى من جبال لإتمام بنائة؟ عشرات المئات؟آلاف؟ مناطق جبلية اقْتُلَعَت قلعاً من الأرض؟! ونظرت حينها إلى خريطة كتابي مرة أخرى باحثاً عن منطقة بين الجبال الصلدة تكون خاوية من الجبال، أو بمعنى أدق أخلت من الجبال، لكنني لم أجده، فقللت لنفسي:

ربما لم تكن الخمسون عاماً التي يعيشها الأشراف والعشرينات التي يعيشها النساى كافية لإعادة النظر في صحة هذه الخريطة.

ومع تلك التساؤلات التي دبت في داخلي ركضت بحصاني نحو الجبال الصلدة القريبة من منابع النهر الجاف لأنقل بين ممراتها التي تحدر مباشرةً إلى رواد النهر دون أي عوائق طبيعية ورأسي تخيل أمامي قدامي النساى وهم ينقلون الصخور

عبرها إلى الرواقد، وواصلت تتقلي من ممر إلى آخر ومن منبع إلى آخر، لأجد في النهاية بين الرافدين الأوسطين ملادنا الآمن أيها السادة، الجبال المُقببة.

نظرت إليه في تعجب واستغراب شديدين، وسألته:

- الجبال المُقببة؟!

قال:

- نعم، لم تخطئ الخريطة هنا، توجد جبال الصخور الصلدة بالفعل دون فراغات بينها، لكنَّ افتراضي كان سليماً تماماً أيضاً، لقد جوَّف النسالى باطن تلك الجبال لاستخدام صخورها في بناء الجدار مع الحفاظ على إطارها الخارجي السميك، لتبدو من الخارج سلسلة من الجبال المجاورة لكنها مجوفة من الداخل ذات مداخل ضيقة، تستطيع القول بأن كل جبل منها يخفي في باطنه ساحة واسعة تسع لمئات النسالى.

حين ترون تلك الجبال ستدركون من اللحظة الأولى أن أسفتها السميكة ستتصمد أمام ألف قذيفة من مدفع الجدار، لم يكن النسالى القدامى ماهرين للغاية في بناء جدار چارتين فحسب بل صنعوا بمهارتهم الفريدة ما قد ينجي أحفادهم بعد قرون.

وابتسم وهو يضيف:

- سنوات طويلة ابتعدتْ وديانُ النسالى وسكانُها عن هذه المنطقة بأكملها ظناً منهم أن صخورها صلدة كالفولاذ لا تصلح لإقامة أي حياة، لكنَّ الخبرَ السارِ أيها السادة أنَّ هناك ينابيع عذبةً تشبه

ينابيع المياه الموجودة في وديان الجبال الحمراء ، أعتقد أنَّ النسالى
القدامى قد استعملوها خلال سنوات عملهم الكثيرة هناك.

ثم قال بصوت هادئ مبتهج :

- لم نعد في حاجة إلى الترحال من مكان إلى آخر، وإن كان كيوان
ينتظر استقرارنا في مكان يؤمن لنا المعيشة لفترة طويلة كي
يهاجمنا بجيشه فسنتحقق له هذه الرغبة.

انفرجت أسارير وجهي من الثقة التي كان يتحدث بها، فقال بحماس
أكبر:

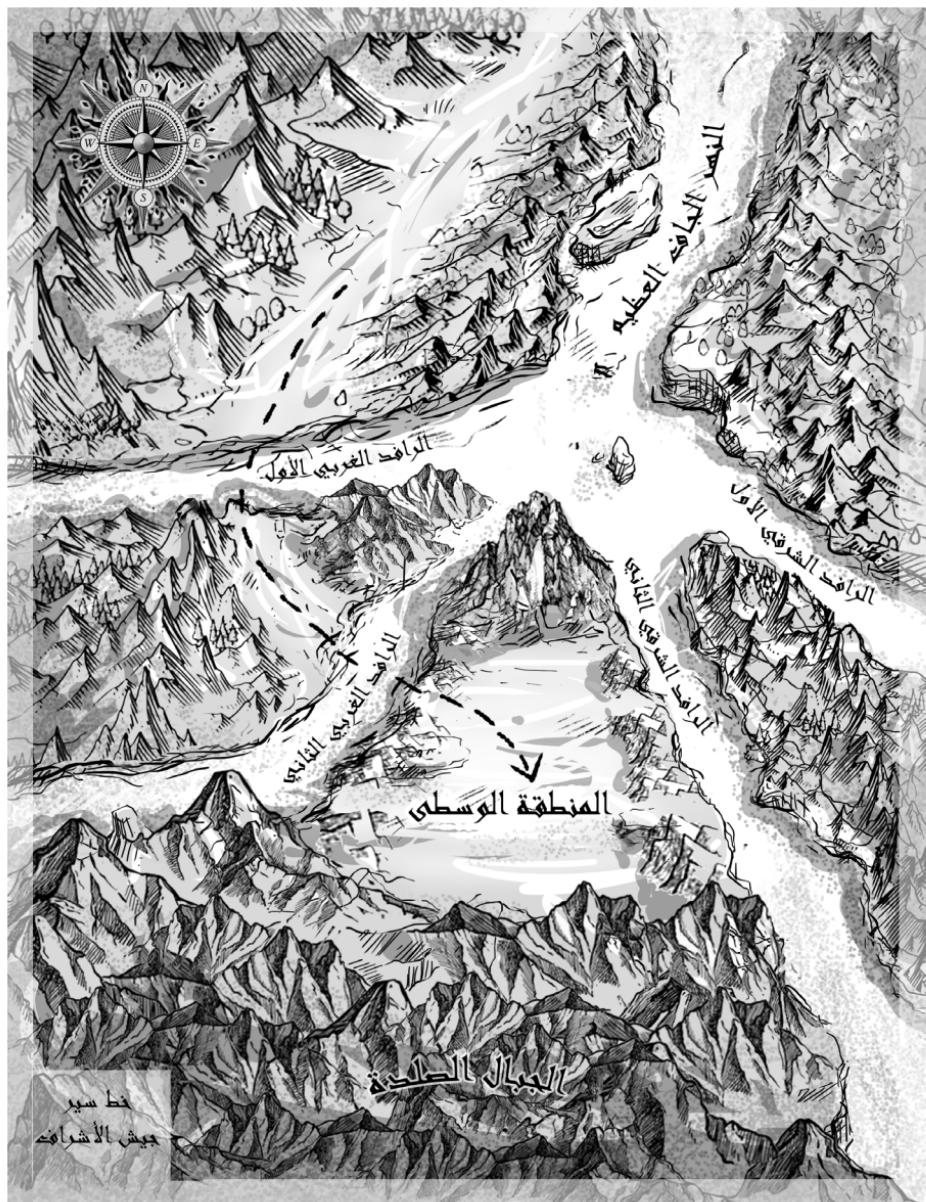
- والآن نأتي للجزء الهام أيها السادة .
فانتبهنا إليه جميماً، فأخرج ورقة أخرى مُطبقة وفردها أمامنا ،
فوجدنا بها خطوطاً مرسومة بدا أنه قام برسمها قبل مجئه إلينا ، وقال :
- لقد قمت برسم مُخطط واضح لروافد النهر الجاف وانعطافاته
كي تفهموا جيداً ما سأتحدث بشأنه .

وأكمل وهو يشير إلى رسمته كقائد حربي :

- كما أخبرتكم، يتكون المجرى الرئيسي للنهر الجاف من التحام
أربعة روافد كبرى، اثنان غرباً واثنان شرقاً، لكن هناك شيئاً
هامين للغاية لا بد وأن نأخذهما في الاعتبار.

ونظر إلينا وقال :

- الشيء الأول، أن التلال الصخرية المنخفضة تمتد على جانبي كل
رافد منها، نعم ارتفاعها أقدام فقط عن الأرض، لكنها تبقى تللاً
في النهاية، وسنعود إلى أهمية هذه النقطة لاحقاً.



ثم عاد وأشار إلى الراfeldin الأوسطين برسالته، وقال:

- الشيء الآخر، أن المنطقة الواقعة بين الراfeldin الأوسطين ذات أرض منبسطة بعض الشيء، تتسع كما ترون مع ابعاد الراfeldin عن بعضهما جنوباً إلى أن تنتهي بالجبال الصلدة التي توجد بينها جبالنا المقببة.

وطرق بإصبعه بين الراfeldin الأوسطين مؤكداً وقال في حماس:

- ستكون هذه المنطقة هي أرض معركتنا القادمة مع الأشراف، وسنسميها من الآن المنطقة الوسطى.

ثم سألني فجأة:

- إن فعلها كيوان وأتى بجيشه إلى الجنوب بعد فشل قذائفه في تهديدنا، فماذا سيكون غرضه الأول من ذلك؟

قلت:

- قتلنا بالطبع.

قال مؤكداً:

- إبادتنا عن بكرة أبيينا دون ترك نسلٍ واحد على قيد الحياة هذه المرة، لذلك سيكون همه الأول هو حصارنا داخل الجبال المقببة حتى يتمكن حامل الروح الزائرة معه من تحويل كافة النسالى الزائرين إلى نسالى بشريين ومن ثم الفتاك بنا.

في البداية سيؤمّن طريقه قبل الوصول إلينا، ستدك مدافعي كل الدروب والمرات الجبلية المؤدية إلى المنطقة الوسطى، وكذلك المنطقة الوسطى نفسها تحسباً لأي فخ ننصبه له، لكن بمجرد

وصول جيشه إلى منطقة الروايد لن يستخدم مدافعه مجدداً، إما لكونه مع المهاجمين أو لوجود معهم صاحب الروح النسلية الذي تبقى قيمته أقوى من قيمة المدفع، وهنا سيكون وجود حامل الروح بينهم ميزة لنا، لذا لن نبرح مكاننا بالجبال المقيبة وسننتظر فحسب لنرى أي طريق سيسلكه للوصول إلينا، إما أن يأتي بقواته من دروب مختلفة لتحاصر منطقة الروايد بأكملها ومن ثم يحاصر الجبال المقيبة وسيكون ذلك خطأ ساذجاً منه لأن دروب هذه المنطقة ستؤدي به في النهاية إلى تقسيم جيشه إلى أربعة جماعات على الأقل مفصولة بالروايد الجافة التي يصل عرض الواحد منها ثلاثة متراً، وهذا سيسهل علينا الأمور كثيراً، ولا أتوقع أنه سيفعلها.

لكن ما أتوقعه أنه سيأتي بجيشه عبر درب واحد يؤمنه جيداً بمدافعيه قبل وصوله تجنبًا لتفرقه جيشه بين الدروب، وقتها سنواصل انتظار تقدمه إلينا دون أي رد فعل على الإطلاق، حتى يصل إلى هنا.

قالها وهو يشير إلى الرافد الغربي الأول، وأكمل:

- سيببدأ جيشه في العبور عبر الرافد الأول ثم الرافد الثاني ليصل إلى منطقتنا المفضلة، المنطقة الوسطى، لفرض حصاره على الجبال المقيبة.

ونظر إلينا وقال:

- مع أعداد جيشه الكبيرة، ستأتي اللحظة التي ينقسم فيها جيشه مع عبور أول المجموعات الرافد الثاني إلى ثلاثة أجزاء، الجزء

الأول عبر إلى المنطقة الوسطى بالفعل، الجزء الثاني لا يزال بين الراfeldin الأول والثاني، والجزء الأخير لم يعبر الراfeldin الأول بعد، وفي هذه الوقت ستدق طبولنا العظيمة ليكون ظهورنا الأول على الساحة.

سنستخدم ذخائر المدفع المحترقة التي خزنّاها في ملاذنا الأول بسهل الجبال الحمراء عبر أحصنة تحملها وتركتض في تلك الأخداد لتُحدث تفجيراً عظيماً بكل راfeld يزيد من إبعاد جماعاتهم عن بعضها البعض، وفي هذه اللحظة سيظهر رجالنا في جماعات ثلاثة تواجه كل جماعة واحدة من جماعات الأشراف، حينها سينصب تركيز كل جماعة منهم على مواجهة النسالي القادمين إليهم أكثر من إكمال العبور إلى المنطقة الوسطى وخاصة مع استمرار ركض الخيول بالذخائر في الأخداد.

ونظر إلى الثلاثة شبان حاملي أرواح الشامو، وقال:

- ستكون إحدى الجماعات سيئة الحظ لأنها ستواجه الجماعة التي يوجد فيها حامل الروح النسلية، لكن مع وجود التلال الممتدة على جانبي الأخداد لن يتمكن حامل الروح من إبصار كافة النسالي الزائرين وإخضاعهم لتأثيره، ومن ثم ستصبح لدينا فرصة إهلاك ثلثي جيشهم وفي نفس الوقت نستطيع كشف صاحب الروح الذي سيعمل على التنقل من جماعة لأخرى لإنقاذهما من الزائرين، وقتها يتولى منذر وأصيل وبيجاد أمره.

أعلم أن هذه الخطة قد تكلفتنا عدداً كبيراً من الزائرين، لكنني أرى أنها أفضل من الانتظار حتى يسلبنا جميع زائرينا.

وَسَكَتْ، لَمْ يُنْطِقْ الشَّبَانْ حَامِلُوْ أَرْوَاحَ الشَّامِوْ، أَمَا فَاضِلْ فَقَدْ بَدَأْ عَلَى
وَجْهِهِ أَنْهَا افْتَنَعْ وَلَوْ مُبْدِيًّا بِخَطْلَةِ رِيانْ، وَنُطِقَ إِلَيْهِ قَائِلًا:

- أَعْتَدْ أَنْهَا بِحَاجَةِ إِلَى بَعْضِ التَّعْدِيلَاتِ، رَبِّمَا تَطْرَأْ عَلَى رَؤُوسِنَا^١
أَفْكَارَ بَعْدِ انتِقالَنَا إِلَى الْجَبَالِ الْمَقْبَبَةِ.

فَقَظَرَ رِيانْ إِلَى النَّسَالِيِّ الْزَّائِرِينَ مُنْتَظِرًا تَعْلِيقَهُمْ، فَقَالَ مِنْذُرُ:

- لَيْسَ لَدِي مَانِعٌ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِ انتِصَارِنَا، وَأَعْتَدْ أَنْ كُلَّ النَّسَالِيِّ
الْزَّائِرِينَ سَيَتَقَوَّنُ مَعِيْ.

وَصَمَتْ لِلْحَظَةِ ثُمَّ قَالَ:

- قَدْ تَكُونُ خَطْلَةٌ عَظِيمَةٌ تُحُولُّ مَجْرِيَ الْأَمْرِ فَعَلَّ، لَكِنَّكَ بَنِيَتِهَا عَلَى
إِفْتَرَاضِ تَقْدِيمِ كَيْوَانَ بِجِيشِهِ إِلَيْنَا، مَاذَا لَوْ لَمْ يَأْتِ طَالِمَا لَمْ نَقْتَرِبْ
مِنْ جَوِيدَا مِنْ جَدِيدٍ؟

فَسَكَتْ رِيانْ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ جَوابًا، فَقَلَّتْ:

- سَيَأْتِي، وَإِنْ لَمْ يُرِدْ، سَنَجْعَلُهُ يَضْطَرِّ إِلَى الْمَجِيءِ.



(١٢)

مُفْرَان

سألني منذر مستغرباً من الثقة الكبيرة التي نطق بها:

- كيف؟!

قلت:

- على قدر ما اكتسب كيوان من ثقة أهل چارتين بعد انتصاره علينا في المعركة الأخيرة على قدر ما سيمثل ذلك ضغطاً هائلاً عليه مع كل يوم يستمر فيه وجودنا.

وتابعت مفسرة:

- عامة الأشراف وقد رأوا بأعينهم أن بإمكان جنودهم الانتصار علينا، ومع الرعب الشديد القابع في قلوبهم من زائرينا سيكون كل تأخر من كيوان عن إبادتنا، في نظرهم، تقاعساً منه، لذا ستكون أولى خطواتنا بعد استقرارنا في الجبال المقببة هي تكثيف ذلك الضغط منهم عليه ليصل إلى الحد الذي يكون فيه زحفه إلينا هو الطريقة المثلث لمنع انفجارهم في وجهه.

ونهضت من جلوسي وتحركت أمامهم، وقلت:

- قبل إنشاء مدرستنا في وادي النسالى كان شبان النسالى يرتكبون أكبر حماقاتهم الإجرامية في مدن چارتين دون أن يعثروا بالإعدام الذي ينتظرونهم في باحة جويدا إن أمسك بهم، أليس كذلك؟
أومأوا برؤوسهم متلقين معى، فقلت:

- الآن، وبعد عثورنا على ملادنا الجديد، حان الوقت لاستعادة بعض من تلك الحماقات لنرسل إلى الأشراف رسالة واحدة ، أنا ما زلت موجودين، وأن وجودنا هذا سيطول.

ونظرت إلى فاضل وقلت:

- لقد ارتكب كيوان خطأً جسيماً بتدميره لموائمه وهو يعلم أن بلاده لا تنتج ما يكفيها من غلال وزيوت للمشاكل وتعتمد اعتماداً كبيراً على جلبها من البلدان الأخرى ، سيسحل رجالنا البارعون إلى مدن چارتين البعيدة عن جويدا وسيهاجمون مخازن الغلال بها لإتلافها، كذلك سيهاجمون قواقل الغذاء والزيوت المتنقلة عبر الطرق الممتدة بين المدن لإهلاكها هي الأخرى، ليشعر كل شريف داخل نفسه بأن الأسوأ قادم وأن شبح الجوع والظلم يقترب منهم كل يوم عن اليوم الذي يسبقه طلما نحن موجودون، بمعنى أوضح سنعمل على أن تكون الفترة القادمة بمثابة حرب استنزاف لهم ، وفي الوقت ذاته ستواصل طبولنا العملاقة دقّها جنوباً مع سكون ليتهم، لنجعلهم نائمين مفتوحي الأعين خوفاً من إغلاقها لحظة لا يفتحونها بعدها أبداً.

ثم جلست من جديد، وأكملت بصوت هادئ:

- إن العامة عادةً لا يحبون أوقات الحروب التي تحرمهم من ممارسة حياتهم العادلة، وفي بلد مثل بلدنا تحدد قواعدها عمراً لا يتجاوزه أحد سيكون كل يوم يعيشونه في ذلك التوتر خطوة إضافية نحو انهيار نفوسهم، لتبدأ ألسنتهم في التذمر والتلاسن عن تقاعس قادتهم وعن عجز مدفع الجدار عن تدميرنا بل وإهار ذخائرها الثمينة بلا قيمة، سينتقل التذمر بعدها إلى الجنود أنفسهم ليتهامسوا فيما بينهم عن خوف قادتهم الغير مبرر من التحرك جنوبًا، وعمًا إن كان الانتصار الماضي الذي حققوه انتصاراً حقيقياً أم حدث صدفة، ومع كيوان الذي نعرفه ونعرف مدى اغتراره بنفسه لن يسمح لأحد بأن يشكك في قدراته القيادية، سيتحرك بجندوه إلينا ومعه حامل الروح النسلية ليسكت كل الألسنة، لتكون معركة كبرى تُحُول وجه چارتين إلى الأبد.

سيأتي لا محالة أيها السادة، وحتى تأتي هذه اللحظة علينا أن نستعد لها جيداً.

ونظرت إلى الثلاثة شبان وقلت:

- سننتقل إلى الجبال المقببة مع شروق الشمس، وبعد استقرارنا هناك سيختار كل قائد منكم من رجاله من لديه القدرة على تنفيذ ما تحدثت بشأنه.

أومأوا جميعاً موافقين، بعدها بقليل غادروا جميعاً الخيمة كي يعودوا إلى جماعاتهم من أجل إخبارهم بالاستعداد للتحرك إلى منطقة الرواقد مع شروق الشمس، وكذلك انتقل ريان إلى خيمة الطبيب لينال قسطاً من الراحة قبل انطلاق زئير التحرك.



مع شروق الشمس تحرك الجماعات شرقاً نحو منطقة الروافد متخذين أكثر المرات ضيقاً وانعطافاً خشية أن تعاود مدافعان الأشراف قصفها العشوائي، وهو ما لم يحدث، وواصلت جماعاتنا طريقها دون أي تهديد حتى انخفضت ارتفاعات الجبال بشكل تدريجي ولاحت في الأفق أمامنا منطقة التلال الصفرى، فقال ريان الذي كان يمتلك حساناً بجواري أنا وفاضل:

- يقع الراوند الأول خلف هذه التلال.

قلت:

- إذن سيمبر جيش الأشراف من هذا الدرب الذي نسير فيه في حال مجيئهم إلينا.

قال:

- نعم، أو دعوني أقل على الأرجح.
وأردف وهو يشير جانباً:

- كما ترون تنتشر التلال بكثرة على جانبي أول الروافد، لن يغامر بعبور الراوند من مكان آخر تحسباً لتفرقة جيشه بين التلال.

قلت في نبرة متفائلة:

- أتمنى ذلك.

ثم لكررت حسانى بقدمي في حماس ليركض إلى الأمام ويصعد بي تلأ صغيراً، توقفت بأعلاه عندما ظهر أمامي على بعد أمتار أخود الرافد الأول بعرضه الواسع وعمقه الكبير، ثم لحق بي فاضل وريان ووقفا بجواري، قال فاضل الذي بدت على وجهه كل علامات الدهشة هو الآخر:

- لو أردنا أن نحمي أنفسنا بحفر خندق يحيط بنا لما استطعنا حفر
ربع ذلك العمق والاتساع، تواصل چارتين إبهارها لي.

ابتسم ريان الذي شعر بعظام اكتشافه، وقال في ثقة:

- إنني أثق تماماً سيدتي بأن خطتي ستكون طريقنا للانتصار المحقق
على الأشراف.

قال فاضل :

- وأنا أخبرك بأنني صرت أكثر تفاؤلاً الآن.

فقلت:

- حسناً أيها المتقائلان، لنجعل جماعتنا تعبر في حذر، ولكن آخر
من يعبر إلى الضفة الأخرى.

اتفقا معي في ذلك، وبدأ مرافقونا من النسالى البشريين في اجتياز
التلال الصغيرة للوصول إلى ضفة الرافد الجاف والهبوط إلى قاعه
الصخري قبل صعود منحدر الضفة الأخرى، أما النسالى الزائرون فقد
تولوا أمر عبور عربات الغلال والخيام بعد انتهاء عبور النسالى البشريين،
إلى أن انتهى الجميع من العبور فهبطنا أنا وفاضل وريان عن أحصنتنا
وبحدر شديد نزلنا إلى قاع الرافد وصعدنا إلى الجانب الآخر ثم عبرنا
صف التلال المجاور له، لنواصل تحركنا بعدها مع الباقين إلى التلال
المطلة على الرافد الجاف الثاني، لنعبره بالطريقة ذاتها التي عبرنا بها
الرافد الأول ونصل إلى المنطقة الوسطى ذات الأرض المنبسطة الواسعة
وهناك كان باقي الجماعات في انتظارنا، ثم أشار ريان بعيداً نحو جبال
لاحت في الأفق جنوباً على بعد لا يقل عن ميلين، وقال في بهجة:

- تقع الجبال المقببة خلف تلك الجبال.

فصاح شبان النسالى القريبون منا في حماس وفرحة، ولكنى على عكس السعادة التي غمرتهم وجدت القلق يساورنى بعدهما كانت تلك المنطقة منبسطة للغاية وغير محمية بالجبال مثل طرقنا الضيقة الأخرى، وهذا ما يجعل المسافة إلى الجبال التي أشار إليها ريان مجازفة غير آمنة بالمرة من قذائف كيوان إن صادفت واستهدفت هذه المنطقة في تلك الأثناء، لكنى فوجئت بريان يكمل حديثه إلينا بنبرة رسمية وكأنه أعد خطة لذلك:

- سيستحيل النسالى الزائرون جميعهم إلى هيئتهم الزائرة ليحملوا من لا يستطيع الركض من النساء والأطفال، ويركضوا بهم دون توقف نحو الجنوب، أما الخيول فستترك جميعها للنسالى البشريين على أن يركب الحصان الواحد اثنان أو ثلاثة، ستتحمل كل عربة من عربات الغلال خمسة أو ستة أفراد إضافيين، أما الباقيون فسيركضون معى على أقدامهم إلى أن نصل تلك الجبال، سنتحرك جميعاً بمحاذة تلال الضفة، هيا أسرعوا.

فانقسم الجميع في دقائق إلى ثلاثة جماعات متتالية، الجماعة الأولى من الزائرين الراكضين بالنساء والأطفال وكانت الأسرع بيننا والجماعة الثانية ضمت عربات الغلال وراكبي الخيول، كنت أنا في مقدمتهم بحصاني ومن خلفي ركبت بتول، بينما حمل فاضل امرأة وطفلها خلفه على حصانه، أما المجموعة الأخيرة فكانت من شبان النسالى الأقوباء ممن لا يحملون أرواحاً زائرة وفي الوقت ذاته لديهم القدرة على الركض أكثر من الباقيين كان بينهم ريان الذي ترك حصانه لشاب وامرأتين آخرين، لقطع المنطقة الوسطى نحو الجنوب في تتبع وقلبي يدق قلقاً ورأسي يتلفت بين الحين والآخر إلى السماء خشية أن تلاحقنا القذائف،

حتى تفست الصعداء مؤقتاً بعدما رأيت جماعة الزائرين تدلف عبر ممر ضيق بين الجبال التي نقصدها قبل أن يخرجوا إلينا مرة أخرى بعدما تركوا من يحملونهم، وأسرعوا راكضين إلى الجماعة الأخيرة ليحمل كل واحد منهم شاباً أو اثنين ويركض به من جديد نحو الجبال، لنصل جميعاً إلى ذلك الممر دون أن نفقد هرداً واحداً وهناك هبطت عن حصاني وأغمضت عيني وأنا أملاً صدري بالهواء بعدما حل القلق عني للمرة الأولى منذ بلوغنا المنطقة الوسطى، بحثت بعيني عن ريان، كان يقف جانبًا يلتقط أنفاسه ويمزح مع جماعته من الراكضين، فسِرت نحوه وسألته:

- كم يتبقى على الجبال المقببة؟

قال:

- حركتنا بمحاذاة تلال الرافد أبعدتنا عنها بعض الشيء، سنقطع هذا الدرب في اتجاه الشرق لمسافة تقارب نصف ميل، وبعدها سنجد لها.

نظرت إلى السماء، كانت الشمس تتصف السماء، فقلت له وأنا أربت على كتفه:

- أحسنت فيما فعلته، هيا لنقود النسالي إلى ملادهم الجديد. فأوّلما برأسه إيجاباً باسمًا، ثم استعاد حصانه من جديد وتحرك بين النسالي إلى مقدمة الحشد، فتقدمت بحصاني وراءه، وتحرك النسالي من خلفنا، لنواصل تحركنا متخذين مساراً محدداً بين تشعبات المر المتشابكة، إلى أن صاح ريان في سرور وهو يشير أمامنا:

- إنها هناك، أولى الجبال المقببة.

وانطلق أمامنا بحصانه نحو جبل كبير كان يقع بالجانب الأيمن من الدرج على بعد ثلثين متراً منّا، وانحرف بممر ضيق بجواره، فأشرت للنسالى بيدي كي يتوقفوا عن التقدم ثم انطلقت بحصاني مع فاضل والثلاثة شبان حاملي أرواح الشامو وراء ريان، وانحرفتا بالمر المضيق ذاته والذي التف بنا حول سفح الجبل إلى جانبه الآخر لنجد ريان واقفاً في انتظارنا عند فتحة كبيرة تشبه باباً صخرياً كبيراً منحوتاً بمهارة في الجبل نفسه، فهبطت مسرعة عن حصاني وخطوت إلى الداخل دون أن أتحدث إلى أحد، لأفتح فاهي دهشةً عندما وجدت باطن الجبل أمامي قد استحال إلى باحة دائيرة عظيمة مستوية الأرض يصل قطرها إلى مائتي متر على أقل تقدير، ترتفع جدرانها الصخرية المكونة من الجبل ذاته لتلاقي بالأعلى في سقف يرتفع عن الأرض عشرات الأمتار تتخلله ثقوب تمرر الهواء والضوء لتبسيئها كلّياً مع نور النهار، فالتفت إلى حاملي أرواح الشامو وفاضل وريان من خلفي، فوجدت الثلاثة شبان قد انتشروا بأرجائهما يتقدون جدرانها المسائية وأرضها المستوية فيما وقف فاضل بمنتصفها ناظراً إلى السقف ترسم على وجهه كل علامات الدهشة، أما ريان فكان يقف على بعد خطوات مني فقلت له في حالة من الانبهار:

- كم جبل لدينا من هذه الجبال؟!

قال فرحاً من نبرتي المبتهجة:

- ما يكفي لإيواء جميع النسالى سيدتي، سبعة وعشرون جبلاً.

فاقترب منا فاضل وقال وهو ينظر إلى ثقوب السقف بالأعلى:

- أعتقد أن هذه الجبال تُكمِّل قصة جداريات الكهف، يبدو أن النسالى القدامي قد توقعوا خيانة الأشراف للعهد الدموي وفرّعوا

الجبال من صخورها بهذه البراعة وشيدوا هذه ال巴حات من أجل التحصن بها إن لم تشر أرواح زائريهم، لكن الأشراف لم يمهلوهم وباغتوهم باجتياحهم في وديانهم القديمة، لتشهد هذه الجبال وباحاتها سرّا طوال هذه القرون.

فقلت بلهجة سارّة وأنا أنظر إلى الثلاثة شبان الزائرين:

- احتمال وارد حقاً.

وأضفت فرحة:

- لن نجد ملذاً خيراً من هذه الجبال المحمية شمالاً وشرقاً وغرباً بأحاديد الروافد الجافة، وجنوباً بالجبال الصلدة، لقد أنصفت أرض چارتين النسالي من جديد.

ثم اقترب منا منذر وبيجاد وأصيل فقلت لهم في حماس:

- أيها السادة فلنسرع بتوزيع النسالي على باحات الجبال المقببة وخاصة القريبة من ينابيع المياه قبل حلول الليل.



في ذلك المساء استغرق تقسيم النسالي بين الجبال وقتاً أقل كثيراً مما كنت أتوقع بعدما أبدى أهل كل وادي من الوديان القديمة رغبتهم في المكوث سوياً نساءً وشبان وأطفالاً، فوافقتهم على ذلك، حتى أن الجبال سُميّت سريعاً ليلتها بأسماء وديان ساكنيها، كان نصيب وادينا «وادي النسالي الأكبر» أربعة جبال متقاربة، يجاورنا ثلاثة جبال من نصيب نسالي وادي مُريان، يجاورهم جبلان من نسالي وادي عقيل، يجاورهم نسالي الوادي الغربي، ووزّعت أربعة جبال أخرى بين سكان الأربع وديان

المتبقيّة، أمّا جبال الأطرااف فتركّت خاوية لتكون أماكن تجمع المحاربين سواءً زائرين أو بشريين حين تدق أبواق الحرب، وتركتنا باحة الجبل الأوسط لتكون حانة النسالى الجديدة ومكاناً مجمعاً لتناول الطعام، ثم خلد جميعنا للنوم بعد ذلك اليوم الشاق.

في الصباح التالي كانت المهمة الأولى لكانة النسالى هي تقسيم الباحات بالصخور الصغرى إلى صفوف من غرف متباورة تشبه في مساحتها أكواخ وديانتنا القديمة، يفصل كل صف منها عن الآخر ممر يصل عرضه إلى ثلاثة أمتار، كان فاضل هو صاحب تلك الفكرة، كما اقترح إنشاء كوخ في باحتنا أوسع قليلاً من باقي الأكواخ سُمي كوخ القيادة .. أمّا منذر فاقتصر أن تعلق أبواب الأكواخ بقطع قماشية من أقمشة الخيام كي يستقل كل كوخ بخصوصيته، كذلك اقترح أصيل بناء أحواض كبيرى لتخزين المياه على مسافات متساوية أمام الأكواخ، لتصبح الجبال المقببة مع اشتعال المشاعل ليلاً وادياً مجمعاً لكل وديان النسالى.

في تلك الليلة دقت موسيقا رقصة الشامو القديمة في الحانة الجديدة لأول مرة بعد غياب طويل، ليركض الشباب والفتيات من باقي الجبال إلى الحانة صارخين فرحاً، وما لبثوا أن اجتمعوا وتعالت الموسيقا حتى بدأوا رقصتهم المعتادة في شتايات وإن تخلى بعضهم عن عصبة عينه القماشية، كنت أنظر أنا وفاضل إليهم في فرح بالغ بعدهما كست وجوههم علامات السعادة بعد أيام الترحال الشاقة الماضية، غير أنتي لم أرقص معهم هذه المرة، وتحججت إليهم بألم سافي فيما تراقص فاضل بشعره الطويل مع بعض الفتيات اللاتي لم يتوقفن عن إلحاحهن بطلب الرقص معه، وإن ظلت عينه معلقة بي في خجل وهو يراقصهن.

في النهار التالي بدأ عملنا الجاد من جديد لإكمال ما خططنا له، رحل فاضل مع أصيل وبيجاد إلى كهف العجوز خشيب لعاهما يتذكرا شيئاً كما تذكر منذر، فيما قاد ريان ثلاثة شاباً من راكبي الخيول وانطلقوا شمالةً من أجل إحضار ذخائر المدفع المحترقة المخبأة في كهوف الجبال الحمراء، فكرت أيضاً في إحضار عربة ذخائر مدفع الجدار التي خرجنا بها يوم هجومنا الأخير على جويداً وخيالها النسلي الزائر الناجي بمعرفته، لكنني فضلت عدم المجازفة بالاقتراب من جويداً في هذا الوقت والاكتفاء بذخائر السهل.

أما أنا فركبت حصاني بعد مغادرتهم وركضت به إلى المنطقة الوسطى لأهبط إلى أخدود الراشد الثاني وأوصل ركضي بحصاني عبره وعالي يفكر مع كل منعطف عن أماكن إخفاء الخيول التي ستحمل الذخيرة في حال اتباعنا خطة ريان، حتى وصلت إلى نقطة التقاء الراشد مع النهر الجاف فصعدت إلى ضفة الراشد الشرقية وانطلقت بمحاذة التلال عائدة إلى الجبال المقببة، وهناك تجولت لبعض الوقت بين النساقي الذين كانوا يكملون بناء الأكواخ المصغرة في باحات جبالهم، ثم توجهت لأسوقي حصاني من ينبع مائي قريب قبل أن أتحرك لأواصل تجوالي بين الجبال، لكنني وجدت منذر يأتي إليّ، ويخبرني بأن ثمة شيء على أن أراه، فسألته:

- أي شيء؟

قال:

- كنا نتفقد أنا وبعض الشبان الجبال التي لم تسكن، ووجدنا داخل أحدها ما قد يثبت صحة افتراض ريان بشأن امتلاء النهر الجاف بماء بحر أكما.

وابعه:

- رسمتان، الأولى مركب وحيد ذي مجاديف كثيرة وطويلة، والأخرى مراكب كثيرة متراصة، منقوشتان بحرفية في ذلك الجبل، وهناك جملة منقوشة بالچارتينية القديمة لم نستطع قراءتها ..

فتحركت معه على الفور نحو الجبل الذي يقصده، ودلفنا عبر باب باحاته، كان أربعة من الشبان يقفون بداخلها، فواصلنا تقدمنا عبر الباحة إلى أن أشار بيده أمامي إلى جدار الجبل الداخلي، وقال:
- هناك.

ثم أشار بعيداً عما أشار إليه بأمتار وقال:
- وهناك.

وأردف:

- كانت الرسومات والكلمات تظهر بوضوح كبير مع سقوط أشعة الشمس عبر الفتحات العليا عليها.

فاقتربت أكثر وأكثر نحو ما أشار إليه، وفي الوقت ذاته اقترب أحد الشبان بشعلة من الجدار لأرى بوضوح ذلك المركب الذي حدثني عنه، حاولت أن أبحث بعيني عن شيء غريب به، لكنني لم أجده سوى مركب شراعي منقوش ينزلق من جانبه اثنا عشر مجدافاً طويلاً، فتحركت إلى الرسمة الثانية، كانت مراكب مشابهة للمركب المرسوم وحيداً لكنها كانت أصغر حجماً وكثيرة للغاية ومتراصة في صفوف منتظمة كالأسطول، وفي أسفلها نقشت كلمات الچارتينية القديمة التي حدثني عنها منذر، زمممت شفتي في خيبة أمل بعدما لم أستطع تفسيرها أنا الأخرى، ثم قلت لمنذر وأنا أنظر إلى السفن المنقوشة من جديد:

- ألا تذكر روحك بشأن هذه المراكب؟

هز رأسه نافياً، فقلت وأنا أنظر إلى الكلمات من جديد:

- كأنهم أرادوا تدوين مرحلة بناء السفن قبل نقل الصخور.

ثم سأله:

- هل هناك رسومات أو نقوش أخرى؟

قال:

- لا، بحثنا بجدران باقي الجبال جميعها قبل مجبيّي إليك ولم نعثر على شيء.

وتابع:

- لكن إن جد جديد سأخبرك به سيدتي.

فشكرته على ذلك، ثم عدت بعدها إلى كوخه وعلقني ينشغل كلياً بذلك الاكتشاف وتلك الكلمات المبهمة، ولم أخرج منه إلا مع ظهرة اليوم التالي عندما عاد فاضل وأصيل وبيجاد.

قال فاضل حين لاقيته بمفرده في كوخ القيادة:

- كما توقعنا، لم يتذكر الشابان شيئاً أكثر مما تذكره منذر.

فسألته:

- وصاحب الوعاء .. هل هناك جديد بشأنه؟

قال:

- ما زال بكير هناك في انتظار ظهوره.

زممت شفتي .. ثم قلت:

- عشر منذر داخل أحد الجبال على رسمة منقوشة للمراكب التي حملت الصخور إلى الشمال ومعها كلمات أخرى بالچارتينية القديمة لم نستطع قراءتها.

قال:

- نعم رأيتها قبل مجئي إلى هنا ولم أستطع تفسيرها أنا الآخر..
وأخرج زفيره وأضاف:

- ليتهم تركوا لنا تلك المراكب، كانت تكفي لحملنا جميعاً إلى خارج
چارتين.

ابتسمت وقلت وأنا أجلس:
- وإلى أين نذهب؟
ضحك وقال:

- سنترك بحر أكما يوجّهنا إلى حيثما شاء، سيكون أي مكان أفضل
من كيوان وقوانيں هذه البلد المجنفة.

قلت باسمة:

- حسناً، إن قُدْر ووجدناها يوماً ما سأحقق لك هذا الحلم، بشرط
أن تملأ لنا النهر الجاف بـملياه من جديد.
قال ضاحكاً:

- قذيفة واحدة من مدفع الجدار تستهدف جدار چارتين نفسه
وسيأتيكِ الماء الذي تريدينه وأكثر.
ضحكـت وقلـت:

- ونفرق مدن چارتین وأهلها کي نتجو؟! لا لا .. لن تكون سبباً في
قتل الأبرياء أيها الطبيب الشرير.

ضحك وقال:

- لو علم أهل چارتين بحرصك على عدم إيدائهم لصنعوا لك تمثلاً
في باحة جويدا.

قلت:

- لا أريد شيئاً، أريد أن أنهي القواعد فحسب، ولعيش الجميع في
سلام.

قال:

- ومن لا يتمنى ذلك؟

ثم بدّل مجرب الحديث وقال:

- متى يعود ريان ورفاقه؟

قلت:

- مع ثقل الذخائر والحدر أثناء نقل عرباتها في أرض الممرات
الصخرية غير المهددة قد يستغرق الأمر عشرة أيام على الأقل.

ثم تابعت:

- بمجرد أن يعود سنبدأ خطلة استنزافنا للأشراف.
أومأ برأسه متفقاً معي، قبل أن نخرج سوياً لنفقد النسالي والتحدث
إلى الكثرين منهم وطمأنتهم بأن انتصارنا قادم وإن تأخر .. لم يكن
يعلم أحدنا أن ما خططنا له قد صار في مهب الريح، ووجدنا ريان يعود

إلينا بعد أربعة أيام فقط من حديثي أنا وفاضل بدون الذخيرة وبدون نصف العدد الذي غادر به، لينطق إلينا لاهثاً بمجرد أن خرجنـا إليه مستغربين من عودته المبكرة ومن الهيئة المتربة التي أتى عليها هو ومن

معه:

- لقد تقدم جيش الأشراف إلى الجبال الحمراء، سقط نصف رجالـي في كمين أعدـه لنا طلائعـه هناك، واستطاعت الهرـوب بأعجوبة مع النصف الآخر.
ونظر في عينـي وهو يرـدف قائلاً:

- لسنا في حاجة إلى استفزـازهم ليأتـوا إلينـا، إن تـقدم طلائـعـهم كل هذه المسـافة يعنيـ أن مـعركتـنا الكـبرـى التي نـنتظـرـها ستـكونـ في غضـونـ أيامـ.



(١٣)

ذٰهِبٌ

عدت إلى المعسكر الشمالي مرة أخرى بعدهما تأكدت بنفسي من دفن جسد السيدة سيرين بمكان بعيد جنوب الباحة، كان آدم لا يزال نائماً في ذلك التوقيت فرقدت بجواره وأغمضت عيني لأنام دون عناء وكأن شيئاً لم يحدث، لم أكن أعرف أن النهار التالي سيحمل منعطفاً كبيراً بالنسبة لي بعدما أيقظني فارس من حراس عمى الذين أعرفهم وأخبرني بأن عمياً في انتظاري على وجه عاجل جداً، سألته بعينين شبه مغلقتين عن السبب، فأجابني في اقتضاب:

- أخبرني فحسب أن آتي بك في الحال ولو بالقوة.

ادركت لحظتها أن عمياً عرف بما حدث، فنظرت إلى آدم الذي كان قد استيقظ ووقف وراء الفارس يراقب حديثنا في تعجب، ثم سالت الفارس في اضطراب:

- هل أبي هناك؟

هزَّ رأسه نافياً، فنهضت وغسلت وجهي على نحو سريع بما كان في إرهاق بجواري، ثم ركبت حصاني وتحركت به خلف الفارس بعينين حمراوين منتفختي الألجان، أقلّب في رأسي كل الكذبات التي قد أبّر بها

لعمي ما فعلته بعدما وعدت أبي بعدم إخباره بأمر آدم، وإن ظل داخلي واثقاً بأنه فيأسوا الحالات لن يعاقبني بعدما أقدمت على ما فعلته الليلة الماضية من أجل چارتين وجيشها.

عندما وصلت إلى دار الأمن وصعدت إلى قاعة مكتبه ودلفت إليه مباشرةً، كان واضحًا أنه ينتظري خصيصاً، نظر في عيني بعينيه القويتين، وقال دون مقدمات:

- تعرف أن قوانيننا تنص على إعدام من يقتل أي شريف حتى لو كان ابن أخي كبير الضباط.

ابتلعت ريقني في ارتباك وشعرت أن دماء جسدي قد اندفعت جميعها إلى وجهي، فواصل تحديقه في عيني وبدأ ينقر بأصابعه على مكتبه دون أن ينطق بشيء آخر، فقلت بعدما تيقنت أن أبي لن يتواجد لينقذني من ذلك الموقف:

- فعلتها من أجل چارتين.

وأصل صمته ونظراته القوية في عيني، قلت:

- أعلم أنك لا تصدق هراء الجنود المنتشر عن انتصارنا على النسالى أول أمس، لكنني كنت أنا وأبي سبباً مباشرًا فيه بعدها حقق لنا صديقي آدم هذا الانتصار.

وبدأت أحكي له في رعب ما حذر من ذءب مساعدته لي أعلى السجن عن استحالة كون آدم حفييد خشيب إلى قتلي للسيدة سيرين خشية أن تتسبب في فقداننا ذلك السلاح الهام المتمثل في قدرة آدم على إخماد أرواح النسالى المتوحشين، ثم سكتُ وأنظر في عينيه، لم ينطق بكلمة، وكذلك لم يظهر على وجهه أي انطباع، فقط أشاح لي بيده كي أنتظر

خارجاً، فخرجت في صمت وانتظرت على مقعد بالخارج يهتز جسدي بقوه من الرعشة التي سرت فيه، ويدق قلبي خوفاً مما قد يتزده من قرار في قادم اللحظات حفاظاً لكرياته، لم يكن عمي ذلك الرجل الذي يسمح لأحد بأن يشعره بأنه مغفل قط وإن كان أخيه أو ابن أخيه.

بعد دقائق وصل أبي مهولاً وبدا على وجهه المرتبك أن عمي قد استدعاه على نحو عاجل هو الآخر، نظر إلى مستغرباً حين وجدني أجلس بقاعة الانتظار فضمنت له شفتي معلناً دون حديث مني بأنني قد بحث بكل شيء، فأكمل طريقه إلى مكتب عمي لأسمع صوت نقاشهما العالى بعد لحظات، قبل أن تهدأ نبرة صوتيهما ويستمر نقاشهما بالداخل حتى منتصف النهار إلى أن فتح أبي باب الغرفة وأشار لي كي أنضم إليهما، فوقفت أمام عمي مطاطاً الرأس كالمذنبين، فسألني في اقتضاب:

- كم تثق في ذلك النسلي؟

قلت:

- بعد ما فعله أول أمس أثق فيه تماماً، كان عليك أن ترى حماسته الشديدة لإنقاذ جنودنا، قبل أن يغير مصير تلك المعركة، لولاه لاستولى النسالي على مدافع الجدار جميعها وحققوا انتصاراً كاسحاً علينا.

نظر أبي إلى عمي، فأدركت أنه حدثه بالمنطق ذاته، فقال عمي:

- حسناً، ستنتقل أنت وهو إلى معسكر الباحة لتتضموا إلى الجنود الذين يستعدون للزحف نحو الجنوب، إن تقديراتنا لأعداد النسالي جميعهم لا تتجاوز عشرة آلاف غير زائر وثمانمائة زائر متبقين من الألف إن كانوا قد ثاروا جميعاً،

أما جنودنا فتصل أعدادهم إلى أربعة وعشرين ألفاً. حين تحين اللحظة المناسبة ستتقدم أنت بذلك النسلي إلى الجنوب مع ثلاثة آلاف فقط من جنودنا المجهزين بأفضل العتاد، سيكفي ذلك العدد للقضاء على النسالي العُزُل إن أكمل صديقك ما فعله أول أمس.

وسرت للحظة نظر فيها إلى أبي كأنهما اتققا على شيء قبل دخولي، ثم أكمل:

- أما إن لم يفعلها صديقك وكان ذلك فخاً منه لجنودنا من أجل استدراجنا إلى معركة بالجنوب فستكتفل مدفع الجدار بإبادة الطرفين في المعركة حين يحتمم الاشتباك، سأضحي بالثلاثة آلاف جندي مقابل من تبقى من الزائرين.

نظرت إلى أبي وقلت مستهجناً لقرارهما:

- وأنا بينهم؟!!

نظر إلى أبي دون أن يقول شيئاً، فنطق عمي وقال بنبرة جافة:

- نعم، مثلك مثل باقي الجنود، على صديقك أن ينقذكم جميعاً من الموت.

نظرت إلى والدي غير مصدق بأنه وافق على مثل هذا القرار، فنظرت بعينيه إلى الأرض، فأرددت عمياً أمراً:

- عد الآن إلى صديقك واستعد للانطلاق إلى معسكر الباحة مع صباح الغد، ولا تنس أن إخبارك لأي أحد بما نتني فله سعيد خيانة لن أغفرها أبداً.

هزّت رأسي إيجاباً بغير أن أقول شيئاً، ثم أقيت تحيتي العسكرية بطريقة رسمية واستدرت لأغادر الغرفة بخطوات عسكرية لأعود إلى المعسكر الشمالي من جديد، وهناك سألني آدم بمجرد أن التقى به:

- ماذا حدث؟ ولماذا أصر الفارس على اصطحابك إلى عمرك في هذا التوقيت المبكر؟

قلت:

- لقد عرف عمي بشأن قدراتك، وكان يتأكد مني أنك من حققت لنا انتصارنا العظيم أول أمس فأكده له ذلك.

وتابعت بعد لحظة:

- لكنه شدّد على أن يبقى الأمر سراً كي لا يتم استهدافك من الخائبين، لذلك آثر ألا يتم ترقيتك الآن.

ابتسم وقال:

- نعم، أتفهم ذلك.

ثم سألني مستغرباً:

- لكن لماذا أشعر أنك لست على ما يرام؟

اصطنعت الابتسامة وقلت:

- لا، إنني بخير، لم أنم جيداً بالأمس فحسب.

و قبل أن أكمل الطريق إلى خيمتي بعدما أردت البقاء وحيداً قلت له:

- سننتقل إلى معسكر الباحة مع الغد للانضمام إلى الجنود هناك، يتوقع عمي منك الكثير من العمل للقضاء على ما تبقى من أولئك الوحوش.

ابتسم من جديد وقال:

- وأنا على أتم الاستعداد لفعل أي شيء يتطلبه انتصار بلادنا يا صديقي.

فرربتُ على كتفه باسمًا، ثم أكملت الطريق إلى الخيمة.



في اليوم التالي، انتقلت أنا وأدم إلى معسكر الباحة وبمجرد وصولنا هناك انضممنا مباشرةً إلى تدريبات الرماية المخصصة للجنود الجدد في المرج الشرقي المجاور لذلك المعسكر، وهناك أبدى أدم مهارة عالية في التصويب، كنت أعرف أن عمله في ورشة صناعة الأسلحة في بريحا كان سبباً مباشراً في تلك المهارة، قبل أن نأوي إلى إحدى الخيام المنتسبة في الباحة بعدما أخبرنا الفارس الشاب المكلف بتدريبيانا بأن تدريباتنا تلك ستستمر طوال أيامنا هناك.

كان ذلك المعسكر أكثر ضجيجاً من المعسكر الشمالي خاصةً مع استمرار عبور القذائف المدوية من فوقنا تجاه الجنوب دون توقف خلال أيامنا الأولى هناك، سمعت أحد الفرسان يتحدث إلى آخر في يومنا الخامس هناك عن تحرك طلائع جيشنا إلى الجنوب لرصد حركة النساى وتبين مدى نجاح قذائفنا في حصدتهم قبيل الزحف الأكبر من جنودنا نحو الجنوب، ليزداد القلق القابع في صدرني مع انتهاء كل نهار كان يقربنا من ذلك اليوم، على عكس أدم الذي بدا هادئاً كثيراً، مثله مثل باقي الجنود.. ينتهي من تدريباته صباحاً ثم يأوي إلى خيمتنا دون الحديث الكبير، أو يجلس ليلاً أمام قائم جانبي معلقة عليه إحدى الرايات يظل ينظر إليه شارداً وكأنه في عالم آخر حتى يغلبه النعاس، ثم توقف

قصف مدافعنا مع اليوم العاشر .. فأدركت أن موعد زحفنا قد اقترب للغاية.

بعد ذلك اليوم بسبعة أيام قدم أبي أخيراً إلى معسكر الباحة، واجتمع بي على انفراد بعدهما أمر بانصراف كل جنود الخيمة بما فيهم آدم، سأله عن آدم في البداية، فأخبرته بأن كل شيء كما هو، فقال:

- رصدت طلائعاً حركة النساء على مقرية من منابع النهر الجاف ذات الأرض الصلدة في أقصى الجنوب الشرقي، وضع الفئران أنفسهم في مأذق، إنها منطقة جبلية مغلقة الممرات جنوباً، قامت مدافعنا بمهمتها بتوجيههم إلى هناك على أفضل نحو، وحان الآن زحف جنودنا لحصارهم هناك قبل إدراكهم المأذق الذي وضعوا أنفسهم فيه.

قلت:

- متى سيتم التحرك؟

قال:

- الليلة.

دق قلبي متسلقاً، وبعدما فشلت في إخفاء ارتباكي سأله:

- هل ستقصرون الجانبين حقاً إن لم يفعلها آدم؟

سكت للحظات، ثم قال:

- إنه احتمال أخير، لن ننجا إليه إلا لو كانت الخسارة حتمية من الزائرين.

قلت بنبرة جادة للغاية:

- لا أريد مرافقة الزاحفين جنوبياً.

قال:

- إن وجودك هناك بجوار آدم أمر ضروري علّقنا فيه، لو كان صديقي الذي يثق بي لذهبت أنا، كما أن خطأك بقتل امرأة شريفة لا بد من تكفيره بمساعدة الأشراف.

فصرخت فيه حانقاً:

- فعلتها من أجلنا جميعاً، ألا تعرف ذلك؟!

سكت من جديد، ثم قال بعد فترة من الوقت طالت هذه المرة:

- إن شعرت أن الهزيمة صارت على وشك الحدوث فاسلك بحصانك أحدود النهر الجاف نفسه، سيكون آخر مكان أوجّه له قذائفنا، ولكن أحذر من درارات أرضه، إنها شديدة الانحدار وصعبه للغاية على الخيول كما أخبرنا خبراء التضاريس، كذلك ستجد طوله ثلاثة أضعاف المسافة التي ستسلكونها جنوبًا مع كثرة التواءاته، لكنه يبقى الحل الوحيد لنجاتك إن لجأنا لاستخدام قذائفنا.

فقلت له في غضب شديد:

- لن أسامحك على هذه الفعلة أبداً يا أبي.

هزَ رأسه دون قول شيء، ثم غادرني متوجهاً إلى باقي قادة المسكر ولم أره بعدها إلا مع اصطافانا مساءً إيداناً ببدء تحركنا إلى الجنوب.



كانت أعدادنا المصطفة للتحرك ثلاثة آلاف من راكبي الخيول كما قال عمي مسبقاً، كنت أنا وأدم في الصف الثاني من صفوف الجنود

خلف صفوف الفرسان الأولى، تقدمنا فور انتهاء المدافع من قصفها الشديد نحو الجبال المطلة على المرات التي سقطت عنها، ثم انضمت إلينا بعض الطلائع التي كانت ترصد تحركات النسالي في الأيام الماضية بعد اجتيازنا أول ميل في طريقنا، عرفنا من ثرثرة بعضهم أنهم لاحقوا بعض النسالي قبل أيام وقتلوا منهم خمسة عشر نسلياً كانوا على مقربة من الجبال الحمراء، كذلك قال أحدهم بأنهم كفوا في الأيام الأخيرة بوضع شعلات ضخمة مطفأة فوق قمم بعض الجبال في طريقنا وتركوا مع كل شعلة منها جندياً مسؤولاً عنها، وانضموا إلينا كي يواصلوا نشر تلك الشعلات حتى أرض المعركة المنتظرة، فأدركـت داخل نفسي أن اشتعال تلك الشعلـات سيكون إذـنا للمـدـافـعـ بيـدـهـ دـكـهـاـ لأـرـضـ الاـشـتـبـاكـ فيـ حـالـةـ خـيـانـةـ آـدـمـ لناـ.

ونظرت إليه حينها وقلـتـ فيـ سـريـ:

ـ أـتـمنـيـ أـلاـ تـخـذـلـنـيـ يـاـ آـدـمـ.

عـنـ مرـورـنـاـ بـالـقـرـبـ مـنـ أـطـلـالـ وـادـ مـحـتـرـقـ مـنـ وـدـيـانـ النـسـالـيـ،ـ قالـ أحـدـ الـجـنـوـدـ بـجـوارـنـاـ ضـاحـكاـ:

ـ لـطـلـماـ شـهـدـ هـذـاـ الوـادـيـ أـفـضـلـ مـلـذـاتـناـ.

وـبـدـأـ يـرـويـ لـنـاـ عـنـ حـانـةـ ذـلـكـ الوـادـيـ وـنـسـائـهـ الـبـارـعـاتـ يـفـيـ الرـذـيلـةـ،ـ وـمـنـ خـلـالـ حـدـيـثـهـ عـرـفـتـ أـنـ ذـلـكـ الوـادـيـ هوـ الـذـيـ سـكـنـتـهـ الرـامـيـةـ لـأـعـوـامـ،ـ قـبـلـ أـنـ يـنـضـمـ إـلـيـهـ جـنـوـدـ آـخـرـونـ لـيـتـحـدـثـوـاـ عـنـ تـجـارـبـهـمـ مـعـ عـاهـرـاتـ النـسـالـيـ حـتـىـ شـعـرـتـ أـنـ هـؤـلـاءـ الـجـنـوـدـ إـنـ أـرـادـوـ شـيـئـاـ مـنـ حـربـنـاـ المـقـبـلـينـ عـلـيـهـاـ ضـدـ النـسـالـيـ فـسـيـكـونـ سـبـيـ نـسـائـهـمـ مـنـ أـجـلـ إـكـمـالـ مـلـذـاتـهـمـ،ـ عـلـىـ كـلـ حـالـ لـمـ نـكـنـ لـنـجـدـ أـفـضـلـ مـنـ تـلـكـ الـحـكـاـيـاتـ الـبـذـيـةـ لـتـنـسـيـنـاـ مـؤـفـقاـ

مصيرنا المجهول الذي نتقدم نحوه، ثم توقفنا للراحة أخيراً مع عبورنا ذلك الوادي، كان آدم في تلك الليلة أكثر صمتاً من أي ليلة أخرى، فسألته عن سر صمته، فقال بأنه يشتق إلى خالته سيرين، فأخبرته بأننا سنعود سوياً إلى بريحا بعد انتهاء حربنا مباشرةً إن كانت قد عادت إلى هناك، فربت على فخذي شاكراً لي، قبل أن يتركني ويخلد إلى النوم.

في اليوم التالي مررنا بالجبال الحمراء، كانت المرة الأولى التي أرى فيها تلك الجبال لأدرك مدى عظم طبيعة چارتين المُهمَلة في الجنوب، قضينا يوماً كاملاً في عبورها بعدما اتخذنا ممرات واسعة ملتفة كانت أكثر طولاً من المرات المباشرة الضيقة بين الجبال الشاهقة؛ تجنباً لأي فخ من فخاخ النساى، لنكمل طريقنا نحو الجنوب الشرقي قاطعين الطرق والممرات واحداً وراء الآخر بين فترات من المضي وأخرى من الراحة وفق خطة بدت لي أنها وضعـت بحرفية للتنسيق بين تحركاتنا وقصف المدافع الذي يؤمن طريقنا، وإن كنت قد استغرقت بعض الشيء عندما رفعت راية عمي لتتقدم رايات جيشنا رغم عدم وجوده معنا، ثم كثفت المدفعـ قصـفـهاـ بصورة ملحوظة في صباح اليوم التاسع من التحرك نحو منطقة كانت تبعد عنا بضعة أميال، وغادرنا أكثر من جندي من جنود الطلائع حاملين شعلاتهم نحو قمم الجبال المجاورة، كذلك واصل القادة مرورهم بينما للتأكد من إحكامنا لدروعنا وخوذاتنا بشكل سليم وأمرـوا كلـ منـاـ بالتأكد من حشو سلاحـهـ بطلقاتـهـ التـارـيـةـ فـلـعـنـاـ أنـ مـعـرـكـتـناـ الحـاسـمةـ قدـ دـنـتـ لـلـغاـيـةـ،ـ ثـمـ اـنـتـهـتـ المـادـافـعـ منـ قـصـفـهـ فـدـقـتـ طـبـولـ قـواـتـناـ لـلـمـرـةـ الأولىـ لـتـقـدـمـ بـنـاـ الـخـيـولـ نـحـوـ مـنـطـقـةـ مـنـ التـلـالـ فيـ مـهـرـ وـحـيدـ كـانـ يـتـسـعـ عـرـضـهـ لـأـنـتـيـ عـشـرـ مـنـ الـفـرـسـانـ الـمـتـجـاـوـرـيـنـ بـأـحـصـنـتـهـمـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ مـاـ إـنـ قـطـعـنـاـ مـيـلـاـ وـاحـدـاـ مـنـهـ حـتـىـ وـصـلـنـاـ إـلـىـ أـخـدـودـ الرـافـدـ الـأـوـلـ لـلـنـهـرـ الجـافـ

وقتها تسارعت دقات طبولنا وأطلقت الأبواق، فتوقفت صفوف الفرسان
من أمامنا وتوقفنا بدورنا خلفهم، وبدأ القائد يعلن للجميع عن خطة
هجومنا، نظرت حينها إلى آدم كان ثابتاً كما عرفته دوماً، ثم نظرت إلى
باقي الجنود، فوجدت وجوههم الضاحكة طوال الطريق قد تبدلت إلى
وجوه عابسة مرتبكة تنظر في قلق واضح إلى التلال المطلة على ضفة ذلك
الرافد، وكأنهم توقعوا ما كان على وشك الحدوث.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٤)

مُفْرَان

رغم أتنا كنا نسعى لاستدراج كيوان وجيشه إلى منطقة الروايد إلا
أنتي لا أنكر أن الارتباك قد أصابني كلّاً حين عاد ريان مع من نجوا معه
ليخبرونا أن طلائع جيش كيوان قد تقدمت بالفعل نحو الجبال الحمراء.

قال فاضل عندما اجتمعنا في كوخ القيادة بعدها:

- هذا يعني أتنا سنواجه جيش الأشراف بدون الذخيرة التي كان
من المفترض أن تحملها الأحصنة في الخنادق.
أومأت برأسِي إيجاباً وأنا أفكِر في حل لإيجاد بدِيل لتلك الذخائر،
فقال بيجاد:

- لا أعتقد أتنا كنا في حاجة ماسة إلى تلك الذخائر، كان الهدف
منها هو توسيع المسافات بين جماعات الأشراف الثلاثة لكننا
نستطيع فعل الأمر ذاته عن طريق الزائرين أنفسهم، جميعدنا
يعرف أن قلوب الأشراف تهابنا إلى درجة الرعب حتى وإن حققوا
انتصارهم السابق علينا، سنستعل هذا جيداً هذه المرة. نستطيع
أن نستبدل الخيول المحملة بالذخيرة بخيول يمتلك سروجها
زائرونَا، ومع عامل المفاجأة وظهور رجالنا لهم من العدم سيهرع

جنودهم إلى الابتعاد عن الأحاديد سواءً بالمضي قدماً من أوشكوا على العبور أو بالتراجع لم يعبروا بعد، ومن ثم تتكلف باقي الجماعات بمهاجمة الجبهات الثلاثة.

قال ريان:

- أعتقد أن ذلك الحل سيكلفنا إحدى جماعات الزائرين الراکضين في الأحاديد إن استطاع حامل الروح بين الأشراف الركض سريعاً إلى ضفة أقرب الأحاديد إليه وإخمام أرواحهم الزائرة، ليحصل لهم بارود الأشراف الواقفين في مستوى أعلى منهم دون عناء، ستكون تضحية ساذجة منا فحسب، لن تكلفنا إلا ارتفاع الروح المعنوية للأشراف في بداية المعركة.

قال منذر:

- إنني أتفق مع ريان، لذلك أرى أن نكتفي بالأحاديد وتلالها كفوائل طبيعية بين جماعات الأشراف دون الحاجة إلى توسيع المسافة بينهم طالما لم يعد بيدنا استرجاع الذخائر.

قلت:

- وأنا أتفق معك يا منذر، سنواصل خطتنا للإيقاع بحامل تلك الروح كما هي دون تغيير.

فوجدت الموافقة على وجوههم جميعاً عدا بيجاد الذي بدا أنه كان مُصرّاً على فكرته، لكنه أومأ برأسه موافقاً في نهاية الأمر، فقلت بعدها:

- سيعترك النسالى الزائرون جميعهم من اليوم إلى الجبل المقبب الذي خصصناه لتجمیع المقاتلين.

أوماً الثلاثة شبان أصحاب أرواح الشامو، وكدت أكمل ولكن فاضل
قاطعني متسائلاً:

- وشبان النسالى ممن يستطيعون القتال؟

صمت قليلاً ثم قلت:

- إن أسلحة الأشراف النارية متطرورة للغاية، لن تقيد أمامها قدرة
شبابنا الجسدية طالما ليس لدينا أسلحة كافية لهم، لن يكون
الدفع بهم إلى القتال دون تسليحهم إلا تضحية بهم.

وتابعت:

- لدينا ما يقرب من مائتي سلاح ناري اغتنمناها يوم الغفران،
ستُوزع هذه الأسلحة بين جماعات النسالى الزائرين بالتساوي
حتى إن استحالت إحداها إلى هيئتها البشرية يستطيع رجالها
الذود عن أنفسهم حتى آخر نفس لديهم.

فبدا الاقتناع على وجه فاضل، فقلت:

- هناك شيئاً علينا أن نعمل عليهم الآن، الشيء الأول الذي قد
يكون قريباً للغاية، أنتا في انتظار موجة مكتفة من قصف مدفع
كيوان وأعتقد أنها ستستمر حتى قدوم قواته إلينا، لذا سيوزع
الطعام بأكمله في أسرع وقت بين الجبال المأهولة بالنسالى،
وسيعمل قاطنو كل جبل على تخزين ما يكفيهم من مياه الينابيع
لمدة شهرين على الأقل، الشيء الآخر أنتا سنستخدم الشبان
البارعين في الهروب والذين كنا ننوي اختيارهم للدخول إلى مدن
چارتين في خطتنا السابقة كطلائع لنا يسكنون جبلاً تبتعد عن
منطقة الروايد بمسافة كافية وفي الوقت ذاته تكون مطلة على
الطرق المؤدية إلى هنا لرصد اقتراب جيش الأشراف.

قال ريان في حماس:

- رائع، فكرت في هذا الأمر أيضاً.

فصحت في حماس أنا الأخرى:

- هيا، لم يعد هناك وقت لنضيّعه.

بعدها خرجنا إلى جبل الحانة الذي كنا قد خزننا فيه ما لدينا من حبوب وطرائد مجففة، وبدأنا في تقسيمها إلى أكواام متفاوتة الأحجام حسب عدد سكان كل جبل، وفي خلال ساعتين كانت الممرات بين الجبال المقببة تزدحم بالشبان الراكضين ذهاباً وإياباً لينقلوا أجولة الحبوب إلى جبالهم فيما تولّت الفتيات والنساء نقل قدور المياه من الينابيع إلى الأحواض المبنية داخل الجبال، ليستمر ذلك العمل حتى منتصف الليل تقريباً، بعدها أوت كل جماعة إلى جبلها وانضمت أنا وفاضل إلى جبل النسالى الزائرين بعد تبيتها على الجميع بعد مغادرة جبالهم بأي حال من الأحوال، ثم انضم إلينا ريان بعد اطمئنانه إلى رحيل الشبان السبعة المختارين كطلائع لنا، ليجلس ثلاثتنا في حالة من الصمت ناظرين إلى الفراغ أمامنا شاردي الذهن، لمتضي ساعات تلك الليلة واحدة وراء الأخرى دون أي جديد، قبل أن تدوي أولى القذائف من فوقنا مع شروق شمس النهار التالي ومعها اهتزت الأرض من أسفلنا هزة خفيفة، فهاجت الأحصنة بشدة واستحال الزائرون إلى هيئتهم الزائرة، نظرت إلى فاضل وريان في أنفاس محتبسة، كانوا مثل الباقيين ينظرون إلى السقف الصخري من فوقنا في ترقب شديد، كان ذلك الاختبار الأول لصلابة جبالنا، أو بمعنى أدق؛ الاختبار الأول لرهاننا الأكبر على ذلك الإرث الذي تركه لنا قدامي النسالى المتمثل في تلك الحصون الجبلية، ثم سكتت أصوات القذائف لدقائق لم نسمع فيها إلا صوت أنفاسنا

وزفرات الأحصنة، قبل أن يتواصل القصف العنيف المتتابع من جديد ليتسمى كل واحد منها في موضعه مُحدّقاً بالأعلى يراقب في حذر مدى تحمل جبالنا لتلك القذائف المتتالية وخاصةً مع تلك الهزات الخفيفة التي كانت تسري أسفلاً أقدامنا كالرعشة التي تسري في الأبدان، حتى تحولت النظارات المترقبة على وجوهنا إلى أخرى منبهرة واثقة بعدما لم تسقط قشرة صخرية واحدة من سقف الباحة الجبلية مع تتبع تلك القذائف عليها لتعلن لنا مدى أمان حصننا، إلى أن توقف القصف مرة أخرى لفترة طالت هذه المرة، فزار جميع النساى معلين فرحتهم بصلابة جبالنا، بعدها لم تعاود القذائف دويها من جديد إلا مع شروق شمس النهار التالي.

على مدار الأيام التالية استمرت مدافع الجدار في قصف جبالنا بدون توقف، غير أن ذلك لم يغير من نمط حياتنا داخل الجبال وكأن شيئاً لا يحدث في الخارج، حتى أنه في اليوم الرابع للقصف واصل الكثيرون من النساى الزائرين نومهم بهيئتهم البشرية رغم دوى القذائف فوق الجبال، بل تساءلوا بعدما استيقظوا إن كان القصف قد حدث ذلك الصباح أم لا. في تلك الأيام قسمّنا النساى الزائرين إلى ثلاثة جماعات بالتساوي، كل جماعة كانت تقارب المائتين، تناوبت على تدريبهم أساسيات الرماية بالأسلحة التي لدينا دون استخدام الذخيرة الحية لقلة ما نمتلكه منها، كذلك حرستنا على إخبار الجميع بسرعة اغتنام أسلحة الأشراف الذين يسقطونهم لاستخدامها في حال فقدان قوة الروح الزائرة، ثم بدأنا نسمع أصوات دوى القذائف يدوّي في مناطق بعيدة عنا ويقترب كل يوم عن اليوم الذي يسبقه، فأدركنا أن جيش الأشراف يتقدم في طريقه إلينا.

في اليوم السابع من سمعنا ذلك القصف البعيد عادت طلائعاً إلينا، وأخبرونا بأن جيشاً يتألف من حوالي ثلاثة آلاف فارس يخيمون على بعد عشرين ميلاً شمال غرب الرافد الأول، يقودهم كبير ضباط چارتين الضابط كيوان بنفسه، وتحذثوا عن الرأيـات الكـبرى التي يحملها بعض الفرسان في الصـفوف الأولى، تعجبت من قـدوم كـيوان مع هذا العدد القـليل مقارنة بـجيـش چـارتـين، لكن ذلك كان منـطـقـياً لـغاـية في ظـل وجود حـامـلـ الـروحـ النـسـلـيـ بيـنـهـمـ، لـنـ تـحـاجـ إـلـىـ أـكـثـرـ مـنـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ سـلاـحـ نـارـيـ لـقـتـلـ سـتـمـائـةـ أـعـزـلـ، ثـمـ رـكـزـناـ فيـ حـدـيـثـاـ عـنـ الجـانـبـ الإـيجـابـيـ لـقـدـومـ كـيوـانـ، قـالـ رـيـانـ:

- هذا يـمـنـعـ قـصـفـ أـرـضـ الاـشـتـبـاكـ إـنـ حـقـقـنـاـ هـدـفـتـاـ مـنـ المـعرـكـةـ.
وقـالـ منـذـرـ:

- سنـضـربـ أـكـثـرـ مـنـ عـصـفـورـ بـحـجـرـ وـاحـدـ عـنـدـمـاـ نـتـصـرـ، نـقـتـلـ
الـنـسـلـيـ وـكـيوـانـ مـعـاـ.

أما فاضل فـبـداـ أـنـهـ يـرـكـزـ عـلـىـ خـطـتـنـاـ الأـصـلـيـةـ حـينـ قـالـ:
- عـلـىـ الأـقـلـ عـرـفـنـاـ الآـنـ أـنـ صـاحـبـ الـروحـ سـيـكـونـ بـيـنـ الجـمـاعـةـ
الأـولـىـ التـيـ تـعـبـرـ إـلـىـ الـمـنـطـقـةـ الـوـسـطـىـ بـدـلـاـ مـنـ حـيـرـتـنـاـ المـتـوـقـعـةـ
عـنـ أـيـ جـمـاعـةـ سـيـكـونـ بـهـاـ، سـيـكـونـ ذـلـكـ الشـابـ أـقـرـبـ الـفـرـسـانـ
إـلـىـ كـيوـانـ.

قالـ بـيـجادـ:

- وـمـاـ الـذـيـ يـجـعـلـنـاـ مـتـيقـنـيـنـ مـنـ ذـلـكـ؟
أـجـابـهـ فـاضـلـ:

- إن الطبيعة البشرية هي ما تؤكّد لنا ذلك، لو كنت قائد ذلك الجيش وقدمت إلى هنا ومعي سلاح جئت معتمدًا عليه كليًّا لن أكون غبيًّا لأضعه بعيدًا عنِّي وأنا على علم بأن حياتي قد تنتهي بضربة مخلب في لحظة، سأضعه بكل تأكيد على مقربة مني لحمايتي قبل أي شيء.

قال بيجاد:

- هذا منطقٌ فعلاً.

فقال فاضل:

- لذا أجده أنه من الأفضل أن تُوزَع الأسلحة جميعها على الجماعة المكلفة بمهاجمة الأشراف العابرين إلى المنطقة الوسطى، على أن نزيد من تأكيدنا لباقي الجماعات بسرعة اغتنام أسلحة جنود الأشراف لكسب أطول وقت ممكن في حال تمكن النسلي من إخmad أرواحهم الزائرة، إلى أن نتمكن من تحديد هويته والتخلص منه.

فقلت:

- إنني أتفق مع فاضل في هذا الأمر، لسبب آخر أيضًا؛ لطالما ضمت مقدمة الجيوش خيرة فرسانها، لذا بقاء رجالنا المهاجمين لهم مسلحين من البداية أمر ضروري طالما تقطعي أسلحتنا أعدادهم، كذلك خطر في بالي أمر ما والطبيب يتحدث.

وأردفت:

- لا نعرف بعد كيف يتحكم النسلي في زائرينا، قال لي يعقوب قُبيل موته أنه طالبه بالتخلي عن روحه الزائرة لكنه لم يستجب له، لا أعلم إن كان ذلك نوعًا من الهمس في آذان الزائرين أم

وسوسة أم شيئاً آخر، فماذا لو استخدمنا طبولنا العملاقة على امتداد الأخدودين كمحاولة للتشويش على أي همسات من ذلك النوع، يستطيع عشرة من زائرينا الركض بالطبول في كل أخدود بالتزامن مع هجوم رجالنا والبدء في ضربها بطاقةهم الكاملة لتفلّف دقاتها العالية أجواء المعركة.

قال فاضل الذي بدا وكأن فكري أحضرت في ذهنه فكرة أخرى:

- يمكنني كذلك وضع حشوات قماشية صغرى في آذان رجالنا لتمنع عنهم الأصوات الهدئة فلا يستطيعون سماع غير أصوات الطبول الصالحة.

قال أصيل:

- حسناً، لنستخدم كل هذا، رب نجاح فكرة واحدة منها يجنبنا قتل زائر واحد.

قال فاضل متھمساً:

- سأعمل عليها في الحال.

وبالفعل بدأ بعد انتهاء من اجتماعنا في تقطيع قطعة قماشية من قماش الخيام إلى قطع صغيرة للغاية، وتحرك بين صفوف النسالي الزائرين الواقفين بهيئتهم البشرية ليغرس في آذن كل واحد منهم قطعة منها.

بعد منتصف الليلة التالية تحركت جماعاتنا مغادرة جبل المقاتلتين، لتتوارى الجماعتان الأولى والثانية في منطقة التلال غرب وشرق الرافد الأول على بعد مسافة كافية من المسار الذي سيسلكه الأشراف، أما الجماعة الثالثة المسلحة فاتخذت أماكنها في كهوف الجبال الصلدة

المطلة على المنطقة الوسطى، أما أنا وفاضل ومنذر وبيجاد وأصيل فتحركتا إلى كهف صغير بأقرب الجبال الصلدة إلى الرافد الثاني، كان ارتفاعه يمكّننا من رؤية مسار الأشراف المتوقع وكذلك نطاقات الاشتباك الثلاثة بأعيننا المجردة وإن قربت نظارة ريان المُعْظمة التي كانت بحوزتي الرؤية كثيراً، رافقنا في الجبل ذاته أيضاً نسليان زائران مع طبولهما العملاقة، سكنا كهفاً كان يعلو يسارنا بأقدام قليلة في انتظار إشارتي لهما لبدء الدقات اللاتي ستكون إيداناً باندفاع رجالنا إلى المعركة، أما ريان فقررت بقاءه في الجبال المقببة ليقود خطة هروب باقي النسالى في حال ساءت أحوالنا وانقلبت أمورنا رأساً على عقب، فوافق بعد جهد كبير، مع طلوع النهار تأكيدت من حشو مسدسي وبنديتي بطلاقاتهما النارية، كذلك أحكمت إغلاق سترتي ذات البطانة المعدنية الرقيقة قبل أن أعلى بندقيتي على ظهري وأدس مسدسي في جرابه الجلدي المعلق بساقي اليمنى بينما كان الطبيب يحدق في الأفق بعيداً نحو المنطقة الوسطى وكأنه يلقي نظرةأخيرة على أرضها الحجرية الساكنة، ثم بدأ قصف المدافع لمنطقة التلال والمنطقة الوسطى، فنظر لي وقال:

- لقد أوشك ضيوفنا على الوصول.

ابسمت، ثم نظرت في النظارة المُعْظمة إلى أماكن قصف المدافع وقت:

- تسرى الأمور كما توقعناها حتى الآن، أتمنى أن تكمل سريانها هكذا حتى ينتهي الأمر.

سألني منذر متربقاً:

- هل اقتربت القذائف من أماكن اختباء رجالنا؟

قلت وأنا أحرك النظارة المعطرة قليلاً نحو اليسار:

- لا، إن القذائف مركزة على قمة الرافدين من ناحية النهر الجاف،
بعيدة عن رجالنا.

ثم توقف القصف، ولم يبقَ من أثره إلا خيوط الدخان التي تصاعدت إلى السماء، بعدها سمعت آذاناً أصوات دقات طبول منتظمة الإيقاع تأتي من خلف الجبال المجاورة لمنطقة التلال، فنظرت إلى النسليين الزائرين الواقفين بهيئتهم البشرية بالكهف أعلى يسارنا وأشارت لهما بآلاً يدقا الطبول، فأوّلأ أحدهما برأسه طاعةً، ثم دوّت أبواق الأشراف الحربية، فقال فاضل:

- يا له من إعلان بائس عن قدومهم.

فضحكت وأنا أواصل النظر عبر النظارة نحو التلال، إلى أن ظهرت أمامي للمرة الأولى طلائعهم، عشرات من الخيالة يجرّون أحصنتهم ليعبروا الرافد الأول قبل أن يركبوا متونها ويوصلوا الركض إلى الرافد الثاني ليعبروه هو الآخر إلى المنطقة الوسطى. حين رأهم الشبان بجواري تحول بيجاد إلى هيئته الزائرة وأطلق زمرة غاضبة، فأمسكت بساعده كي يهدأ، ثم اقتربوا بجيادهم من جبالنا، فاستحال الشابان الآخران، فقلت:

- إنهم مجرد طلائع لتأمين طريق قواتهم، سيعودون بمجرد الاطمئنان من خلو المنطقة الوسطى من أي مخاطر.

ولم يمض على كلامي بضعة دقائق حتى استدار أولئك الخيالة بخيولهم وعادوا من جديد ناحية قمة المنطقة الوسطى ليطلقو أبواقهم، فظهر الصف الأول من الفرسان غرب الأخدود الأول، كان يتكون

من عشرة فرسان عبروا ذلك الأخدود بالطريقة ذاتها التي عبر بها
الطلاق، ثم تلاهم عشرة فرسان آخرون، ثم عشرة آخرون كان بينهم
حاملو الرایات، فأمعنت النظر في النظارة المُعْظمة، لم تمكّني من رؤية
الوجوه لكنني رأيت راية كبير الضباط واضحة للغاية بين باقي الرایات،
فهمست إلى فاضل:

- إن هدفنا يعبر أول الأخدود الآن.

بعدها توالي عبور مقاتلي الأشراف صفوّوا وراء أخرى، إلى أن
توقف من عبّروا ليجتمعوا صفوّفهم بعد الأخدود الأول، فأحصيت أعداد
صفوّفهم بعيني سريعاً، وقلت غير موجهة حدّيثي إلى أحد ممن معى:

- عبر ما يقرب من ستمائة راكب للخييل، وما زال الباقيون يواصلون
العبور.

ثم تقدمت تلك الصفوف نحو الأخدود الثاني وبالطريقة ذاتها بدأوا
يعبرونه هو الآخر ليتقاهم طلائعهم الذين اعتلى نصفهم التلال المطلة
على الرافد الثاني بينما كان نصفهم الآخر يتحركون جيئة وذهاباً
بخيولهم في المنطقة الوسطى على مسافة مائة متر تقريباً، ثم بدأ من
وصلوا إلى المنطقة الوسطى في تكوين تشكيل حرب مستطيل الشكل،
كان الصف الواحد منه يتكون من مائة فارس تقريباً، واصطف حاملو
الرایات في الصف الثالث بينهم بمجرد عبورهم الأخدود الثاني، قال
فاضل الذي كان يرى اصطافهم بعينه المجردة:

- إنهم منظمون للغاية.

قلت:

- من يعبرون إلى المنطقة الوسطى فقط، أما من يواصلون العبور بين الرافين لايزلون في فوضى عارمة، أعتقد أن الصوف الوسطى والخلفية تتكون من جنود حديثين أجبروا على المجيء إلى هنا رغم قلة خبرتهم.

قال وهو ينظر بعيدا نحوهم:

- هذا جيد لنا.



ظلت أعداد صوف العابرين إلى المنطقة الوسطى تتزايد بشكل تدريجي فيما كان النسليان المكلّفان بدق الطبول يحدقان بي في انتظار إشارتي إليهما لبدء دقاتهما، لكنني واصلت انتظاري ومراقبتي لعبور الأشراف، إلى أن صار العدد أمامي يقترب من الألف وبدأت طلائعهم تتخلّى عن أماكنها أعلى التلال بعد اطمئنانها إلى عبور ثلث قواتهم تقريباً، فقلت لفاضل والشبان بجانبي:

- ها قد حانت اللحظة يا رجال.

ثم نظرت إلى أعلى يسارنا وأشارت للنسليين بيدي اليمني كأنني أحمل عصا طبلة في يدي وأدق بها في الهواء، فاستحالا إلى هيئتهما الزائرة في الحال، وفي خلال لحظات كانت دقات طبولهما تدوّي في الأفق، لتنطلق جماعاتنا الثلاثة من مخابئهم نحو جماعات الأشراف .. كذلك انطلق الشبان المكلّفين بدق الطبول في الأحاديد، لترجّ أصوات طبولهم كافة الأرجاء وتهتاج أحصنة الأشراف وتعظام الفوضى في صوف من لم يعبروا الرافين الأول أو الثاني، أما الصوف المنتظمة في

المنطقة الوسطى أمامنا فكانت أكثر ثباتاً، رد الفعل الوحيد الذي حدث هو اتساع المسافة أمام الصف الثالث قليلاً لتبدأ الرايات في حركتها يميناً ويساراً وكأن كيوان بدأ في تحميس جنوده وحثّهم على الثبات قبل أن يفلت زمامهم.

كانت جماعة النسالى الأولى الراكضة غرب الرافد الأول أول الواثلين لصفوف الأشراف تلتها المجموعة الثانية الراكضة بين الرافدين الأول والثاني، كان ذلك منطقياً مع قرب أماكن اختبائهما من ممر الأشراف على عكس الجماعة الثالثة التي اختبئت بأقرب الجبال الصلدة وواصلت ركضها بمحاذاة التلال مستغلة انعراج الرافد بتلاله نحو الغرب، ليظهروا فجأة على مقربة من صفوف الأشراف ويطلقوا زئيرهم العالي وهم يندفعون نحوهم كالسيل دون مهابة، ليتخلّى الأشراف عن انتظامهم في الحال بعدما اخترق الزائرون عمق صفوفهم بسهولة، وبدأوا يقفزون عن أحصنتهم ضاربين بمخالبهم أعناقهم وأعناق خيولهم، فقللت للثلاثة حاملي أرواح الشامو بجواري وأنا أنظر في النظارة المعظمة وأرى حاملي الرايات يحيطون بثلاثة من الفرسان كانوا يتقدّرون بسرعة إلى الصفوف الخلفية:

- قبل أن يزول أثر المفاجأة، إن هدفاً يرافق حاملي الرايات، لا تنشغلوا بأي شيء آخر سوى القضاء على كيوان وكل من يرافقه من فرسان، سيكون حامل الروح النسلية بينهم.

أومأوا برؤوسهم موافقين، ثم استحالوا إلى هيئتهم الزائرة، وهبطوا على الفور جانب الجبل في وثبات متتالية، ثم رأيتهم يركضون بأحصنتهم تجاه المعركة بسرعة كانت أكبر كثيراً من سرعة الجماعات التي سبقتهم، بعدها نظرت إلى أماكن الاشتباك الثلاثة فوجدت زائرينا

جميعهم لا يزالون على هيئتهم الزائرة وهم يواصلون اقتحام صفوف الأشراف والفتك بهم، فقلت لفاضل في سرور:

- لم يفقد أحد من جماعاتنا هيئته حتى الآن، كانت فكرة الطبول وحشوات الأذن رائعة للغاية.

هز رأسه إيجاباً بابتسامة خفيفة وهو ينظر متربقاً نحو ما يدور على أرض المنطقة الوسطى أمامنا وإلى منذر وأصيل وبجاد وهم يندفعون نحو حاملي الرأييات الذين كانوا يركضون مبعدين نحو المرتفعات المطلة على نقطة التقاء الروايد، وقال:

- يحاول ذلك الشاب اعتلاء جبال النهر الجاف من أجل الابتعاد عن ضجيج دقات الطبول.

فقلت وأنا أنظر إلى الشامو الثلاثة الذين صاروا على قربة ثلاثة متر فقط منهم:

- أتمنى أن ينال منه رجالنا قبل أن نفقد زائراً واحداً.
لكني فوجئت وأنا أحرك نظاري لأرى الاشتباك القائم بالمناطقتين الأخريين بخط دخان يتصاعد نحو السماء فوق قمة أحد الجبال البعيدة غرب منطقة التلال اندفعت معه الدماء إلى وجهي بعدما ثار في داخلي قلق غريب، لأفاجئ بعدها بجموع النسالى الزائرين بين الرافدين الأول والثاني يستعيدون هيئتهم البشرية، فدق قلبي منتفضاً وأنا أقول لفاضل في ذعر:

- إنه لم يعبر إلى المنطقة الوسطى، إنه لا يزال بين الرافدين الأول والثاني.

و قبل أن يقول فاضل أي شيء فوجئنا بقذيفة تسقط من السماء إلى المنطقة الوسطى لتحدث تفجيراً عظيماً تطايرت معه أشلاء جميع من تواجدوا في محيطها، ولم تمر دقيقة حتى سقطت خمسة قذائف أخرى دفعة واحدة في المكان الذي يرکض به حاملو الرایات ومن خلفهم منذر وأصيل وبيجاد لتسحقهم جميعاً سحقاً بعدهما أحدثت أعظم تفجير رأيته في حياتي، فصرخت إلى فاضل وأنا أمسك رأسي في ذهول:

- إنه فخ من كيوان لقتل حاملي أرواح الشامو، لقد مات الشبان

الثلاثة!

بعدها واصلت القذائف سقوطها على المنطقة الوسطى لتقضى على جميع المشتبكين من الجانبين، لأهوي على ركبتي غير مصدقة ما أراه، ثم تمالكت نفسي لحظياً ونظرت إلى المشتبكين في منطقة التلال بين الراfeldin، كان القتال على أشدّه وإن تحول الزائرون إلى بشريين بعدما نجحوا في اقتناص أسلحة قتلاهم في بداية هجومهم، فقلت لفاضل:

- عد إلى الجبال المقدمة الآن، سأحاول الوصول إلى الجماعة الأولى غرب الراfeld كي ينسحبوا قبل أن ينتقل إليهم حامل الروح، إن الرجال يبلون بلاءً حسناً بين الراfeldin، قد يعطينا هذا مزيداً من الوقت لكنهم لن يصدروا كثيراً أمام أعداد الأشراف التي تفوقهم.

كاد يتحدث عن مخاطر ذهابي إلى ساحة المعركة فصرخت فيه:

- هيا يا فاضل، لا يوجد وقت لنضيء.

ثم هبطت الجبل ركضاً إلى حصاني لأحلّ عنانه المربوط في نتوء صخري، وأركض به نحو الراfeld الغربي القريب مني، وهناك وثبت من

فوقه إلى الأرض وهبطت متراجلة إلى قاعِه جارّة له، ثم صعدت ضفته الأخرى، وامتنع متنه من جديد لأركض به بين التلال ناحية الراشد الغربي الأول، أتوسل داخل نفسي إلى النسالى المقاتلين بين الراشدين كي يصمدوا لأطول وقت ممكّن من أجل إنقاذ الجماعة الباقيّة، وأصرخ إلى حصاني كي يسرع وهو يتخطى المرتفعات واحداً وراء الآخر، إلى أن وصلت إلى الراشد الثاني فلم أنظر حتى أعبر إلى الجهة الأخرى وهبطت جارّة حصاني إلى قاعِه ثم ركضت به في أرضه شمّالاً نحو المعركة القائمة.

كان صوت البارود المستمر يقاطع مع صوت زئير النسالى فأدركت أن النسلي الخصم لم يتحرك بعد إلى غرب الراشد الأول، فواصلت ركضي بالسرعة القصوى لحصاني إلى أن لاح أمامي بعض المشابكين يشتكون في الأخدود نفسه، فصعدت بحصاني مباشرةً منحدر رصبة الأخدود دون أن أهبط عن متنه، ثم عبرت التلال إلى أرض الاشتباك، كان النسالى الزائرون قد أسقطوا أغلب جنود الأشراف صرعى وجرحى وحصدوا أسلحتهم وعلقوها على ظهورهم العاريّة، فيما لم أر إلا بضعة تعدد على الأصابع قد لقوا حتفهم من زائرينا، فركضت خلف النسالى المحاربين أصرخ فيهم كي نتراجع إلى التلال ومنها إلى الجبال المقببة، لكنهم لم يستجيبوا لي وواصلوا مطاردة الأشراف، فصرخت إليهم بصوت أعلى كي يتركوا من تبقى من الأشراف ويتبعونني نحو ممرات التلال لكن ذلك لم يُجد معهم، بل وجدتهم يضربون الأعناق بحماس أكبر، فصرخت في نفسي بأنفاس لاهثة بعدما تنبهت إلى الأمر:

- لا يسمعون ما أقوله بسبب حشوات آذانهم، يظنّون أنني أحمسهم على القتال.

إلى أن ظهر فجأة على أحد التلال المطلة على الرافد الشاب ذاته الذي كان يركض في الجانب الآخر من شارع المدينة عندما استحال من معي إلى بشريين، عرفته من اللحظة الأولى، كان يقف بحصانه ينظر إلى المقاتلين من الجانبين دون أن يرتدي خوذة فوق رأسه، وبجواره وقف فارس شاب في مثل عمره كان يحاول تعديل وضعه المائل على سرج حصانه، فصرخت في النسالى في يأس كي يتراجعوا، لكنهم واصلوا زئيرهم وانقضاضهم على الأشراف، ثم وجدت التلال إلى جنبي هذين الشابين قد بدأت تحشد بالفرسان الصاعدين من الرافد الأول والذين تزايدت أعدادهم بسرعة كبيرة ليصطفوا في دقائق على امتداد تلك التلال، فعرفت أن جميع النسالى المقاتلين بين الرافدين قد لقوا حتفهم، فصرخت من جديد في النسالى من حولي كي يتراجعوا للفرار بين التلال، لكنهم لم يسمعني، حاول جندي تصويب سلاحه نحو فأسقطته قتيلاً بطلاقة واحدة من مسدسي، بعدها بدأت سرعة انقضاض النسالى بجانبي تقل كثيراً، وانخفض صوت زئيرهم بشكل ملحوظ، فبدأت أطلق بارود سلاحي في يأس نحو من يحاول الاقتراب منا، وأنا أتراجع مهرولة بظيري، إلى أن استحالت أول جماعة من الزائرين إلى هيئتهم البشرية، سقط منهم أربعة قتلى في الحال بعد قنص رؤوسهم، وركض الباقيون متراجعين وهو يصوّبون أسلحتهم النارية نحو الأشراف ويطلقون نيرانها بصورة عشوائية، ومن بعدها بدأت باقي الأجساد القوية الزائرة تستعيد هيئتها البشرية تباعاً ليسقط من يتم قتله منهم قتيلاً ويهرب من يستطيع تفادي الطلقات النارية أو يستخدم جسد أحد الأشراف الساقطين كدرع له قبل أن يبدأ في استخدام سلاحه.

في تلك اللحظات فقط استوعبوا هدف وجودي بينهم للمرة الأولى، وأسرعوا بإخراج الحشوات القماشية من آذانهم، فصرخت فيهم كي نتراجع إلى التلال، وإن كان داخلي بدأ يدرك وأننا أرى الأشراف يهبطون نحونا من أعلى التلال في ثقة كبيرة أن كل شيء قد انتهى وأنها مسألة وقت لا أكثر حتى وإن استطعنا الفرار لبعض الوقت بين التلال، لكنني لم يكن بيدي حيلة أخرى .. وتراءجت معهم فارين نحو الجنوب بين التلال ليسقط منا من تصبه طلقة نارية في ظهره أو مؤخرة رأسه حتى صار عدد الباقيين معى أقل من مائة نسلي مقابل أكثر من خمسمائة جندي شريف يلاحقوننا بأسلحتهم، ثم اختبأت خلف تلٌ منخفض وحاولت التصويب نحو الجنود المتقدمين إلينا، فأسقطت اثنين منهم قبل أن تنتهي ذخيرة مسدسي، فجذبت بندقيتي المعلقة على ظهرى وأطلقت نيرانها نحو جندي كان يمد رأسه من خلف صخرة كبرى فسقط صریعاً، كذلك كان النسالى بجواري يواصلون إطلاق نيرانهم نحو الأشراف المدرعين المتقدمين نحونا في تشكيل نصف دائري كان يضيق علينا أكثر وأكثر مع كل دقيقة تمر، ثم سقط ثلاثة نسالى بجواري قتلى بعد إصابات مباشرة في رؤوسهم فحملت مسدس أحدهم وحاولتمواصلة الفرار نحو الجنوب، لكنني رأيت شاباً نسلياً لا يبلغ السابعة عشرة من عمره يرقد مسنداً ظهره العاري لصخور تلٌ مجاور، كان وجهه يعتصر بشدة من الألم وهو يمسك بساقه اليمنى التي كانت تتزلف بغزاره، فركضت محنية الظهر نحوه وجلست بجواره مسندة ظهره إلى صخور التل أنا الأخرى، وقلت له:

- لا عليك، ستكون بخير أيها الفتى.

ثم خلعت سترتي المبطنة بالحلقات المعدنية اللينة ووضعتها فوق جرحه النازف وربطت كميهما حول ساقه وعقدتهما بقوة محاولة إيقاف نزيفه، وضع الشاب يده على سترة ساقه وتحسس حلقاتها المعدنية، ثم نظر إلى سترتي القماشية المنزوعة الأكمام التي كنت أرتديها أسفل سترتي الواقية، ونظر في عيني كأنه أدرك أنها لن تستطيع وقايتي من رصاصة واحدة، وكاد ينطق، فربت على ساقه السليمة في ابتسامة، لم أكن أعرف إن كان ذلك استسلاماً مني باقتراب النهاية وعدم جدوى سترتي الواقية على أي حال، أم أنه تفضيل مني للموت عن الاعتقال على أيدي الأشراف، ثم تفحصت حشو مسدسي فوجدت به أربعة طلقات نارية فقط ههزت رأسي أسفًا وأسندتها إلى الصخور، لاستمع بأنفاس محبوسة إلى وقع الأقدام التي كانت تقترب خلف التل تسحق الحصى أسفل أحذيتها الثقيلة، ويواصل أصحابها إطلاق بارودهم ناحيتنا دون توقف، قال الفتى بصوت ضعيف وهو يشير إلى تل قريب:

- عليكِ الهروب سيدتي إلى ذلك التل، سأحاول تعطيلهم.

قلت:

- لن أتركك يا فتى.

قال متواسلًا:

- أرجوكِ سيدتي، لن أنجو بكل حال، عليكِ الهروب.

ربت على يده وقلت:

- سننجو سوياً.

كنت أعرف داخل نفسي أنتي أكذب عليه، لم يكن هناك مجال لهروبى أو لنجاتنا سوياً مع عدم امتلاكي سوى أربعة رصاصات في سلاحى واقتراب جنود الأشراف منا إلى أقل من عشرة خطوات، فقال الفتى:

- كنت في باحة جويدا حين زارت روحى للمرة الأولى من أجل إنقاذه سيدتي، كان انتصاراً عظيمًا ستفخر به أرواحنا إلى الأبد.

ونظر لي وأكملا:

- ليس على الأبطال أن يحققوا الانتصار كل مرة طالما نالوا شرف المحاولة، أليس كذلك؟

هززت رأسي باسمة وقلت:

بلى يا صديقي.

فابتسم وأغمض عينيه وأسند رأسه إلى الصخور، لكنه فتحها مجدداً وحركها إلى في دهشة كبرى عندما سمعنا دقات طبول الشامو تدوي في الأفق من جديد يرافقتها جلبة شديدة من صياح حماسي وصهيل للخيول كانت تأتي من ناحية الشرق، توافت معها الأقدام المحاصرة لنا عن القدم، مثلما توافت أنفاسنا غير مصدقين ما يحدث.

كانت الطبول تواصل دقّها فيما كان الصياح القادم يقترب بسرعة كبرى نحونا، نهضت بجذعي ومددت رأسي في حذر كي أرى ما يحدث، كان جنود الأشراف قد عادوا مسرعين لينظموا صفوفهم أمام التلال المطلة على الرافد الأول وعلى وجوههم ارتسست كافة علامات الترقب والاستغراب، ثم كانت المفاجأة التي اقتلعت قلبي، حشود من النساى البشريين يركضون عابرين تلال الأخدود بتصورهم العارية يحمل بعضهم أسلحة نارية من أسلحة قتل المعركة، ويحمل آخرون أسلحة

بيضاء، سكاكين وخناجر وفؤوس، وأخرون يحملون أقواساً مشدودة الأوتار بسهامها، وأخرون تحمل أياديهم صخوراً صغرى وتحمل ظهورهم أجولة منبعة كأن بادياً أنها تمتلئ بتلك الصخور، يندفعون جميعاً كالسيل الجارف نحو صفوف الأشراف دون ذرة خوف أو تردد بينهم فاضل وريان.

في ظروف أخرى كانت الكلمة العليا ستكون للسلاح الناري في يد الأشراف، لكن مع خمسة آلاف نسليٌ ليس لديهم ما يخسرون، يركض جميعهم دون توقف غير عابئين بمن يتسلط عليهم وتصرخ خناجرهم بصيحاتهم المرعبة من أجل الانتقام فحسب وجد الاضطراب طريقه إلى قلوب الأشراف، وبدأت أرجلهم تتقدّر في ذعر إلى الخلف، وتلعمت أياديهم وهي تُلقم أسلحتهم، لتلتقي رقابهم بارود النسالي وسهامهم، ويتساقطوا واحداً وراء الآخر، قبل أن يصطدم بهم سيل النسالي ليقتلعوهم من الأرض اقتلاعاً، ثم تجتمع النسالى الذين كانوا يفرون معي نحو التلال، وبدأوا في تصويب نيرانهم نحو الفرسان الذين صاروا مشتبين في كل اتجاه يلاحق الواحد منهم العشرات من النسالى حاملي السكاكين والفوؤس، بعدها رأيت الفتى الذي كان يقف مجاوراً للشاب الذي اعتقدت أنه حامل الروح النسلية يمتنع حساناً محاولاً الفرار، فانتبهت حينها إلى الشاب نفسه الذي كان يركب حساناً آخر يبتعد عنه بعض الأمتار ويحثه على الإسراع، لينطلققا فارين، فركضت نحو أقرب الأحصنة لي، حاول أحد جنود الأشراف إصابةي لكنه أخطأني فأطلقت بارودي نحو رأسه فسقط صريراً، ثم نظرت من جديد نحو الشابين فوجدتهما قد اختفيا، فوثبت إلى متن الحasan سريعاً، وركضت به شaculaً حشد النسالى الغفير أمامي للحاق بهما، فوجدتهما قد ابتعدا

عني بمسافة كبيرة وأوشكا على الخروج من ممر التلال، فصرخت في حصاني كي يسرع، ثم ابتسם الحظ لي عندما سقط الفتى الذي يرتدي خوذة حين حاول مغارة السرعة الرهيبة التي يركض بها صديقه وفرّ حصانه متبعداً، فأعطاني ذلك فرصة عظيمة لأقل المسافة بيني وبينهما بعدما اضطر صديقه إلى العودة إليه ليركبه خلفه ويواصل ركضهما، ثم خرجا من ممر التلال إلى الطريق الجبلي الممتد بمحاذاة الجبال المطلة على النهر الجاف، فلكررت حصاني كي يسرع أكثر من ركضه حتى خرجت أنا الأخرى إلى ذلك الطريق، لا أواصل ملاحقتها على مسافة لا تزيد عن خمسين متراً، ثم فكرت في تصويب بارودي نحوهما عندما صار الطريق مستقيماً دون انعطافات، لكنني تذكرت أن سلاحي ليس به سوى ثلاث طلقات نارية فحسب في الوقت الذي لم أعد فيه تلك الramie ذات دقة التصويب الأفضل في مدرسة الضباط، فأثرت أن أنتظر حتى أدنو منها بمسافة أقرب تزيد من ضمان إصابتي لهما، إلا أنني بدأتأشعر أن الحصان الذي أركبه يبطئ من سرعته، فتذكرت يعقوب حين كان يهمس إلى الخيل وجال في ذهني أن يكون ذلك الإبطاء بتأثير من الشاب الذي ألاحقه، وبدأت مخاوفي بفقده تتعاظم بعدما تزايدت المسافة بيننا بعض الشيء، فرفعت سلاحي، وهمست إلى نفسي مشجعة لها:

- لطالما كنتِ الأفضل في چارتين يا غفران.

ثم صوّبت سلاحي نحو قائمة حصانهما الخلفية اليسرى، وضغطت زنادي .. فسقط الحصان في الحال ومن فوقه سقط الفتيان بأجسادهما ليترطما بالأرض بعيداً عنه وخاصة الفتى الأول الذي تدرج بجسمه كثيراً، واصلت تقدمي نحوهما ثم هبطت عن حصاني، كان الفتى صاحب الخوذة قد تقهقر بجسمه خائفاً إلى جانب الطريق ثم نهض وركض في

شق ضيق بين جبليين، تركته ومضيت قدماً نحو الآخر، كان راقداً على ظهره يتآلم بشدة من أثر سقوطه، ويمسح بذراعه الدماء التي سالت على وجهه، واصلت تقدمي نحوه وأنا أمسك مسدسي في يدي، إلى أن وقفت أمامه، رفع حينها رأسه نحوني للمرة الأولى، ونظر في عيني وأنا أرفع سلاحي نحوه في صمتٍ لأصوبيه بين حاجبيه.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٥)

مُفْرَان

كان صدري يعلو ويهبط بأتقاس عميقة متباطئة وأنا أقف على بعد
ثلاث خطوات من ذلك الشاب مُصوّبة سلاحي نحو رأسه من أجل إنهاء
ذلك الأمر، قبل أن يرفع عينه إلى وينظر في عيني مباشرةً، لأشعر أن
جسدي قد جُمد كلياً وسررت فيه رعشة لم أعهد لها منذ زمن بعيد عندما
رأيت في عينه النظرة ذاتها التي نظر لي بها نديم على منصة الباحة قبل
سبعة عشر عاماً والتي لم أستطع نسيانها قط، لأحدق في عينه في ذهول
وابتلع ريقني في توتر بعدهما شعرت لوهلة أن المشهد نفسه يتكرر بحذافيره
من جديد، وأنَّ من يرقد أمامي هو نديم نفسه، وأحسست أنه لو فتح فاه
ونطق، لصرخ في متواصلاً بصوت نديم:

- لن أفعلها مجدداً، أعطني فرصة واحدة فحسب، أقسم لكِ بأنني
سأحافظ على وعدي.

لتتسارع دقات قلبي وتتدفع الدماء إلى وجهي ويومض في عقلي كل
ذلك العناء الذي عانيته بعد قتلي لنديم، قبل أن يثب في رأسي فجأة
مشهد يعقوب وهو يموت بين يدي، ومشهد النسالى الزائرين وهم يتحولون
إلى هيئتهم البشرية ليحصدتهم بارود الأشراف، ومشهد القذائف وهي

تساقط فوق حاملي أرواح الشام وقتلتهم في الحال؛ ليصرخ صوت قوي في داخلي بأن أضغط الزناد وأنهي ذلك الأمر، نظرت في عينه من جديد، كان يواصل تحديقه في دون أن ينطق بينما يسيل خطر من الدماء على جبهته، حاولت أن أضغط الزناد، لكنني لم أستطع، ووجدت عيني تمتلئ بدموعها لتساقط على وجنتي وأنا أنظر في عينه، بعدها هبطت يدي بالمسدس إلى جانبي، نظر نحو وشم كتفي ونظر في عيني من جديد، ثم نهض في هدوء عن رقدته، واستدار بجسده وبدأ يركض مبتعداً عنِّي، لأقف مكانِي أنظر إليه دون أن أحرك ساكناً حتى صار على بعد مائة متر مني فاستحال إلى هيئته الراثرة وأطلق زعيماً عالياً، قبل أن يتبع ركضه الواثب بتلك الهيئة حتى اختفى عنِّي أنظاري، فجلست مقرفة على ركبتيْ يهتز جسدي اضطراباً، ودسىت وجهي في كفٍ لأواصل نشيجي بقوهٍ لم تحدث لي منذ تلك الأيام التي تلت قتلي لنديم.

بعد قليل من الوقت وصل فاضل بمفرده، هبط عن حصانه وأسرع إلى حين وجدني أجلس على الأرض في تلك الحالة المضطربة على بعد أمتار من الحصان الجريح الذي كان يحمل الشابين فيما كان حصاني يقف يرعى على جانب الطريق، وسألني في ترقب عندما وجد عيني محمرتين من أثر البكاء:

- ماذا حدث؟

قلت:

- إنه آدم.

وتابعت بعد لحظة حاولت فيها تماليك نفسي ولكنني لم أستطع:

- كان باستطاعتي قتله، لكنني لم أقوى على فعلها.

وبدأت في نشيжи من جديد، ضم رأسي إلى صدره، فواصلت بكائي،
إلى أن هدأت بعض الشيء فقال:

- لنعد إلى النسالي، لقد قضوا على ما تبقى من جنود الأشراف.
هززت رأسي إيجاباً، ثم امتنع حصاني وتحركت به على مهل خلف
حصانه، أفكرا فيما حدث منذ شروق شمس ذلك اليوم ومقتل أكثر من
تسعين في المائة من زائرينا بينهم حاملو الشام و حتى ما حدث في نهايته
وعدم قتلي لمن تسبب لنا في كل هذه الخسارة عندما كنت قادرة على ذلك
مضيّعة دماء من قتلوا هباءً، لأكون صريحة إلى نفسي هذه المرة بيقين لا
شك فيه، أنتي لا أصلح لقيادة النسالي، وأن وجودي بينهم لم يسبب لهم
إلا مزيداً من الدماء والدمار بعد عيشة كانوا يألفونها، وفكرت أن أوقف
حصاني وأستدير به لأرکض إلى مكان آخر بعيداً عنهم، لكن فاضل أبطأ
من سرعة حصانه حتى صار بجواري وأمسك بيدي كأنه أدرك ما أفكر
فيه، نظرت إليه بعين دامعة، وهززت رأسي آسفة، فقال:

- سيصبح كل شيء على ما يرام.

ثم وصلنا إلى منطقة الرواقد، كان عدد صغير من النسالي ينتشر بين
التلال التي شهدت المعركة، قال فاضل:

- لقد كلفنا بعضهم بالبحث عن أي أسلحة أو ذخيرة.
 وأشار نحو نسلٍ يحمل درعاً وخوذة وقال:

- وكلفنا آخرين بتجريد جثث الأشراف من دروعهم وخوذاتهم
وإحضارها إلينا.

هززت رأسي إيجاباً دون أن أقول شيئاً، وواصلت طريقي معه عابرة
الرافدين حتى وصلنا إلى المنطقة الوسطى التي تناثرت في أرضها الحُفر

من أثر القذائف، فأغمضت عيني كي لا أرى الأشلاء المحترقة، ثم انطلقتنا إلى الجبال المقببة، وهناك تلقاني كثير من النسالى بأعين متربعة لا أعلم إن كانوا يتساءلون إن كنت قد قتلت حامل الروح أم لا، لم أكن أحتاج إلى أن أجيبهم، كانت الملامح المنطبعة على وجهي المنكس إلى الأرض كفيلة بإخبارهم أنتي خذلتهم كالعادة، وأكملت طريقي إلى خيمتي في صمت شديد تعصف برأسى كافة الأفكار والمشاهد في آن واحد، القذائف وهي تسقط فوق حاملي أرواح الشامو لتقتلهم في الحال، النسالى الزائرون وهم يتسلطون بجواري واحداً وراء الآخر بعدما استحالوا إلى هيئتهم البشرية، آدم وهو ينظر في عيني دون أن يقول شيئاً، آدم وهو يستحليل إلى هيئته الزائرة بعدما ابتعد عنى، نديم وهو يتسلل إلى قبل ذبحي له، النسالى الزائرون وهم ينقدوني من الإعدام في باحة جويداً، آدم من جديد، ثم بدأت التساؤلات والخيالات الوهمية تتفاوز صارخة في ذهني المشوش، لماذا لم ينطق إلى بشيء؟ لماذا لم يستحل إلى هيئته الزائرة قبل أن أهاجمه وأصبح على وشك قتله طالما استطاع فعل ذلك بعدما تركته يمضي؟ لماذا استسلم لي إلى هذا الحد؟ لماذا فعل كل هذا بنا؟! لماذا خانبني جنسه؟! ثم صرخت إلى نفسي بصوت عالٍ:

- لماذا لم تقتلني؟! لقد مات نديم منذ سنوات، لماذا تحكمت بك المشاعر من جديد؟! لماذا أضعت حق من ماتوا هباءً أيتها البائسة؟!

قبل أن أنهار وأواصل بكائي من جديد، دلف إلى ريان عندما بدا أن بتول أسرعت بإخباره بما يحدث لي، وحاول تهدئتي، فقلت باكية:

- لم أكن أهلاً قط لهذه المسئولية، لم أكن أهلاً لها قط.

قال:

- إنها مسؤوليتنا جمِيعاً سيدتي، لقد كنت من اقترح هذه الخطة منذ البداية، ووافقتنا عليها جمِيعاً، ووافق عليها ثلاثة الشاموا رغم علمهم بخطورة مواجهتنا للأشراف وبينهم حامل الروح النسلية. لكن لم يكن بيدنا شيء آخر، ولم نكن لننتظر في جبالنا حتى يتقدم إلينا الأشراف ليحصلونا بداخلها.

وَسَكَتْ قَلِيلًا ثُمَّ تَابَعَ:

- حين عاد إلينا الطبيب يخبرنا بما حدث في المعركة، توقعت أن يلملم الجميع أغراضهم من أجل الهروب سريعاً، لكنني وجدتهم ينظرون إلى بعضهم البعض ويقررون في لحظة الاندفاع إلى ميدان المعركة من أنفسهم لإنقاذك وإنقاذ من تبقوا من الزائرين.

ربما فقدنا قوة الزائرين اليوم لكننا ربحنا آلاف المقاتلين الشجعان بينهم على الأقل ألفاً مسلح ومدرع، لن يكونوا صيداً سهلاً أبداً لكيوان في معركتنا القادمة.

ثم أردد حين وجدني أنظر إلى الأرض في شroud كبير:

- لم تقتلني النسلي! لم يعد لقتله معنى، لقد كان الهدف من قتلته حماية الزائرين منه، والآن صار عدد ما لدينا من الزائرين أربعين فقط لا يقوون على استرجاع أرواحهم الزائرة، لن يفيد مقتله في شيء، دعيه لكيوان سيقتله هو بعدما يعرف أنه أنجز مهمته، لا تحملني نفسك أكثر من طاقتها سيدتي، إنني أكثر من يعرف هنا عن معاناتك بعد موت سيدتي، وأدرك ما شعرت به حين كان بمقدورك قتل الفتى، إننا بشر في النهاية سيدتي وأنت نقية القلب وجميعنا يعرف هذا، وكل واحد هنا يعرف ما عانيته في كل

دقيقة من السبعة عشر عاماً التي قضيتها بیننا ومن ينكر ذلك
سأشق رأسه نصفين، لست أنت من ينكس رأسه سيدتي.
وهذا من نبرة صوته وقال:

- لقد كانت رحلة طويلة بدأناها معاً وسنكملاها معاً حتى النهاية، كان
شرف لي أن أكون برفقتك طوالها وشرف لأي فرد هنا، ولحسن
حظنا أن نهاية هذه الرحلة ستكون مريحة لنا في الحالتين؛ إما
أن يقتلنا كيوان ونرتاح أخيراً من ذلك الشقاء، وإما أن ننتصر
ونزيل القواعد التي سببت لنا كل تلك المتاعب، لا نفكّر في نهاية
ثالثة سيدتي، لست من أقول ذلك، بل من يقفون في الخارج، لقد
عرف النسالي أن حقهم لن ينالوه إلا بأنفسهم، ليس بالنسالي
الزائرين، وأدركوا أنهم لا يملكون خياراً آخر سوى أن يحاربوا من
أجله حتى آخر نفس فيهم، عليك أن ترتاحي سيدتي وتطرحـي
همومك جانباً، إن لدينا الكثير من العمل في الأيام القادمة، لا بد
وأن كيوان قد علم بما حدث ويجهّز جيشه الأكبر للتقدم إلينا وهو
مطمئن القلب بأنه لن يجد زائرين، علينا أن نثبت له أننا لن تكونـ
لقطة سائفة أبداً.

ونهض كي يغادر، لكنه وقف قبل أن يخرج وقال باسمـاً:

- آه، هناك فتى مصاب بالخارج يحكي لشبان النسالي ما فعلتهـ
معه في أرض المعركة وكيف أوقفت نزيف ساقه، لا يترازل قادةـ
كثيرون عن سترهم الواقية من أجل رجالهم، والرجال يقدّرونـ
ذلك كثيراً.

ثم قبِل رأسي، وغادر، بعدها دلف إلى فاضل الذي بدا وأنه كان ينتظر في الخارج وأثر ألا يقطع حديث ريان معي، وأعطاني شرابة عшибاً قال بأنه وجد أعشابه أثناء ترحالنا في ممرات الجبال، حين تناولته لم يأخذ الأمر مني دقائق حتى غبت في سبات عميق.



في اليوم التالي اتخذت قراري بابتعادي عن قيادة النسالي وأبلغت ريان وفاضل بذلك، حاولا أن يثناني عن الأمر لكنني كنت قد فكرت ملياً في الأمر قبل مجئهما إلى واتخذت قراري باقتناع تام، حاول آخرون من النسالي التحدث إليّ عندما عرفوا بالأمر لكنني أصررت على موقفني وأخبرتهم أن الوقت قد حان لاختيار قائد جديد من بينهم ليقودنا في الأيام القادمة، وأعلنت لهم بأنني سأكمل تدريبي للشبان على الرماية مثلما فعلت سابقاً مع النسالي الزائرين فأعلنوا احترامهم لقراري، قال لي ريان بعد ذلك بأنهم اختاروه مؤقتاً ليكون قائداً لهم بعد ظهور بعض الخلافات على من يصلح لقيادتهم وكاد الأمر يتتطور إلى شقاق بين أهالي الوديان لولا تدخل الطبيب في هذا الأمر، الغريب في الأمر أن مدافعاً كيوان لم تتصفنا خلال تلك الأيام، لا أعلم هل أدرك أن جبالنا ستتصمد إلى أبد الدهر ضد قذائفه وأنه يهدى ذخائره هباءً فوق صخورها أم كان يحضر لشيء آخر نجهله، غير أن ريان ألزم الجميع باتخاذ أماكنهم داخل الجبال وعدم الخروج إلى ممراتها إلا للضرورة القصوى تحسباً لأي قصف مفاجئ، أخبربني فاضل أن محاولات الأربعين المتبقين من النسالي الزائرين لاستعادة أرواحهم الزائرة باءت جميعها بالفشل وكان أرواحهم أخمدت للأبد، ليكون آخر زئير شهادته جبالنا هو

زئير النسالى صباح يوم معركة الرواfeld، لتنتهي بذلك حقبة النسالى الزائرين التي لم تدم سوى أربعين يوماً دون أن نحسن استغلالها.

أدركت خلال اليوم الأول من تدريبي للنسالى على التصويب أن ريان وفاضل لم يخبرا أحداً بشأن إفلاتي لأدم حياً كي لا تهتز صورتي في أعين النسالى، فشكرتهما كثيراً على ذلك وأنا في طريقني لأوي إلى كوخى حيث غضت من جديد بين أفكارى وخياتى محاولة افتراض أي تفسير يفسّر لي عدم قيام أدم بمحاجمتى بصورته الزائرة، لكنى لم أصل إلى شيء، ولم أجِن من هذه الخيالات إلا مزيداً من الإرهاق الذهنى، ذهبت إلى الجبل المنقوش به رسومات السفن وقضيت ساعات أحابيل هناك طلاسم النقوش أسفلها لكنى لم أستطع، فعدت إلى كوخى خائبة الرجاء لأنّه غوص بين خياتى من جديد، لتمضي تلك الأيام واحداً وراء الآخر في أسوأ اضطراب نفسي حدث لي منذ سبعة عشر عاماً، إلى أن جاء صباح اليوم الثامن بعد معركة الرواfeld وكانت في جبل المقاتلين أدرّب النسالى على الرماية حتى تناهى إلى مسامعنا فجأة صوت زئير قادم نحو جبالنا، نظرت في تعجب إلى فاضل وريان اللذين كانا يقفن بجواري، ثم نظرت إلى الشبان الأربعين حاملي أرواح الضواري الخامدة والذين كانوا يصطفون بين المتدربين فوجدهم لا يزالون على هيئتهم البشرية، ينظرون إلى بعضهم البعض في استغراب شديد .. قبل أن يحمل ريان سلاحه الناري ومعه فاضل وبضعة رجال، ويخرجوا إلى الخارج في حذر، اضطرب داخلي والزئير يتقدم نحونا أكثر فأكثر، وتساءلت بيّنى وبين نفسي إن كان أدم قد عاد إلينا، لأنّه بعدهم في ترقب وحدر يدق قلبي في اضطراب شديد، إلى أن لاح أمامنا صاحب ذلك الزئير، لم يكن أدم كما خيّل لي عقلي، كان آخرًا نسيناه تماماً، بكير، ذلك النسلى الزائر

الذى تركناه عند كهف الجداريات من أجل مراقبة صاحب وعاء الطعام، وأفلت من إخمام روحه في معركة الرواقد، تقدم إلينا متراجلاً حتى وقف أمامنا، فاستحال إلى هيئته البشرية وقال:

- لقد وجدت صاحب الوعاء سيدتي.

قلت:

- من هو؟

نظر خلفه نحو حسان كان يتقدم تجاهنا ببطء في الممر الرئيسي بين الجبال المقربة، شعرت حين أبصرته أن كل حواسٍ قد جُمدت تماماً عندما وجدت ذلك الحسان يحمل على صهوته سبيل ومن أمامها طفلها الشريف حيدر صاحب الستة أعوام.



لوهله شعرت أنتي لا أصدق عيني، طفل سبيل لا يزال على قيد
الحياة!!

وأصل الحصان تقدمه نحونا حتى صار على بعد بضعة خطوات منا،
فأوقفته سبيل ثم ترجلتْ بعدما ناولت طفلها إلى بكير الذي أنزله إلى
الأرض برفق، نظرتُ إلى ريان وفاضل لعل أحدهما يخبرني بأن هذا
الطفل الهزيل الذي يقف أمامي بثيابه البالية والحبيل الذي يرتديه في
رقبته كعقد ليس إلا خيالاً من الخيالات التي أصابتني في الأيام الماضية،
لكن ريان تقدم إلى سبيل وقال في دهشة وهو ينظر إلى الطفل:

- ألم تذبحي طفلك؟!

هرّت رأسها نافية، وقالت بنبرة خائفة مرتبكة وهي تنظر إلى النسالي
المحتشدين خلفنا:

- لم أقوَ على فعلها.

لينظر الجميع نحوها ونحو طفلها وعلى وجوههم السؤال ذاته الذي
نطق به ريان إليها:

- إذن، كيف ثارت أرواح النسالي الزائرين؟!

قالت:

- لا أعرف.

نظر لها ريان حائراً، ثم التفت ونظر إلى فاضل وإلى النسالي الذين بدأوا يهمهمون إلى حد الضجيج، ثم أمر إحدى الفتيات بنبرة قيادية بأن تصحب سبيل وطفلها إلى باحة جبنا كي ينالا راحتهم، فأوْمأت الفتاة في طاعة، ثم تحرك إلينا وقال بعدما أمر الباقيين بالعودة إلى تدريياتهم:

- إذن كل ما ظنناه خلال الفترة الماضية كان اعتقاداً خاطئاً تماماً منا.

قال فاضل الذي كان ينظر إلى سبيل وطفلها وهما يبتعدان وراء الفتاة:

- هذا لا يترك لنا إلا تفسيراً واحداً، أن هناك من استدعاي الأرواح الزائرة من أجلنا.

ونظر لي. كان ذلك التكير قد خطر إلى ذهني في الحال بمجرد أن رأيت سبيل وطفلها، فقلت:

- هل يكون هو من فعلها؟!

قال فاضل:

- قال خشيب غير مؤكد أن حاملي أرواح الشامو قد يكون لديهم القدرة على ذلك، ولكن بعد معايشتي ليعقوب ومنذر وأصيل وبيجاد فكرت في أنه أساء فهم النقوش، كان للشبان قدرات أقوى من غيرهم حقاً لكن أن يستدعوا أرواحاً خامدة لتشروا، لا أظن أنهم كانوا يستطيعون ذلك، وإنما كان يعقوب استطاع منع الزائرين من الانصياع للأدم يوم هجومكم الأول.

وسكت لبرهة وأكمل:

- بعدهما رأينا قدرة آدم على إخماد كل أرواح النسالى يوم معركة الرواقد، أعتقد أنه الوحيد الذي كان بمقدوره استدعاء أرواحهم.

هززت رأسى إيجاباً وقلت:

- جال في بالي هذا الأمر في الأيام الماضية بعدهما لم يهاجمنى رغم قدرته على التحول إلى نسلى زائر.

قال ريان:

- إن كان قد استدعاهم من أجل إنقاذه أو إنقاذنا يوم الغفران قبل الماضي مما أراد كيوان فعله، فلماذا يساعد الأشراف؟ لماذا أصر على قتل جميع النسالى الزائرين؟ لماذا لم ينضم إلينا إن كان يعرفك حقاً؟

وأخرج زفيره وقال:

- صار الأمر معقداً أكثر مما كنت أعتقد.

لم أكن أمتلك أي إجابة أجيبه بها، كذلك فاضل، فقلت لريان:

- احرص على حماية طفل الفتاة، قد يفكر البعض في إيذائه، قال خشيب أن قوى الزائرين حتى وإن استدعاهما حامل روح الشامو لن تكتمل قواها إلا إن ذبح الطفل على صخور حوران، وأعتقد أن هذا الكلام قد تناقل كثيراً بين النسالى بعد ثورة الأرواح الزائرة، ربما يفكر البعض الآن في إيذاء الطفل كي يستعيد الأربعون الذين خمدت أرواحهم قدراتهم، أو من أجل استدعاء المائتين المفقودين منذ ثورة تلك الأرواح.

قال:

- سأحرص على ذلك سيدتي.

قال فاضل:

- يبدو أن الأيام القادمة ستتحمل لنا مزيداً من المفاجآت.

قلت:

- أتمنى أن تكون مفاجآت سارة، وإن أصبحت أخشنَّ أن أجزم بشيءٍ من كثرة ما صار يحدث لنا.

وتاتبعت:

- سأذهب إلى الفتاة بعد أن تناول راحتها، لا بد أنها في حاجة إلى من يطمئنها أن فتاتها سيكون بخير هنا، كذلك نحن في حاجة إلى أن نعرف تفصيلاً ما حدث لها خلال الفترة الماضية.

في المساء دلفت إلى سبيل في الكوخ الذي خصصه لها ريان، نظرت نحو متربقة ما سأنطق به، فجلست وسألتها دون مقدمات:

- لماذا لم تعودي إلينا منذ دمرت ودياننا يا سبييل؟

قالت:

- هربت بطفلِي منذ حصلنا على رأس التمثال سوياً، وعشت على مقربة من الوادي الذي كنت قد انتقلت إليه بعد إعدام حيدر زوجي، قبل أن أغادره حين اشتد الخناق من جنود كيوان على كافة الوديان بحثاً عنِّي، كنت أئوي حقاً ذبح طفلي من أجل استدعاء أرواح الزائرين، وأبلغت ريان بذلك حين لاقاني وأخبرني عن خطلة الطبيب الذي أعدّها قبل رحيله عن وادي النسالى، لكنني

حين صرت أمام ذلك الأمر لم أستطع فعلها، بعدها عرفت ما حدث يوم الغفران في الباحة ورأيت بعيني نسلياً تثور روحه أمامي ويركض بعيداً عنِّي، فأدركت أن النسل الذي يحمل روح حبيبك قد فعلها واستدعى أرواحهم من أجلك، فكرت أن أعود إليك لكن جال في ذهني كلمة العجوز خشيب بأن قوى النسالى لن تكتمل إلا بذبح حيدر فخشيت أن أعود خوفاً عليه من النسالى الزائرين أنفسهم، وأثرت أن أكمل ترحالي وحيدة أنتقل من وادٍ إلى آخر أحصل على طعامي من بقايا الطعام في الوديان المهجورة البعيدة.

ونظرت إلى الأرض وقالت في خزي:

- كذلك تخلصت من رأس التمثال كي لا يفكر أحد في إيذاء طفلٍ.

ثم نظرت إلى من جديد، وتابتَّ:

- إلى أن استقر بي الحال في كهف الجداريات، كنت على مقربة منه حين بدأ قصف الجنوب المفاجئ فلجمأت إليه للمرة الأولى ومعي طفلٍ كي نتحمّي في داخله من ذلك القصف، وبقيت فيه لبعض الأيام معتمدة على ما لدى من طعام، ثم فكرت في أن أجعله مأوي لنا بعد ظنني بأنكم قد ابتعدم جنوباً هروباً من قذائف كيوان، وكذلك استبعادي لاحتمالية تواجد جنود كيوان على مقربة منه مع استمرار ذلك القصف لأمكث فيه طوال تلك الأيام، لم أكن أغادره إلا من أجل البحث عن طعام قبل أن أعود إليه من جديد.

لا أعلم إن كان من حسن حظي أم سوئه أنني غادرت الكهف قبل مجيئكم إليه، لكنني عدت إليه وصعدت الجبل مباشرة دون أن أعلم أن بكيور كان ينتظر قدومي بأسفله، وأن المصادفة شاءت ألا

أراه أو يراني وأنا أصعد إلى الكهف بعدهما كان يتجلّل للصيد في الجوار في الوقت الذي وصلت فيه إلى سفح الجبل، لأقضي أيامي في الكهف دون أن أعلم بوجوده، حتى خرجت من جديد بالامس ففوجئت به يركض نحوه وأنا أهبط الجبل بطيئاً ويسك بي ليحضرني إلى هنا، وفي الطريق أخبرني بما حدث منذ ثورة أرواح النساى الزائرين حتى مجيئك إلى الكهف مع الطبيب فاضل الذي اندھشت بعودته، وحامل روح الشامو «منذر».

كنت أعرف أني سأعود إليكم يوماً ما سيدتي، لكنني كنت خائفة، كانت نيتها طيبة أقسم لك، انتظرت فقط أن تتحققوا نصركم الكامل وتتسوا أمر طفلني كي أستطيع العودة بعدها بقلب مطمئن.

قلت لها في حزن:

- لقد عدنا إلى نقطة الصفر يا سبيل، لم يعد لدينا من الزائرين سوى بكير الذي عاد بكِ.

قالت في استغراق شديد:

- والباقيون؟! والنسل الذي استدعاهم؟

قلت:

- حدثت أمور كثيرة لا نستطيع فهمها، قام حامل روح قائد الزائرين بإخماد أرواحهم، وقتلوا جميعاً باستثناء أربعين منهم على أثر ذلك، والآن بعد عودتك مع طفلك نظن بصورة كبيرة أنه هو نفسه من استدعاهم، ذهبنا إلى الكهف من أجل أن نفهم ما يحدث لعل العجوز أخفى عنا شيئاً وهو يخبرنا عن نقوش الجدران هناك، لكننا لم نستطع فك رموز الجارتينية القديمة.

قالت وهي تحاول التذكرة:

- لا أذكر أن نقوش جدران الكهف قد ذكرت في أي جزء منها شيئاً عن إخماد أرواح الزائرين بعد ثورتهم.

هزّت رأسِي إيجاباً دون تركيز كبير مع حديثها، فأردفت:

- كانت قراءة تلك النقوش هي تسلية الوحيدة خلال الأيام التي قضيتها في الكهف.

حينها نظرت إليها متعجبة وسألتها:

- هل تستطيعين قراءة رموز الچارتينية القديمة؟

قالت:

- نعم، تعلمت قراءة الكثير منها بالفعل، حين خدمت في بيت أخيكِ كان لديكم مكتبة عظيمة تحوي مئات الكتب عشرت بينها ذات يوم على كتاب يعلم قراءتها، فاستغللت الوقت الذي لم يكن به سيدي زين في البيت وبدأت أقرأ في ذلك الكتاب مراراً وتكراراً بعدهما تذكرة حديث العجوز عن السنوات الكثيرة التي قضاهما في فك رموز الكهف، وحين ولجت إلى الكهف مرة أخرى بدأت أطبق ما تعلمته من ذلك الكتاب، كان الأمر مثيراً، وووجدت الكلمات تتضح أمامي كلمة وراء أخرى. أظن أنتي قرأت جميع النقوش هناك وأستطيع أن أجيبك عن أي استفسار لكِ، لكنني متأكدة أن شيئاً لم يُذكر هناك عن إخماد أرواح النساء والزائرين.

قلت لها على الفور:

- انهضي لتأتي معي.

قالت مدهشة:

- إلى أين؟!

قلت في عجلة:

- هناك نقوش أريدك أن تقرأها لي.

وناديت بتو لكي تعتنى بحيدر حتى عودتنا، وقلت لسبيل حين نظرت إليها في قلق:

- لا تقلقى سيكون بخير.

ثم حملت شعلة، وتقدمت خارجة معها من جبلنا المقرب نحو الجبل الذي عثرنا فيه على رسومات السفن، ودلفنا إلى باحته، وتقمنا مباشرةً إلى جدرانه الداخلية، ثم قربت شعلتي من النقوش وسألتها:

- هل تستطيعين فك الغاز هذه النقوش الچارتينية القديمة؟
اقربت سبيل من النقوش وبدأت تحرك شفتيها بهمسات لا أسمعها، حتى نطقت:

- أعتقد أنتي تستطيع قراءتها.

وبدأت تقرأ بصورة متقطعة:

- خلق .. النسالى الزائرون .. كي يحموا .. بني جنسهم .. من البشر .. لذا لن يتوانوا .. عن تقديم .. أرواحهم .. فداء .. في سبيل .. بقاء النسالى .. حين يتم .. سيد الزائرين .. عهد السفن ..

ثم أعادت قراءة الجملة كاملة دون تقطيع:

- خلق النسالى الزائرون كي يحموا بني جنسهم من البشر؛ لذا لن يتوانوا عن تقديم أرواحهم فداءً في سبيلبقاء النسالى حين يتم سيد الزائرين عهد السفن.

فظهرتُ إليها في دهشة كبرى عندما انتهت من القراءة، وحدثتْ نفسي بصوت عالٍ في حيرة شديدة:

- عهد السفن؟!، أي عهد هذا؟!

~~~~~

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٦)

برি�حا:

### قبل ثورة أرواح الزائرين ببضعة أيام:

غادرت السيدة سيرين مع اختها إلى جويدا من أجل لقاء والدهما الذي أصر على لقائهما قبل إعلان الفارس كيوان العفو عنه، وقررت إلا تصطحب آدم معها حتى وإن تخلّت عن إعطائه الأعشاب المنومة خشية أن يرى الرامية التي بدأت تظهر في أحلامه بوضوح بعد قدوم الأخبار عن محاكمتها على منصة الباحة يوم الغفران التالي.

لم تكن تعلم أن أحلام آدم قد شهدت تطوراً غير مسبوق في خلال الأيام التي ظلت فيها أنه يتناول أعشابها دون أن يخبرها بذلك.. بعدما رأها خلسة وهي تخلط تلك الأعشاب في شرابه وأخذ حفنة منها وذهب بها إلى طبيب برليغا، فأخبره أن السيدة من ابتعاتها منه كي تتجنب أرقها اليومي، لم يغضبه ذلك منها، وأدرك أنها فعلت ذلك حباً له، لكنه منذ أن رأى ملامح وجه قاتلته يظهر في حلمه بهذا الوضوح ووجد داخله مفعماً بالفضول لرؤيه المزيد من التفاصيل، رأها في يوم آخر طفلة يحملها أبوها فوق كتفيه، ظلت تختلس النظرات إليه في مكر وهو يتثبت فوق عمود في الباحة يراقب ما يحدث على منصتها، ليفتح عينه وهو راقد على سريره بعدما تذكر أنه صعد إلى ذلك القائم في المرة الوحيدة

التي ذهب فيها إلى الباحة قبل التقائه النسلية التي سلمته إلى خالتة سيرين، ثم أغمض عينه من جديد ليرى في الليلة ذاتها مناماً كان ينتقل فيه بين المحتشدين في الباحة، وفي داخله شوق كبير كي يرى شخصاً ما، قبل أن يسمع صوتها الواضح يناديها من وراء العشرات من الواقفين، «نديم»، كان هذا الاسم الذي نادته به، وجد نفسه يلتفت نحو الاتجاه الذي أتى منه ذلك النداء، ليرى وجهها. لم تكن بالملامح ذاتها التي رأها عليها وهي تقتله، كانت أصغر سنًا، ربما في مثل عمره الآن، أو أقل قليلاً.

مرة أخرى رأى نفسه في الباحة أيضاً وهو يتحرك بين الواقفين كي يلاقيها، لم يكن تنقله هذه المرة سهلاً أبداً بعدها تعمّد الجميع الوقوف في طريقه، إلا أنه واصل تقدمه بين أولئك المتعنتين بعدما ظهرت على الجانب الآخر منهم، قبل أن توقفه لكتمة قوية على صدره أسقطته أرضاً، حاول النهوض من جديد لكنه تلقى ركلة قوية في بطنه، نهض كي يرى من يضربه بهذا العنف دون سبب، كان فارساً غليظ الوجه أراد أن يضربه من جديد لو لا أن الفتاة أمسكت بيده بقعة ليستحيل المكان من حوله لحظتها إلى مرج مزهر يطل على نهر جارٍ ظلاً يسيران وسط زهوره وحشائشه حتى توقفا على ضفة ذلك النهر الذي فاضت ماؤه لتلامس أقدامهما، نظر إلى صورتهما المنعكسة في مياه النهر فوجد وشم النسالي منطبعاً على جانب صدره الأيسر فيما تحولت ثياب الفتاة إلى ثوب عسكري يحمل شعار رامي المنصة، نظر إلى صدره نفسه في ذهول فوجد الوشم منقوشاً عليه بالفعل، فالتفت إلى الفتاة متربقاً رد فعلها، فابتسمت مطمئنة له، وقالت:

- لا عليك، سنجد كثيراً من الصعاب في طريقنا.

فتح عينيه لحظتها متعجبًا وهمس إلى نفسه في ريب عندما شعر أن شيئاً معلقاً في ذاكرته يشبه ذلك تماماً:

- لقد حدث لي هذا الأمر من قبل.

ونهض من سريره عاري الصدر، وأشعل مصباح الغرفة الناري، ونظر في المرأة إلى صدره في توجس، لم يجد شيئاً، لكنه ما إن نظر في عين صورته بالمرأة وتعقق فيها حتى تسارعت دقات قلبه بعدها شعر للمرة الأولى أنه ينظر في عين شخص آخر.

ذهب إلى ورشة الحداده في صباح اليوم التالي لا يشغل باله سوى ذلك الحلم، سأله السيد عبود على حين غرة إن كان يعرف شيئاً عن الramia المقرر إعدامها بعد أيام، أجابه الرجل نافياً في غير اكتراث، ثم اقتربت السيدة سيرين منها فلاذ بصمتها قبل أن يبدل مجرى الحديث سريعاً، بعدها أخبرهما كاذباً بأنه ذاهب إلى عجوز كان قد قابله وأراد منه إصلاح عربته في منزله لعدم قدرته على المجيء إلى الورشة، وحمل أدواته وغادرهما، ليذهب مباشرة إلى الرجل الذي كان يحمل رسالة خالته سيرين إلى زهير في جويدا وحدثهما عن محاكمة الramia على المنصة يوم الغفران القادم، «السيد مصباح»، ذكره بنفسه أولاً ثم قال:

- أعلم أنك تتردد على جويدا كثيراً منذ سنوات طويلة سيدي، أريد أن أعرف قصة الramia المعتقلة.

قال الرجل:

- إن الجميع في جويدا يعرف قصتها، كانت رامية المنصة قبل سبعة عشر عاماً تقريباً، ثم أعدمت نسلياً كانت أعلنت للجميع أنها ستتزوجه بعدهما ارتكب جرمًا وأقر القاضي بإعدامه، ثم

انضمت للنسالي أنفسهم بعدها مباشرةً، وأصدر القاضي نفسه حكماً بإزالة صفة الأشراف عنها بعد تورطها في سرقة مدرسة في جويدا. هذا كل ما أعرفه.

تذكر اسم نديم الذي نادته به في حلمه، فسألته على الفور:

- هل تتذكر اسم حبيبها الذي أعدمه؟

قال الرجل:

- لا، لم نعتد أن نعرف النسالي بأسمائهم.

زم شفتيه، ثم سأله من جديد:

- ولماذا لم تكمل حياتها مع الأشراف؟

قال الرجل:

- لا أعرف، إن في رأس كل فرد منا شيطاناً يوسوس له ليضل الطرق الصحيحة، وكان شيطان هذه المرأة عظيمًا.

وصمت لهنيهة، ثم أضاف:

- لكن القلق المنتشر في جويدا خوفاً من رد فعل النسالي على قتلها كان يعيق في كل مكان هناك، لأول مرة أرى مدافع بهذا الشكل تتحرك نحو ديان النسالي، يبدو أن الأمر جديًّا هذه المرة.

فقال آدم:

- إن أردت أن أعرف أكثر عن هذا الأمر، كيف أستطيع ذلك؟

قال الرجل:

- عليك بالذهاب إلى جويدا إذن، إن قصتها هناك يعرفها كل كبير وصغير.

قال آدم في حسرة:

- لا أستطيع، لن يسمح لي السيد عبود بترك الورشة لأيام. على أي حال لا يستدعي الأمر كل هذا، إنه فضول فحسب.

وشكر الرجل، وكاد يغادر، فقال الرجل:

- إن حدوات حصاني تؤلمه كثيراً بعد رحلتي الأخيرة إلى جويدا، وأعتقد أنها في حاجة إلى التغيير، إن بدلتها لي دون مقابل، سأذلك على رجل أعرفه اعتاد الذهاب إلى وادي النسالى في كل مرة كان يذهب فيها إلى جويدا، أعتقد أنه قد يخبرك المزيد عن هذه المرأة دون أن تحتاج إلى الذهاب هناك.

فقال آدم على الفور بأسارير منفرجة:

- إنتي موافق بالطبع.

في تلك الليلة أقنع خالته سيرين بأنه تناول شرابه من غير أن تعرف أنه سكبه بأكمله داخل حذاء كان يقع أسفل الطاولة، ثم تظاهر بالنعاس وذهب إلى غرفته منشغل الذهن بما قد يخبره به ذلك الرجل الذي كان ينوي ملاقاته، وأغمض عينه وهو يحاول تذكر متى حدث له المشهد الذي لকمه فيه الفارس، والذي كان على يقين بأنه حدث له من قبل، حتى غلبه النعاس، فرأى نفسه جالساً في كوخ طيني تهتز ساقاه بقوة وهو يفكر في ذلك الفارس الذي أهانه، قبل أن يجد عضلات جسده تؤلمه جميعها في آن واحد ويشعر أن حملاً ثقيلاً جثم فجأة على صدره، فنهض محاولاً الخروج من ذلك الكوخ وهو يضع يده على رقبته كي يستطيع التنفس، لكنه سقط قبل أن يخرج منه بعدها نقلت عضلات جسده وتشنجت مفاصله، حاول أن ينادي من يفيشه، وجد صوته مبحوحًا للغاية - مجرد همس بالكاد يسمعه -، حاول الصراخ رغم ذلك:

- ريااان.

نادى ذلك الاسم أكثر من مرة وهو يشعر أن روحه تفارقه، لكن أحدها لم يأتِ، ليشعر بعدها أن عظام رأسه تتمدد لتصيبه بألم قاتل جعله يضرب حائط الكوخ بجواره بقبضته من شدته، بعدها حاول أن يستجمع قواه كي ينادي ريان من جديد، لكنه بدلاً من أن تصرخ حنجرته بصوته وجدها تطلق زئيراً رهيباً كزئير الضواري.

فتح آدم عينيه في تلك اللحظة وهو يلهث، وهمس إلى نفسه:

- الرسمة ذاتها التي رأها زهير مع عمه.

ثم نظر إلى الفراغ أمامه للحظة وتساءل إلى نفسه من جديد بعدما تمالك نفسه:

- ريان؟! لماذا كان هذا الاسم تحديداً؟



في الصباح التالي تظاهر بالخمول أمام السيد عبود، ثم أخرج له بعضًا من القطع المعدنية التي يدّخرها وادعى أنها من العجوز الذي أصلح له عربته في بيته، وقال في غير اهتمام بأن عجوزاً آخر عرض عليه مبلغاً مماثلاً إن ذهب له ساعة واحدة لإصلاح باب حظيرته، لكنه رفض كي لا يعطّل عمل الورشة، أسؤال المال لعب سيده وأمره على الفور بأن يذهب إلى ذلك الرجل بعدما كان ذلك المبلغ يساوي ما يدفعه زبائن ثلاثة أيام، فنادر الورشة سريعاً إلى السيد مصباح الذي اتفق معه على تبديل حدوات حصانه مقابل أن يدخله على من اعتاد الذهاب إلى وادي النسالى، ثم انتهى من عمله فوصف له الرجل طريق بيت صديقه، ليذهب

إليه وقلبه يدق اضطراباً، كان رجلاً ذا بنية قوية تشبه بنية الفرسان يتناشر الشيب في رأسه بكثرة معلناً عن سنه الذي تجاوز الأربعين، وجده آدم في فناء بيته يحمم حصانه، فقال عندما اقترب منه:

- لقد جئت إليك كي أسألك عن شيء يا سيدي.

نظر له الرجل في استغراب، ثم واصل سكب الماء على حصانه دون اهتمام، فقال آدم:

- أخبرني السيد مصباح عن زياراتك المتعددة لوادي النسالى.

ثم سكت، فتوقف الرجل عن تدليك متن حصانه، ونظر له متظراً أن يعلن عن سؤاله، لكن آدم وجد نفسه فجأة لا يعرف عن أي شيء يسأل تحديداً، حتى نطق أخيراً:

- هل قابلت رامية المنصة من قبل؟

انتظر الرجل لدقائق واصل فيها تحريم حصانه، قبل أن يقول:

- في الوادي، لم أقابلها وجهًا لوجه، لكنني حضرت آخر ظهور لها في باحة جويداً عندما ذبحت فتاتها بخنجر أمامنا جميعاً، كان يوماً لا ينسى.

نطق آدم على الفور:

- خنجر!

تعجب الرجل من رد فعل آدم الغريب، وقال:

- نعم، لقد فصلت من عملها في ذلك اليوم لمخالفتها قواعد المنصة بعد استخدامها سلاحاً غير السلاح الناري، ليتهم لم يفصلوها، صار وادي النسالى كثيراً بعد انضمامها إليه.

وهزَّ رأسه تبرماً وهو يحمل دلو الماء ليسبكه فوق حسانه:

- فقد الوادي بهجته شيئاً فشيئاً مع كل يوم مرًّ وتلك المرأة هناك.

وتنهد حسراً وقال:

- بدلاً من مئات الفتيات اللاتي كن ينتظرننا هناك، صار العدد يقل يوماً بعد يوم حتى لم يتبقَ إلا عدد قليل جداً من الباغيات، معظمهن كبارات في السن لا يصلحن لفعل شيء.

ونظر لأدم وقال:

- إن كان هناك تصويت لإعدامها يوم الغفران القادم سأكون أول المصوتين على ذلك.

سؤاله أدم:

- هل ذهبت تلك السيدة إلى ذلك الوادي لفصلها من عملها وحقدتها على الأشراف أم لماذا ذهبت؟

ضمَّ الرجل شفتيه متعجبًا من اهتمامه المبالغ، لكنه قال متذكراً:

- سمعت شيئاً ذات مرة عن رغبتها في استكمال حلم حبيبها بعد ندمها على قتله، كان ذلك الشاب يريد تعليم النسالي.

فسؤاله أدم سريعاً:

- هل تعرف اسمه؟

فكر الرجل محاولاً التذكر، ثم قال:

- أظن أن إحداهن ذكرته أمامي من قبل، لكن ذلك كان قبل زمن طويل، لا أتذكره الآن.

ثم ضرب مؤخرة حصانه ليتحرك إلى حظيرته، ونظر لأدم وقال:

- في الحقيقة رغم ما حدثتك عنه من بغض لها، إلا أنتي مع كل مرة كنت أرى فيها تأثيرها الواضح على أهالي ذلك الوادي كنت أعجب بها إلى حد كبير، ليس من السهل أن ترك حياة مرفهة في أفضل مدننا لتعيش في تلك الأكواخ المكفرة من أجل تعليم حفنة من الجرذان، ربما أكرهها مثل الكثرين الذين فقدوا متعة ذلك الوادي، لكنني داخل نفسي أراها امرأة قوية للغاية.

وأردف:

- يظن الأغيبياء أن النسالى بدأوا يعودون إلى حياتهم القديمة في السنوات الأخيرة ويتخلون عنها، لكنني عايشتهم كثيراً، وأعرف أنهم يُكنّون لها حباً لا يقترب أحد من مكانته في قلوبهم إلا رجل يُدعى ريان كان معها في تلك الرحلة منذ البداية.

نطق آدم في ذهول:

- ريان؟ هل أنت متأكد من هذا الاسم؟!

ضحك الرجل، وبدأ يشك في أن آدم غريب الأطوار، وقال متهدكاً:

- مثل تأكدي من وجودك أمامي أيها الفتى.

فابتلع آدم ريقه وهو يتذكر أنه الاسم نفسه الذي كان يستغيث به في الحلم في الليلة السابقة، وسأل الرجل بأنفاس متتسارعة ووجه محترق من الدماء التي اندفعت نحوه عندما أدرك أن تلك الأحلام التي بدأت ملامحها تتضح أكثر وأكثر بعد حديث السيد مصباح أمامه للسيدة سيرين عن اقتراب إعدام الramamia ليست مجرد أحلاماً عادية:

- هل لك أن تصف لي ملامح السيدة التي كانت راميةً للمنصة؟  
هز الرجل رأسه نافياً، وقال:

- كما أخبرتك، لم أرها إلا على المنصة، وأيامها لم تسنح لي الفرصة قط لأن تكون في الصفوف الأمامية من الحاضرين، وبعد مرور كل تلك السنوات سأكون كاذباً إن قلت لك أنتي أستطيع وصف ملامحها.

ثم تابع كي ينهي ذلك الحديث:

- إن كان يهمك رؤيتها إلى هذا الحد الذي أراه على وجهك فاذهب إلى جويداً يوم الغفران القادم، يعلم الجميع أنه سيكون آخر يوم في حياتها.

هز رأسه إيجاباً دون أن يقول شيئاً، ثم شكر الرجل وخرج من فناء بيته عائداً إلى بيت السيدة سيرين مباشرةً والتي فاجأته بأنها سترحل إلى جويداً مع اختها لأمر عائلي طارئ ستخبره به بمجرد عودتها، فلم يقل شيئاً سوى أن ترسل تحياته إلى زهير إن لاقته، فوعده بذلك، قبل أن تغادر مع ظهيرة ذلك اليوم، فجلس في غرفته يفكر في كل كلمة قالها ذلك الرجل في توتر شديد، وخاصةً اسم الرجل الذي كان يساعد الramamia، ريان، واستخدام الramamia للخنجر لقتل حبيبها، ثم تحرك إلى أمام المرأة ونظر في عين صورته بها من جديد وبدأ يسترجع في عقله ما قاله الرجل وما رأه في أحلامه في اليومين السابقين، حتى سمع في أذنه صوتاً نسائياً يقول متهكمًا:

- يحلم نديم النسلـيـ.

فأجل جسده وعاد بقدمه إلى الخلف، وقال لنفسه خائفاً عندما بدا ذلك الصوت مألوفاً له:

- أهذا شيء من الجنون؟

بعدها لم يتوقف ذلك الصوت مطلقاً عن ترديد الجملة نفسها في رأسه، فخرج إلى الردهة سريعاً كي يبحث عن كيس الأعشاب التي كانت تذيبها له خالتة سيرين وهو يقول لنفسه في قلق:

- لو استمر الأمر هكذا لأصاب الجنون عقلي، كانت خالتى سيرين محققة بإعطائي تلك الأعشاب.

وببدأ يبحث في كل جانب من الردهة عن ذلك الكيس. بحث بين الأواني الفخارية المتراصة على الأرفف، لم يجده، في قدور إعداد الطعام المعدنية، لم يجده، بينما كان الصوت يواصل طرقه في رأسه بالجملة ذاتها، يحلم نديم النسلي، وواصل بحثه بسرعة أكبر، خلف المصابيح النارية، بين أكياس الحبوب، لم يجده، يحلم نديم النسلي، أمسك رأسه بقوة وهو يواصل البحث محاولاً إسكات ذلك الصوت، لكن دون جدوى.. وواصل الصوت ضجيجه الحاد دون توقف، بحث في الخزانة الطوبية الموجودة في ركن الردهة، لم يجد فيها سوى الأخشاب التي تشعل المستوقد، سأل نفسه في ضيق كبير:

- أين وضعتها خالتى سيرين؟

دخل إلى غرفة نومها، فتح خزانة الثياب ومد يده بين الثياب المطوية فيها وجذب جميعها إلى الأرض وبحث بأسفلها، لم يجد إلا كيساً للنقود، ضرب الصوت بقوة أكبر في رأسه، يحلم نديم النسلي، دسّ يده في جيوب الثياب المعلقة واحداً وراء الآخر، لا شيء، حمل فراش

السرير وحشتيه غاضبًا وألقاهم بعيدًا للبحث أسفلهما، لم يجد لذلك الكيس أثراً، فصرخ:

- أين وضعت تلك الأعشاب الاعينة؟

ثم جلس على السرير يائسًا يعتصر وجهه ضيقًا من ذلك الصوت المتواصل في رأسه وهو يقول لنفسه:

- لم ترد أن تجعلني أراها، لا بد أنها تخلصت منها، ليتني تناولت هذه الأعشاب مثلاً أرادت.

ثم تلفت حوله، كانت الفوضى عارمة في كل أركان الغرفة، فهز رأسه في خيبة أمل، ونهض من جديد محاولاً تجاهل ذلك الصوت الطارق في رأسه، وبدأ يعيد كل شيء في موضعه، هندم السرير وفراشه أولاً، ثم أخذ يطوي الثياب التي أسقطها إلى الأرض كل ثوب على حدة بالطريقة ذاتها التي كانت مطوية بها، وبدأ في رصها في خزانة الثياب من جديد، حتى توقف عندما وجد تلك الورقة المطوية والتي لم يلاحظها عندما أسقط الثياب بيده دفعة واحدة، ظن أنها رسمة صديقه زهير عندما لمح في طرفها المطوي شيئاً مرسوماً، وفتحها، ليجد وجهها أمامه مرسوماً بالفحم.

في تلك اللحظة فقط سكت الصوت الطارق في رأسه تماماً، بل سكت كل شيء من حوله وكأن الزمن قد توقف في هذا الوقت، نظر في عينيها المرسومتين وحدق فيهما في ذهول لتبدأ المشاهد تتدفق إلى رأسه تباعاً: الدماء وهي تسيل من رأسه وهو ينظر إليها وهي تخرج من بوابة المدرسة المتوسطة، نظراتها الخائفة نحوه وهو يقف وراء نافذة الفصل، وجهها المحمر خجلاً بعدما قبلها في الباحة، وركضها خلفه، المرج الشرقي،

النختة الخشبية في المدرسة المتوسطة، ليهمس إلى نفسه باسمها وعينه تلتمع بدموعه:

- غفران!!

نهض ونظر إلى المرأة في غرفة خالته سيرين، لم يشعر أنه ينظر إلى عيني شخص آخر فحسب، بل شعر في هذه المرة أن من يراه أمامه في المرأة شخص يراه للمرة الأولى، حمل الصورة وركض خارجاً إلى الرجل نفسه من جديد، أراده الرجل أن ينصرف في الحال كي لا يضيع وقته، فقال له آدم متواصلاً وهو يخرج الورقة ويريه وجه غفران:

- إنه آخر سؤال سيدي، هل هذه صورة الرامية التي قتلت حبيبها على المنصة ويوشك السيد كيوان على إعدامها؟

أمسك الرجل بالورقة، وقال في تعجب:

- نعم، من أين حصلت على هذه الصورة؟!

لم يجده آدم، وركض مرة أخرى إلى الخارج، تسيل الذكريات في عقله في تتبع لا يتوقف، الكوخ الطيني، الباحة، الفارس الذي أهانه، الأطفال الذين يجلسون أمامه ليعلّمهم، ريان، ديماء، رأى المشهد الذي أتعبه كاملاً في ذاكرته، كان يقول لريان:

- ستتغير القواعد يوماً ما.

فقالت ديماء التي كانت تتأخر عنهما بضعة خطوات:

- يحلم نديم النسي.

يركض بأقصى سرعة له وسط دهشة السائرين في شوارع بريحا، لا يدركون أنه في عالم آخر لا تسمع فيه أذناه سوى زغاريد النساء في الباحة، وبارود المنصة، وكلماته إلى غفران:

- سأفعلها من أجلكِ.

حتى وقف ليلقطر أنفاسه عند أطراف المدينة، وسقط على ركبتيه وهو يلهمث، فجال في ذهنه نظرات الحسرة على وجهها والدموع التي تجتمع في عينيها وهي تقف أمامه على المنصة قبل أن تخرج خنجرها، لتتوقف ذكرياته عند ذلك الوقت، كانت جماعة من المسافرين يغادرون بريحا على خيولهم، ناداه شاب منهم وسأله إن كان بخير، فأفاق للحظة من أفكاره وهز رأسه إيجاباً، ثم نهض وعاد إلى بيته دون أن يركض هذه المرة، أراد أن ينام، لم يستطع، جلس على الطاولة في الصالة واضعاً رأسه بين كفيه، وكلمات الرجل بأن الramمية ذهبت إلى وادي النساى ندماً على قتل حبيبها تتدخل في عقله مع الدموع التي رأها على وجهها وهي تمسك بالخنجر أمامه، تمتزج معهما دون توقف كلماته الأخرى بأن يوم الغفران التالي سيكون آخر أيامها، وجد قلبها يدق بسرعة أكبر كلما ترددت في باله جملة «سيكون آخر أيامها» تحديداً، حتى تسرعت أنفاسه فجأة وهو ينظر إلى صورتها المرسومة أمامه، ليشعر بعدها أن عضلات جسده بدأت تؤلمه، تنبه للحظة أنها تشبه الألم ذاته الذي شعر به في حلمه قبل أيام، ازداد الألم، عض على أسنانه من شدته، شعر أن ثقلًا يطبق على صدره، صرخ وهو ينظر إلى عضلات ذراعه التي بدأت تتضخم وتتنفس بعروقها بصورة لم تحدث له من قبل، سقط من على كرسيه وهو يشعر أنه يفقد السيطرة على جسده، حاول أن يصرخ، صار صوته مبحوحًا لا يُخرج أي حروف، آخر ما رأه يجول في رأسه هي غفران مُكبلة اليدين على منصة الباحة يقف أمامها رامي المنصة بصلاحه الناري ينتظر انتهاء القاضي من إعلان حكمه، قبل أن تتنفس عضلاته جميعها وتتنفس عروق رقبته ويمزق ستنته ويطلق زئيرًا عالياً، ضرب بقبضته كل

شيء من حوله، وغرس مخالبه في حوائط البيت لعل ألم مخالبه يخفف من ألم جسده الذي لا يُحتمل، ركض في كل مكان في البيت وهو يطلق زئيره متأنّاً، ودّلوجد سكيناً قريباً منه وشقّ به عنقه لينهي ذلك الألم، حتى شعر أن جسده بدأ يتحمل ذلك الألم أخيراً، وقلّت شدته شيئاً فشيئاً إلى أن زال تماماً عنه، فوقف موضعه يعلو صدره ويهدّط، بعدها سقط إلى الأرض كالبناء المتداعي، ليبدأ جسده يستعيد هيئته البشرية من جديد دون أن يفهم شيئاً مما حدث، نظر بانفاس لاهثة إلى آثار مخالبه على الجدران وإلى جسده الغارق في عرقه ثم حمل ستة أخرى قريبة منه، وركض إلى الخارج في الشوارع الساكنة في ذلك الوقت المتأخر من الليل نحو بيت الطبيب، وطرق بابه بقوة، خرجت إحدى النساء أخيراً وأخبرته بأنه غادر إلى جويداً، لم يعد إلى بيت خالته سيررين، ركض إلى الورشة وهو يعلم أنها مغلقة في ذلك الوقت، حتى وصل إليها فقرر أن يمكث أمامها حتى يطلع النهار، ثم بزغ الفجر فغلب النعاس جسده المنهك أخيراً، لم يستيقظ إلا عندما نكزه السيد عبود في كتفه مستغرقاً من نومته هكذا، اعتذر له بأنه لم يحب البقاء وحيداً في بيت خالته، تهكم عليه سيده قبل أن يدخله إلى الورشة، ظل ذهنه عالقاً بما حدث له في الليلة السابقة، ليس ذلك التحول الذي أصاب جسده فحسب، بل كل الذكريات التي انهالت على رأسه وهو على يقين أنه عاشها جميعاً، ضرب الحديد بقوّة بمطرقته محاولاً إجهاض جسده على قدر الإمكان لعل ذلك يجعله يغوص في نومه بعد انتهاءه من عمله، وكلما أتى خاطر إلى رأسه تحدث مع أي شخص بجواره كي يشتت ذلك الخاطر، ثم أتى زبونان في وقت واحد، تحدث أحدهما إلى الآخر عن ذهابه إلى جويداً من أجل مشاهدة مراسم إعدام الرامية، وقال الآخر:

- يتحدث القادمون من هناك أن المدافع قد تمركزت بالفعل في مواجهة وديان النسالي، يبدو أن إشاعات التخلص منهم ستكون حقيقة هذه المرة.

شعر بأنفاسه تتسرّع رغمًا عنه، وأحس بذلك الألم في عضلات ساقه، ألقى بمطربقته جانبياً فأحدثت ضجة عندما ارتطمت بلوح من الصاج جعل السيد عبود يصبح فيه غاضبًا، نظر له آدم بعينين حادتين دون أن ينطق، فارتعد الرجل وانكمش في نفسه كالجرو الصغير، قبل أن يتحى جانبياً مفسحًا الطريق للفتى الذي ركض خارجاً إلى بيت السيدة سيرين من جديد وانزوى متقوقاً في ركن بالردهة تشتعل في رأسه رغمًا عنه كلمات الرجل عن المدافع التي تواجه وديان النسالي، ليمر في ذاكرته مشاهد متتابعة وأصوات متداخلة؛ أحصنة ضخمة تحمل فرساناً تلمع خوذاتهم تقتحم كالسيل تجمعات من أكواخ كانت أكثر بدائية من الكوخ الذي رأى فيه نفسه وهو يستقيث بريان، يركض أهلها المنقوش على جيابهم وشم النسالي عرايا الصدور رجالاً ونساءً في ذعرٍ فراراً منهم ليتساقطوا قتلى أسفل أقدام الخيول دون رحمة، نيران تشتعل في كل شيء وقدور كبرى يتتصاعد الدخان منها يتقدم إليها الفرسان ليلقوها بالأطفال في داخلها مقهقحين دون اكتتراث بصراخ الأطفال وأهاليهم، فيما يقف هو على مكان عالٍ ينظر إلى كل ما يحدث قبل أن ينسحب بحصانه ويترك ذلك المكان، نطق آدم إلى نفسه في ذهول:

- ليست المرة الأولى التي يُباد فيها النسالي، كنتُ هناك!!

تتسارع أنفاسه ويشب إلى رأسه التي لا يستطيع السيطرة عليها مزيدً من المشاهد، رأى نفسه بهيئته الوحشية التي أصابته في الليلة السابقة وهو يسير بين نمررين أبيضين ضخمين أحدهما عن يمينه والآخر عن

يساره في مكان واسع محاط بالجدران الصخرية من كل جانب، وعلى أرضيته المستوية رُصَّ مئات من الأطفال الرُّضع المدثرين بلفات قماشية بيضاء في صفوف كثيرة متوازية، كان يتحرك بينهم ليتأكد أنَّ جميعهم على قيد الحياة، حتى توقف أمام آخر صف منهم، كان يترافق به ثمانيةأطفال فقط يتلفون في أقمشة سوداء مميزة عن أقمشة باقي الرضع، وجد التمرين المرافقين له يتقىمان إلى أولئك الثمانية وبدأ يلحسانرؤوسهم بأسنتهم في رفق، قبل أن ترقد الأنثى منها بجوار طفل باكٍ منهم لتبدأ في إرضاعه، التفت ببصره إلى الباقيين حين سمع زمرة من خلفه، وجد حيوانات ضاربة أخرى كثيرة قد قدمت إلى ذلك المكان ورقت بجوار الأطفال ليبدأوا إرضاعهم مثلاً فعلت أنثى النمر، اعتدل آدم في جلوسه وهو يرى أولئك الرضع قد كبروا وصاروا صغاراً في عمر الخامسة يحيط خصر كل واحد منهم قطعة قماشية بالية، ويركضون في الجبال مع تلك الحيوانات دون خوف فيما كان يقف هو عالياً ينظر إليهم، تبه حينها أنَّ التجاعيد كانت تقطع يده وكأنه كان عجوزاً في ذلك الحين. مشهد آخر صار فيه الأطفال فتياناً كانوا يصطفون في صفوف أمامه يتقدمهم ثمانية يتلف سوار يتدى منه ناب كبير حول أذرعتهم، تقدم أحدهم إليه وقال:

- سنبدأ الصيد الآن، سيدى.

مشهد آخر نسبت فيه لحاهم وشواربهم، كانوا يقفون مصطفين في ترقب عندما بدأت أجسادهم تستحيل واحداً وراء الآخر إلى الهيئة الضاربة قبل أن يتباروا في إطلاق زئيرهم، ليطلق لهم زئيره ويرفع قبضته إلى السماء، فاشتعل زئيرهم الحماسي ليبلغ عنان السماء، قبل

أن يعودوا سريعاً إلى هيئتهم البشرية، نظر آدم إلى قبضة يده وقال متذكراً:

- كانت المرة الأولى التي تصور فيها أرواحهم، انتظرت هذا اليوم ستة عشر عاماً.. كنت قائدهم!

ثم حل في رأسه مشهد مفاجئ يرى فيه نفسه في كوخ طيني يحاول قمع تلك الروح الثائرة بداخله، وهو يصرخ إلى نفسه في تосع:

- لقد وعدتها بأن أصل إلى عامي الخامس والعشرين دون جريمة،  
أرجوك دعني أفي بوعدي.

قبل أن يصرخ منادياً لريان كي يقيّد جسده بحبل سميك بإحكام،  
وهو يقول له:

- لا تخبر غفران عن هذا الأمر، لا تخبرها أرجوك.  
قبل أن تبدأ عروقه وعضلاته في تمددها.

اعتصر وجه آدم من الألم وهو يرى نديم وهو يقاوم روح القائد في داخله كي يتمكن من إخمادها، واستلقى بجسده إلى الأرض منهكاً هو الآخر مثلاً كان يفعل نديم، حتى أنه حرك شفتيه بالكلمات ذاتها التي اعتاد أن ينطق نديم بها بعد عودته منهكاً إلى هيئته البشرية:

- لقد وعدتها بـألا أرتكب جريمة.

ليغمض عينيه أخيراً مستسلماً للنوم. نام في تلك المرة كأنه لم ينم من قبل، لم يستيقظ إلا مع صباح اليوم التالي، اليوم السابق ليوم الغفران، عندما هدر صوت نديم في رأسه متوسلاً:

- يستطيع الزائرون إنقاد غفران، يستطيعون إنقاد النسالى من بطش الأشراف، كلانا يعرف ذلك.

شعر آدم أن صوت نديم يتسلل في داخله إلى شخص آخر، وخاصة عندما أكمل رجاءه قائلاً:

- أرجوك، لم يتبق إلا أقل من يوم على يوم الغفران، أرجوك فلتتفعلها من أجلهم، نعلم أنك تستطيع استدعاء الزائرين ولا يستطيع غيرك فعلها.

وواصل ملحاً:

- لقد أوردت في ذاكرتي سابقاً أنك لم تخدم أرواحهم إلى الأبد، وأن چارتين مدينة لك بعهد تستطيع به استدعاءهم، لكنك حجبت عني كيف أستطيع فعل ذلك، أرجوك، أخبرني كيف أستدعينهم من جديد.

وعندما لم يجد أي إجابة، صاح مستكراً:

- لماذا لا تسمح لي بتذكر ذلك؟! أتنظر حتى يفوت الأوان؟!  
ولوهلة شعر آدم أن ذلك الصوت في داخله يدفعه بكل طاقته كي يستحيل إلى الهيئة الزائرة من جديد، لكنه لم يمتلك القدرة على ذلك وكأن الشخص الآخر لم يسمح له، ليقول صوت نديم معذراً:

- أعلم أنك غاضب مني، بعدها كنت على وشك ضياع روحك النسلية للأبد بزواجه من غفران، لكنك تعرف أنني كنت أحبهما كثيراً وتعرف كم هي امرأة صالحة، لقد سمعت الرجل الذي حدثنا عنها بنفسك، لقد أفتت عمرها من أجل النسالى وأصلحت الكثير من حياتهم، ألم يكن هذا ما أردناه؟!

هنا سمع الصوت الآخر في داخله ينطق للمرة الأولى منذ بدء توسل  
نديم، ليقول بصوت قيادي:

- لا نستطيع. لقد أخذت عهداً بـألا أستدعينهم من جديد، وإلا كان  
الثمن غالياً، لا بد للدماء أن تروي صخور حوران هذه المرة.

قال صوت نديم:

- لطالما كان عهداً بأن نحفظ بقاء النسالي، وأن الأوان للوفاء  
بهذا العهد مهما كان ثمنه، أعطني ذاكرتك الكاملة ودلني كيف  
أستدعينهم، وأقسم لك بأنني سأحرر النسالي من القواعد هذه  
المرة، بعدها سأرحل عن هذا الفتى إلى الأبد، إنه ذكي وسيدرك  
ما عليه فعله.

ثم سكت، وسكت الصوت الآخر دون إجابة، لم يعلم آدم ما آل إليه  
ذلك الصراع إلا عندما رأى أمام عينيه بعد دقائق الحلم الذي تكرر معه  
لسنوات، يسير بهيئته الزائرة في طريق رمليٌّ ممتد ليمرُّ أولئك المتوارين  
في الظلام على جانبي الطريق قد بدأوا في الظهور أمام عينه، جميعهم  
يشبهونه، عرايا الصدور بارزي العضلات والعروق، لا يختلف فيهم عنه  
سوى أن صدورهم كانت تحمل وشم النسالي، واصلوا ظهورهم واحداً  
وراء الآخر ليصطفوا على امتداد جانبي الطريق هابطين على ركبهم في  
طاعة وهو يواصل التقدم أمامهم، ظنَّ أنه سيجد غفران في نهاية ذلك  
الطريق كما اعتاد في حلمه، لكنه رأى نفسه يصل إلى جبل كبير ذي باب  
صخري واسع، ما إن مدَّ قدمه ليعبر إلى داخله حتى توقف ونظر نحو  
النسالي الزائرين من خلفه ليجدتهم قد عادوا إلى الظلام من جديد،  
النقت للأمام، وواصل تقدمه إلى داخل الجبل، شعر أنه يعرف ذلك

المكان جيداً، كانت ثمة بركة جافة في منتصفه وقف أمامها وانتظر، حتى  
سمع صوت ينادي:

- أهلاً بكَ في جبل العهود أقدم جبال حوران، قدم دماءك، إن وادي  
حوران يحفظ القواعد والعهود والبلاد.

ثم اختفى كل شيء فجأة من أمام آدم، ووجد صوت نديم في داخله  
يصرخ فرحاً، ويقول:

- لن أنسى لكَ هذا الجميل أيها القائد، أعدك بأنني لن أخذلك.  
بعدها شعر أن صوت نديم يحدثه للمرة الأولى:

- أيها الفتى إن هناك أرواحاً خامدة تنتظر تحريرها، لقد سمح  
لنا القائد بذلك، فلنذهب إلى حوران من أجل النسالى ومن أجل  
غفران.

وفجأة وجد آدم نفسه يستحيل إلى هيئته الزائرة بدون أن يشعر بذلك  
الألم الذي شعر به المرة السابقة، وأطلق زفيره الكبير قبل أن يركض إلى  
الخارج، يسيطر على جسده صاحب الصوت الذي يضج في رأسه، حتى  
ركب حصانه، وزأر فيه لينطلق به إلى الجنوب.



## (١٨)

كانت المرة الأولى التي يقطع فيها آدم الطريق الممتد من بريحا إلى الجنوب منذ انتقاله إليها مع خالته سيرين قبل ستة أعوام، ومع ذلك شعر أنه يعرف الطريق ويعرف انعطافاته جيداً بدون أن يدرى إن كان ذلك من ذاكرة القائد الزائر في رأسه أم ذاكرة نديم الذي تولى زمام الأمور في جسده، أم أنها ذاكرة شخص آخر غيرهما حمل روحه من قبل.

ثم استعاد هيئته البشرية من جديد بعد ابعاده عن بريحا ببضعة أيام، فرأى في ذاكرته أن عليه المرور بجويدا كي يستطيع الوصول إلى وادي حوران الذي يقع في الجانب الشرقي منها، فصرخ في حسانه كي يسرع ليصل تلك المدينة قبل شروق الشمس، ثم فطن إلى أن القائد الزائر في داخله لم يتَّح تماماً عنه بعدما رأى نفسه يتخطى كافة المسافرين بأحسنتهم وعرباتهم ببراعة شديدة دون تمهل ليدرك وقتها في نفسه لماذا كان مميزة إلى ذلك الحد في ركوب الخيل منذ صغره.

حين مر بالقرب من مدينة «قبلا» أوقف حسانه للمرة الأولى كي يريحه، رُبِّت على رأسه ورقبته وسقاوه من حوض للمياه على جانب الطريق، ثم تركه يرعى في الحشائش النابتة بجوار ذلك الحوض، ووقف ينظر في شرود إلى جدار چارتين العظيم الذي التمعت صخوره مع نور القمر المكتمل، قبل أن ينظر في مياه الحوض ويحدث صورته بصوت نديم:

- سنفعلها من أجل غفران ومن أجل النسالى.

بعدها ركب حصانه من جديد، وواصل ركضه بسرعته القصوى نحو جويدا، إلى أن وصل مدخلها الشمالي مع حلول الفجر.

كان المدخل في ذلك الوقت مزدحماً للغاية بالأشراف القادمين من مدن الشمال من أجل حضور مراسم يوم الغفران، فاضطر للإبطاء من سرعة حصانه إلى حد التمشية، ظن أن الروح الزائرة في داخله ستثور غضباً مع الضحكات المرسومة على وجوه الأشراف وأحاديثهم المسرورة عن حضورهم ذلك اليوم غير الاعتيادي ورغباتهم بأن يفعلها قائدتهم كيوان حقاً ويخلّصهم من النسالى، لكنه وجد نفسه يحافظ على هدوئه بعدما بدا أن نديم في داخله كان يركّز على هدفه الأهم بالمضي إلى وادي حوران والذي كان سيتحطم تماماً إن ثارت روحه وسط تلك الجموع، وواصل تقدمه في شوارع جويدا المضاء بالمسابح النارية يوجه حصانه بسلامة كبيرة دون أن يستفسر من السائرين عن المخرج الشرقي المؤدي إلى طريق وادي حوران، حتى وصله مع شروق الشمس، ثم عبر جسراً صخرياً يمر فوق النهر الجاف بالسرعة البطيئة ذاتها، قبل أن يتخد طريقاً رملياً يمتد بين مرتفعات جبلية متوسطة الارتفاع، ويصرخ في حصانه كي يركض من جديد.



كان وادي حوران أبعد مناطق چارتين في الشمال الشرقي، منطقة جبلية كبرى يطل كثيّر من جبالها على جدار چارتين، لها طريق وحيد ذو انعطافات وتشعبات كثيرة قيل أن من يعرفه فقط هم جُند الأشراف المكلفين بمراقبة من تصل أعمارهم إلى الخمسين عاماً إلى هناك،

والذين قيل عنهم أنهم يختارون من كهنة حوران الذين يسكنون جباله ولم يرهم أحدٌ من قبل، كما قيل أيضاً أن الوادي لا يسمح لأحدٍ بأن يتغلب في طرقه دون رغبتهم وإلا كان هالكاً لا محالة.

حين بدأت الجبال ترتفع على جنبي الطريق إلى ارتفاعات شاهقة نحو السماء وجد آدم جسده يستحيل إلى هيئته الزائرة، اعتقاداً في البداية أن روح نديم من أجبرته على ذلك، لكن مع الجرأة التي وجد نفسه يتمتع بها وهو يتقدم مُطلقاً زئيره بين الجبال أدرك أن القائد الزائر أصبح من يتسيد جسده، ليواصل زئيره القوي وهو يقطع الطريق بحصانه الراكض، وكأنه يعلن للجبال أنه عاد للحياة، ثم انعطف بحصانه إلى ممر جنبي يمتد نحو جبال بيضاء مخروطية الشكل كانت تنتشر بين المرتفعات الصخرية العالية، وأكمل طريقه عابراً المرات بينها، إلى أن اتخذ طريقاً رملياً كان ينحدر بميل تدريجي إلى أعلى، وقلل من سرعة حصانه، لاحظ آدم حينها أنه الطريق ذاته الذي رأه كثيراً في منامه، ولو لا أن ضوء النهار كان ينير الطريق من أمامه لظن أن هناك أناساً يقفون على جنبيه يريدون النطق باسمه ولا يستطيعون.

كان جبلٌ مخروطيٌّ كبيرٌ قد ظهر في نهاية الطريق، فواصل التقدم نحوه، حتى وصل إلى سفحه فهبط عن حصانه، وبدأ يتسلق جنبه المنحدر بهيئته الزائرة، إلى أن رأى فتحةً في صخوره تشبه باباً ضيقاً فدلل عبرها دون تردد، ثم هبط سلماً منحوتاً من صخور الجبل ذاته نحو كهفٍ واسعٍ مسحوي الأرض ينيره نور النهار القادم من فوهة الجبل بالأعلى، وتتابع تقدمه نحو بركةٍ صخريةٍ جافةٍ كانت تقع في منتصفه، ووقف أمامها ثم زأر بقوه، قبل أن يغرس مخالبه في جانب صدره الأيسر ويجرّها يميناً ليحدث جرحاً عميقاً في جلده سالت معه الدماء بغزاره

على مخالبه، بعدها مدّ يده بتلك الدماء إلى البركة، لتساقط قطراتها على أرضها الجافة المشقة.

ما إن لامست الدماء أرض البركة حتى ظهرت دماء أخرى كثيرة تتدفق من بين شقوفها لتبدأ في ملئها، سمع صوت نديم في داخله متذمراً يحثه على الإسراع، لكن روح القائد تجاهله تماماً، وواصل نظره إلى الدماء التي كان منسوبها يعلو رويداً رويداً، حتى صارت البركة من أمامه تشبه مسبحاً منها، بعدها رأى رأساً يشبه رأس إنسان منزوع الأعين يتشكل شيئاً فشيئاً من الدماء نفسها ويستقر على سطحها، قبل أن ينطق هذا الرأس بصوت رنان:

- لقد كان زمناً طويلاً منذ زيارتك السابقة أيها القائد الناري،  
أهلاً بك في جبل العهود، أقدم جبال حوران.  
حينذاك عاد آدم إلى هيئته البشرية، كان جرح صدره لا يزال ينزف،  
لكن ذلك لم يشغله على الإطلاق بعدما وجد نفسه ينطق بصوت لم يكن  
صوته قط، ولا صوت نديم الذي صار يعرفه:  
- جئت من أجل عهد جديد.

قال الرأس الدموي بصوته الرنان:

- يحفظ وادي حوران القواعد والعقود والبلاد، ويحفظ دينه القديم  
للك.

هنا نظر آدم في البركة أمامه، فرأى ذكريات القائد الناري تظهر على سطحها، رأى مئات من النساى والأقوباء ذوي الهيئة الزائرة يصطفون في صفوف كثيرة، تتبعها صفوف أخرى أكثر عدداً من النساى البشريين، بينما يقف أمامهم جميعاً بهيئته البشرية على ربوة عالية يحمل وشم

النسالى على صدره، لم يكن نفسه العجوز الذي رأه في ذاكرته يرعى الأطفال حاملي أرواح الضواري، بل كان شاباً قوي الجسد هذه المرة، كذلك كانت وجوه الزائرين أمامه مختلفة عما رأه في ذاكرته، فأدرك أنه عصر مختلف، رأى نفسه وهو يستحيل بعدها إلى هيئته الزائرة قبل أن يرفع قبضته إلى السماء، لتقديم تلك الحشود في انتظام شديد ضاربين الأرض بأرجلهم ليصل الغبار من خلفهم عنان السماء،

ثم تبدل المشهد أمامه على سطح البركة إلى معركة دامية كبرى، رأى نفسه وهو يزار في الزائرين من حوله يميناً ويساراً كي يقفزوا في كل مكان ليمزّقوا بمخالبهم أعناق جنود مدربين يحملون سيوفهم في خوفٍ شديد، فيما تدوي في الآفاق بقوة دقات طبول ذات إيقاع سريع يبعث الرعب في القلوب، رأى بعدها جثث الجنود الفارقة في دمائها وهي تساقط بكثرة أسفل أقدام خيول النسالى وهم يواصلون اقتحام الصفوف، رأى بعدها عامة الأشراف وهم يخرجون مستسلمين من بيوتهم فيما ينتشر الزائرون في الشوارع والطرقات. رأى مشهداً آخر يحيط فيه الزائرون بباحة جويدا التي امتلأت بأشراف راكعين على ركباتهم وأضعين أياديهم مُشبكة فوق رؤوسهم بينما يقف أمامهم على المنصة بهيئته البشرية ينظر إليهم في شموخ كبير، ثم هدأت الجلبة من أمامه، فقال لهم بصوته القيادي:

- أما الأولى فكانت غدرًا منكم، وأما الثانية فستكون رحمةً منا.

وأضاف وهو ينظر نحو النسالى البشريين:

- سيعيش النسالى بينكم دون أن يؤذيك أحد، وهذا عهد مني.

بعدها أشار للنسالى الزائرين كي يفسحوا طريقاً للأشراف ليغادروا

باحة جويداً. مشهد آخر ظهر أمامه يحمل فيه أحد النسالى رضيعاً ميتاً،  
ويقول له:

- لم تذهب أمه إلى الباحة كما أمرت، إنها النسلية الخامسة التي  
تلد طفلاً ميتاً.

رأى نفسه في مشهد بعدها وهو يتقدم نحو جدار چارتين من أجل نقش  
قاعدة جديدة على إحدى قواعده الصخرية، ليقرأ ما نقشه بالچارتينية  
القديمة:

- «يساوي الأشراف والنسالى في حق اكتساب الروح النقية دون  
النecessity الحاجة للذهاب إلى باحة جويدا»

قبل أن تحدث أسفل أقدامهم هزة أرضية عنيفة التفتوا معها جميعاً  
إلى دخان عظيم لم يُرَ مثله من قبل تصاعد إلى السماء فجأة في شرق  
چارتين، ليقول أحد شبان النسالى من خلفه في استغراب شديد:

- إنه يتتصاعد من فوق وادي حوران!!

مشهد آخر يركض فيه بحصانه ومن خلفه الثمانية حاملو أرواح  
الشامو نحو وادي حوران حيث تواصل أعمدة الدخان صعودها بكثافة  
إلى السماء، ليجدوا ذلك الدخان يتتصاعد من فوهات أكثر منأربعين  
جيلاً تطل على جدار چارتين، فيما كانت الحمم النارية تتقاذف من تلك  
الفوهات إلى جانبيها دون توقف، قال أحد مساعديه بجواره وهو يشير  
نحو صدوع كبرى تمتد في الأرض من تلك الجبال نحو جدار چارتين  
وتتدفق فيها الحمم المتصهرة كالمياد الجارية:

- لن تتحمل الأرض أسفل الجدار كثيراً، سينهار جدار چارتين أمام  
هذه الجبال قريباً.

مشهد آخر وهو يجلس مع الثمانية شبان ينتظرون قدوم شخص ما في ترقب، قبل أن يدخل إليهم شاب يحمل وشم النسالي، ويقول:

- تعالى أمواج أكما بمنسوب عظيم شمال شرق چارتين، ولا تزال براكين حوران ثائرة تCDF حممها دون توقف.

قال شاب من الجالسين غاضباً:

- لا تزيد هذه الأرض الملعونة مساواتنا مع الأشراف أبداً.  
وقال آخر في قلقٍ:

- إن هدم الجدار فلن يبقى لهذا البلد أثر.  
وقال ثالث كانت نبرة صوته أكثر غضباً:

- حسناً، فليميت الجميع.

تذكر آدم تلك الجلسة ووجوه أولئك الشبان القلقين الذين صمتوا بعد ذلك ونظروا إليه ينتظرونـهـ أنـ يـتـحدـثـ، فـقاـلـ بـعـدـ فـتـرـةـ طـوـيـلةـ منـ الصـمـتـ:

- سأذهب إلى جبل العهود.

تذكر نفسه وهو يتقدم بهيئته الزائرة نحو بركة الدماء للمرة الأولى، ليقرأ ما كتب بالچارتينية القديمة على أرضها الجافة:

- «قدّم دماءك»

خدش باطن يده اليسرى بمخالب يده اليمنى، ومدّ يده إلى البركة لتساقط دماءها إلى أرضها، لتبدأ دماء أخرى تتدفق إليها من شقوقها حتى امتلاء أمامه، وظهر الرأس الدموي منزوع الأعين على سطحها، وقال:

- يحفظ وادي حوران القواعد والعقود والبلاد.  
استحال حينها إلى هيئته البشرية وقال:

- كيف تحفظ البلاد وبراكينك توشك على هدم الجدار؟!  
ضحك الرأس ساخراً، وقال:

- لقد أردت تبديل القواعد بالقوة، وقوة حوران لا تضاهيها قوة، لقد استغاث بنا الأشراف وأثروا أن يموتوا على أن تتولوا زمام الأمور.

وتحرك على سطح الدماء ناحيته، وتتابع بصوت لثيم:

- لطاماً قدّموا أرواحهم لنا فداءً على مر الزمان، وأن الأولان ليرد لهم حوران الجميل، انظر في دمائي، وأبصر ما سيحدث مع منتصف يوم الغفران القادم.

ثم ذاب كالثلج بين الدماء، فنظر القائد النسلي إلى سطح البركة وحدق فيها، رأى الشقوق الأرضية الممتلئة بالحمم النارية وهي تتکاثر كالثعابين أسفل جدار چارتين، رأى قاع بحر أكما وهو يفور بشدة كالماء المغلي، رأى أمواجه وهي تتراطم ليتفوق ارتفاعها الجبال، رأى الجدار وهو يتشقق شيئاً فشيئاً وتسرب من شقوقه المياه إلى أن تتفتت صخوره وينهار تماماً، رأى المياه وهي تتدفق إلى چارتين كطوفان رهيب، رأى الآلاف من أهله الذين يحملون الوشم يقاومون الغرق، رأى زائريه وهم يفرون من المياه إلى أن تطولهم وتفرقهم، رأى عامة الأشراف وهم يغرقون، الحيوانات تفرق، البيوت تغرق، الجبال تغرق، كل شيء يُغطى بالماء.

ثم تشكل الرأس الدموي أمامه من جديد، وقال:

- هذا ما لم يفهمه النسالى قط، إن انهيار قاعدة واحدة لا يختلف عن انهيار جدارنا العظيم.

تجاهل الصوت، وواصل تحديقه في البركة نحو الجثث الكثيرة  
منتفخة البطنون التي كانت تطفو على سطح المياه، ثم قال:

- لم أرد سوى نيل حقوقنا، لم أؤذ أحداً من عامة الأشراف مثلاً  
 فعل سادتهم مع قدمائنا بعد العهد الدموي.

قال الرئيس:

- لن ينسى أحدكم نسالى، أصحاب أرواح نجسة، كتبت السيادة  
في هذا البلد لأصحاب الأرواح النقية، وهذا ما عاهدنا عليه  
الأشراف، ولا يخلف حوران عهده، إن استطعت إخمام براكيتنا  
فلتخمدتها، وإن استطعت منع أمواج أكما فلتمنعها، وإن أردت  
عهداً لنجاتك قبل يوم الغفران القادم فلتفعل، ولكن لكل عهد  
ثمنه.

هز رأسه إيجاباً دون أن يقول شيئاً ثم غادر جبل العهود، بعدها  
تحرك نحو جدار چارتين بحصانه، ووقف على هضبة قريبة منه ينظر  
إلى الدخان الأسود الذي كان يواصل تصاعدته من فوهات الجبال، ثم  
شعر فجأة بهزة عنيفة أسفل قدميه رأى معها صدعًا كبيراً جديداً ينشأ  
في الأرض ويمتد نحو الجدار أمام عينيه، فركب حصانه وعاد إلى جويداً  
من جديد.

كانت الباحة خاوية في ذلك التوقيت، وقف فيها بمفرده يفكر فيما  
قاله الرئيس الدموي بشأن يوم الغفران القادم، وفيما رأه في بركة الدماء،  
وفيما يتوجب عليه فعله، قبل أن يشعر بهزة أخرى أسفل أقدامه أدرك  
معها أن صدعًا أرضياً جديداً قد نشأ في وادي حوران، فعاد إلى مساعديه  
من حاملي أرواح الشامو، وقال بصوت هادئ بمجرد أن جلسوا أمامه:

- سنعود إلى صحراء الجنوب من جديد ونترك مدن چارتين  
للأشراف.

قال أحدهم متعجبًا:

- كيف نفعل ذلك بعد كل ما حققناه؟  
أخرج زفيره وقال:

- كنت أظن أن تغيير القواعد يحتاج إلى القوة فحسب، لكنه لم يكن بهذه السهولة فقط، لقد آثر أشرف چارتين أن يموتوا غرقى على أن يتساوى معنا في حق اكتساب الروح النقية، إن جدار چارتين سينهار يوم الغفران القادم، وقاع بحر أكما المجاور لوادي حوران يغور من الغليان، لقد رأيت ذلك ببني myself، سيصل ارتفاع أمواجه إلى حد الجبال لتكتسح چارتين كطوفان عظيم لن نستطيع مواجهته.

وصمت للحظات ثم قال في حزن:

- سأقيم عهدا في جبل العهود يقضى بعودتنا من جديد إلى ودياننا مقابل أن يحمد حوران براكيته.

سأله أحدهم:

- والأرواح الزائرة؟! ماذا سيكون مصيرها؟  
فصمت مرة أخرى، كان داخل نفسه يعرف أن وادي حوران لن يقبل إلا بإخمادها، ثم قال:

- لا أدرى.

وتابع بعد هنيهة:

- لكن الشاموا لا يخضعون لأحد، لن أستطيع إخمام أرواحكم بأي حال من الأحوال، سيكون قرار إخمام أرواحكم متروكاً لكم.

نظروا إلى بعضهم البعض ولاذوا بصمتهم، إلى أن قال أحدهم في النهاية:

- سنطليع ما تراه صائبًا سيدى.

وقال آخر الجملة ذاتها، ثم قالها آخر وأخر، حتى قالوها جميعاً.

تذكر آدم نفسه وهو يقف أمام النهر الجاف ليلاً بعد تلك الجلسة يفكر في حلمه الذي تحطم أمام قوة تفوقه كثيراً، وتذكر حديثه الذي صرخ به لنفسه وهو يلقي حجراً نحو أخدود النهر الجاف في غضبٍ شديد:

- كنت أظن أنتي أستطيع تغيير مصير قومي لأنني امتلكت القوة لذلك، لكن هذا البلد الملعون كتب علينا العنة طيلة الدهر.

تذكر ذلك الوميض المفاجئ الذي أتى إلى ذهنه في ذلك الوقت عن جبال روافد النهر الجاف المجوفة، لم يكن زارها بنفسه من قبل، لكنه رأها في ذاكرته بتفاصيلها كأنه عاش فيها لفترة طويلة، لم يعلم إن كانت روحه هي ما أحضرت إليه ذكريات حامل قديم لها، أم شيء آخر أحضرها إلى ذهنه، رأى في ذاكرته بعدها السفن وهي تتحرك في روافد النهر الجاف الممتلئة بمياه بحر كما لتحمل الصخور الضخمة إلى الشمال في سهولة ويسر، نظر إلى النهر الجاف أمامه وتذكر مصبه الذي ينتهي عند جدار چارتين، ثم نظر إلى الفراغ أمامه وهمس إلى نفسه:

- أيكون النسالى القدامي قد وضعوا في حسبانهم أن يهزموا بحر أكما إن ثار من جديد؟!

لحظتها استحال إلى هيئته الزائرة، وهبط إلى أخدود النهر الجاف وركض فيه نحو الجنوب، ينبعط مع منعطفاته الحادة، وينحدر مع منحدراته المفاجئة، ويقفز بين الحين والآخر مع الحفر الكثيرة المتاثرة في أرضه دون أن يتوقف ليستريح إلا إن تملّك منه التعب إلى حدٍ كان الاستمرار بعده سيوقف قلبه، قبل أن يواصل ركضه من جديد، ثم طلع النهار فصعد الجبال الجانبي للصيد في وادٍ رمليٍّ قريب، وشرب من ينبوع ماء فيه، قبل أن يعود مرة أخرى إلى أخدود النهر الجاف ويوالى ركضه فيه لقطع مسافة أخرى أطول، قبل أن ينال فترة أخرى من الراحة، ليوالى طريقه بين فترات طويلة جداً من الركض وأخرى قصيرة جداً من الراحة على مدار ثلاثة أيام، إلى أن وصل منطقة الجبال الصلدة في صباح اليوم الرابع ليتأكد مما رأه في ذاكرته خلال تلك الأيام، ثم عاد راكضاً من جديد إلى جويداً بالطريقة ذاتها ليصلها بعد أربعة أيام آخر، إلا أنه انحرف إلى الميناء الشرقي قبل أن يعود إلى مساعديه الذين تعجبوا من غيابه المفاجئ لمدة ثمانية أيام، وسألوه أصغرهم سناً بمجرد أن دخل إليهم واستعاد هيئته البشرية:

- أين كنت سيدتي؟ ظلتنا أن وادي حوران أصابك بمكروه.

قال:

- سأخبركم الآن.

ثم سألهُم:

- أعلم أحدكم شيئاً عن الجبال المجوفة؟

هزَ الجميع رؤوسهم نافيين، فقال:

- لقد تذكرتُها روحِي قبل ثمانية أيام، فذهبت إليها لأتيقن من أمر ما ورد في عقلي وأنا أقف أمام النهر الجاف.

وتتابع عندما انطبع الترقب على وجوههم:

- عندما انهار جزءٌ كبيرٌ من الجدار قديماً وشرع الناس إلى في بنائه لجأوا إلى ملء النهر الجاف بمياه بحر أكما عبر بوابة صخرية محكمة صنعوها في الجدار ذاته كي ينقلوا الصخور الضخمة من تلك الجبال إلى أقصى الشمال في أسرع وقت وأقل جهد عن طريق السفن، قبل أن يغلقوا تلك البوابة للأبد قبل إبادتهم، ويمحو الأشراف كل ما تعلق بطريقه نقل الصخور لسبب لا أعرفه.

ونظر في عيونهم وقال عندما حدثت هزة أرضية من أسفلهم:

- ربما استطاع وادي حوران هزيمتنا في هذه المرة، لكننا قد نستطيع هزيمته في جولة أخرى قادمة دون أن نخاف على قومنا من أمواج أكما.

سؤاله أحد الشبان أمامه متعجبًا:

- كيف؟!

قال:

- الشيء الذي قد نستطيع به التغلب على بحر أكما هو أسطول من السفن التي تستطيع الرسو عند تلك الجبال حين تهاجمنا أمواجه، سفنٌ سريعة ذات أشرعة ومجاديف تستطيع الجريان في مجاري النهر عند امتلاءه بماء كي تصل في أسرع وقت إلى الجبال الم gioفة، لتكون قممها المطلة على الرواقد مرفاً الناسالي لركوب تلك السفن.

وأردف موضحاً بنبرة واثقة:

- بين كل مناطق الجنوب سيتأخر إغراق منطقة الروايد بعض الشيء بعدهما جُوفت عشرات الجبال الضخمة هناك بحرافية شديدة وثُقبت أسقفها بثقوب كبرى لتصرّف أكبر كمية من الماء في بواطنها وممراتها من أجل كسب المزيد من الوقت، وكأنَّ قدماءنا فكروا فيما أفكروا فيه وصنعوا لنا الخطوة الأصعب.

- سنقوم نحن بالخطوة التالية، لدينا عشرة آلاف نسلي ولا يوجد في الميناء الشرقي إلا سفينتان، لن تحمل الواحدة منها أكثر من مائة شخص، سيغادر مائتا نسلي زائر مُنا على متن السفينتين إلى شمال بحر أكما، إن أهلها يجيدون صناعة السفن السريعة القوية.

وأشار إلى أربعة من الشبان أماماه، وقال:

- ستكونون بين المائتين كقادة لهم، أبحروا إلى هناك، واصنعوا مائة سفينة كبرى من تلك السفن مما أخذت منكم من وقت وجهد، لا تكلُّوا ولا تملُّوا، واعلموا أن تغيير القواعد اللعينة لن يأتي إلا بهدم جدار چارتين، وستكون سفنكم طريق النساى للنجاة.

وتتابع:

- سأعقد عهداً آخر مع وادي حوران يحفظ أرواحكم مهما طال الزمان، ليأتي اليوم الذي تثور فيه أرواحنا من جديد ولو بعد ألف عام، سيكون هذا الأوان الذي تعودون فيه إلينا لتحملوا النساى خارج هذه الأرض الملعونة، ووقتها لن أنتظِر وادي حوران حتى يهدم الجدار، سأحطمه بنفسي.

نظروا إليه جميعاً في صمت، فقال:

- ثقوا بي، ربما فاتتنا فرصة تغيير القواعد هذه المرة، لكنها ستأتي مرة أخرى مستقبلاً، أعدكم بذلك.

ونظر إلى الشبان الأربعة مرة أخرى، وقال:

- حين تعودوا بسفنكم دقوا طبولكم واسلكوا مجرى النهر الجاف إلى جبال روانده، سيكون باقي النسالى في انتظاركم هناك. فأوّلأوا برؤوسهم إيجاباً في طاعة.

تذكرة آدم نفسه وهو يشاهد السفينتين تبدآن في إبحارهما وعليهما شبان النسالى في هيئتهم البشرية قبل أن يركض بحصانه نحو وادي حوران من جديد، ويدلف إلى جبل العهود، ويقدم دماءه إلى بركته ليظهر له الرأس الدموي على سطحها بعد امتلائها بالدماء، فقال:

- لقد جئت لأبرم عهداً دموياً أجب به چارتين مصير الهلاك.

قال الرأس بصوته الرنان:

- يحفظ وادي حوران القواعد والعقود والبلاد.

قال:

- سأعود بالنسالى إلى وديانتنا في الجنوب من جديد، وسنعيد بأنفسنا نقش القاعدة الثانية التي توصي بنقل الروح الندية لأجنة الأشراف، والأئمة لأجنتنا في باحة جويداً، مقابل أن تُخمد براكيين حوران.

غطس الرأس في الدماء، ثم خرج من جديد بعد بضعة دقائق، وقال:

- لن تنسى چارتین لك هذا الجميل أنها النسلى، لكنك جئت طالباً  
للعهد وفي العهود يُملي الأقواء شروطهم.

ستخدم أرواح الزائرين ممن لا يحملون أرواح الشامو الذين لا  
يخضعون لأحد، وستُسلب منك قوة استدعائهم حتى تفارق روحك  
جسدك الحالى، أما حاملو روحك من بعدك فلن يستطيعوا  
استدعائهم إلا هنا بعهد دموي جديد يدفعون ثمنه الذى نحده،  
وسينسى الأشراف وچارتين ما حدث منكم مع غروب شمس يوم  
الفبران غداً، عرفاناً لك بهذا الجميل.

صمت القائد النسلى مفكراً، ثم هز رأسه إيجاباً في النهاية، وقال:

- أريد عهداً ثانياً مع وادي حوران.

قال الرأس الدموي ساخراً:

- يبدو أن النسلى أحب عهودنا.

قال في جدية كبيرة:

- لقد رحل خمس رجالى عن چارتين بعدما أخذت أرواحهم  
الزائرة، أريد إبرام عهداً يضمن لي حفظ حوران لأرواحهم  
الزائرة بعد فناء أجسادهم مهما مضت السنين.

ضحك الرأس وقال:

- لا يحفظ حوران أرواح خصومه، وأنت ورجالك خصوم لنا.

قال القائد:

- سأقدم روحى ثمناً لهذا العهد غداً في باحة جويداً.

غطس الرأس في البركة على الفور، وغاب وقتاً أطول هذه المرة، ثم ظهر أمامه مجدداً، وقال في لؤم:

- حسناً سيوافق حوران على إتمام العهدين، لكنه وضع شرطين لعهدك الثاني، الأول سيعلنك قاضي الأشراف شريفاً جداً في باحة جويداً، وبذلك ستكون روحك ملكاً لنا، لتنتقل بين مواليد الأشراف دون أن تتذكر شيئاً عن حياتك النسلية، وتسرى عليها قواعدهنا مثلها مثل أي شريف في بلادنا، أما الشرط الثاني: فستظل أرواح الزائرين المغادرة تائهة في ظلام البلد الذي يأوون إليه بعد فناء أجسادهم، إلى أن تسكن أناساً هناك تجري في عروقك دماءهم إن استدعوا من جديد.

تذكرة آدم ما جرى في ذهنه في تلك اللحظة، كان يظن أن الأمر سينتهي عند تقديمه لروحه ثمناً، لكنه لم يحسب أن يضع حوران لعهده شرطين كان أقلهما يجعل من عودة الراحلين إلى چارتين بعد موته أمراً مستحيلاً، كذلك تذكرة الحيرة وقلة الحيلة التي أصابته وهو يقول:

- وإن رفضت هذين الشرطين؟

قال الرأس:

- لا يجبر حوران أحداً على عهوده.

فسأله:

- وإن ارتكبت روحـي الشريفة جريمة، هل ستحال إلى نسلية من جديد؟

قال الرأس في مكر:

- هذا إن رأى القاضي ذلك، كم من جرائم ارتكبت وُعْفي عنها.  
ضم شفتيه وهز رأسه إيجاباً، ثم سأله:

- وهذه الأرواح التائهة كيف ستسكن هناك أنساً يحملون دمائى إن  
عشت باقى الزمان شريفاً؟

وجال في ذهنه لحظتها أنه لو وافق فسيكون قد سلم بيده أرواح زائريه  
للاشراف الذين سيكونون من نسله، فقال الرأس:  
- هذا ما أستطيع تقديمه لك.

ثم صاح بصوته الرنان:

- إن الأمواج تتعالى ولم يتبق على يوم الغفران إلا أقل من يوم، إن  
أردت المضي في العهدين فاشرب من الكأس الدموية التي يحملها  
قاضي الأشراف غداً في باحة جويدا قبل منتصف النهار.

رأى آدم في بركة الدماء بعد ذلك آلاف النسالى وهم يغادرون  
نحو الجنوب من جديد، ثم رأى نفسه وهو يقف على راية عالية أمام  
ثمانمائة من النسالى الزائرين يتقديمهم الأربعه المتبقين من الشامو،  
كانوا ينظرون نحوه في حزن لأنهم يودعونه قبل أن يهبطوا على ركبهم  
ويستحيلوا برغبتهم إلى هيئتهم البشرية، بعدها زأر زئيره الأخير فقد  
الباقيون هيئتهم الزائرة واحداً وراء الآخر، قبل أن يستحيل هو الآخر إلى  
صورته البشرية ويركب حصانه ويركض ناحية باحة جويدا.

تذكر نفسه وهو يمضي إلى البوابة الجنوبية للباحة، حيث وقف سادة  
الأشراف في انتظاره بينهم قاضيهم السمين الذي كان يحمل في يده كأس  
الدماء، صرخ نديم في رأس آدم وهو يرى القائد النسلي يتقدم نحوه:

- لا تجعلها .

لكنه وجده ينظر إلى الدخان الكثيف فوق شرق چارتين وإلى الشمس التي كانت توشك على انتصاف السماء قبل أن يمدد يده إلى القاضي ويأخذ الكأس ويتجرع منها، وما إن انتهى وأعطى القاضي الكأس من جديد حتى وجد جنود الأشراف يمسكون به، ويكتبون عنقه وأطرافه بسلسل حديدية ثقيلة للغاية، نظر إلى السادة، فقال القاضي في برود:

- سينسى الأشراف ما فعلته مع غروب الشمس، ما زال هناك وقت لتطهير روحك الآثمة قبل أن تتال صفة الأشراف.

وأشار إلى الجنود بيده، فبدأوا يجرّونه إلى داخل الباحة بين المحشدين من الأشراف الذين أفسحوا لهم طريقاً وهم يلقون الرمال فوقه ويصبّون لعناتهم وسبابهم عليه، ثم صعدوا به إلى المنصة فشدّوا السلاسل المقيدة لأطرافه وعنقه في كافة الاتجاهات بقوة شديدة، قبل أن يأمر القاضي بجلده بالسياط.

تذكر آدم بعيون دامعة ذلك الألم الشديد وتلك السياط تتوالى على جسده دون رحمة، تذكر أعين أشرف چارتين الذين عفا عنهم وهو يصيحون فرحاً مع تألمه بشدة أمامهم، تذكر نفسه وهو يفكر في أنه لم يعد يستطيع استدعاء أرواح الزائرين من جديد، وجد عروقه وعضلاته تتنفس رغمما عنه فصرخ عالياً كي يقاوم ثورة الروح الزائرة في داخله خشية أن يعود حاملو أرواح الشامو لإنقاذة فيُقتلون، كان يعرف أن نصفهم يقود النساى إلى صحراء الجنوب فيما يقود نصفهم الآخر المائتين إلى الشمال عبر بحر أكما، إلى أن ذار بقوه رغمما عنه فارتعب الجنود من حوله، حدّق آدم في الدماء ونطق في ذهول:

- النسلي المُكْبَل في رسمة زهير كان أنا؟!!

نظر إلى نفسه وهو يسقط على أرض المنصة خائراً القوى تنزف الدماء من جسده الممزق بالسياط، قبل أن يعود إلى هيئته البشرية ويُجر إلى خارج الباحة حيث أرکعه الجنود أمام فارس، كان يحمل سيفاً، نظر بعينيه نحو الشرق متبعاً، كان الدخان الكثيف المتتصاعد إلى السماء قد بدأ في التلاشي، نظر من جديد إلى الفارس أمامه وتمتم إلى نفسه:

- ستتغير القواعد يوماً ما.

آخر ما تذكره كان نصل السيف وهو يعلو إلى السماء قبل أن يهوي إليه.

احتفى كل شيء أمام آدم بعد ذلك، وقال الرأس:

- ظننت أنتي سأستطيع الحفاظ على روحك مدى الحياة، لكنك لم تعش سوى ستة قرون بين الأشراف قبل أن ترتكب جريمة جعلت القاضي الأحمق يقر إعدامك في باحة جويدا لتعود روحك للنسالى من جديد، لكن تذكر أنتي حافظت على عهدي لك ونسى الأشراف ما حدث منك ومن النسالى مع غروب شمس اليوم الذين عادوا فيه إلى وديانهم.

نطق صوت نديم في رأس آدم في حالة من الصدمة:

- عاشت روحنا ستمائة عام بين الأشراف؟!

ثم وجد آدم نفسه ينطق بصوت نديم إلى الرأس:

- ماذا حدث لمن رحلوا إلى الشمال في هذه القرون؟!

قال الرئيس:

- لا أعرف كيف كانت حياتهم قبل أن تفني أجسادهم، لكن أرواحهم التائهة لا تزال تسكن الجبال المظلمة شمال بحر أكما، يدقون الطبول في انتظار اليوم الذي يسكنون فيه أجساد قوم يحملون دماءك إن استدعوا من جديد.

وببدأ صوت كطبيل الأفراح يخرج من بركة الدماء، فأكمل الرئيس:

- من يسمع أصوات طبولهم المتداخلة مع عويل الرياح يظن أن أفراحهم لا تتوقف أبداً.

ثم سكت مُنهيَاً كلامه، وذاب داخل الدماء، بعدها بدأ منسوب البركة يقل شيئاً فشيئاً حتى جفت تماماً، فقال صوت القائد النسلي في رأس آدم محدثاً نديم:

- لا أتذكر شيئاً من سنواتي بين الأشراف، لكنني كنت على ثقة وأنا أشرب من كأس الدماء أن روحي ستعود إلى النسالي من جديد مهما طال الزمن، لعل نسلياً ممن يحملون روحي يستطيع تذكر ما فعلته، ويبحر إلى الشمال ليكمل الخطوة التالية بإنجاب أطفال ينشأون هناك من أجل حمل الأرواح التي هاجرت حين نحتاجها.

لكن بعدما عادت روحي للنسالي من جديد لم يستطع استدعاء الروح الزائرة من حامليها خلال قرون طويلة غيركما، ولم يتحمل ضجيج الذكريات في رأسه إلا هذا الفتى، ربما أخطأت بموافقتني على شروط حوران لكنني قبلت جميعها من أجل النسالي.

وهذا من نبرته وهو يكمل:

- لقد عرفتمنا الآن ما حدث في الماضي، وعرفتمنا لماذا لا نستطيع استدعاء أرواح الزائرين خارج هذا الجبل، صار قرار الشاب في يده فقط يا نديم، بدمائه فقط تسرى العهود.

وسلت، نظر آدم إلى السماء عبر فوهة الجبل فوجد الشمس تقترب من منتصفها، ظن أن نديم سيصرخ في رأسه ليسارع بإبرام العهد الجديد كي يستدعي الزائرين، لكن صوت نديم سكت تماماً في داخله، وواصل صوت القائد النسلي سكوته كذلك، لتهداً الأفكار الصادحة جماعتها في رأسه وكأنهما تركا له اتخاذ قراره، فقال لهما في نفسه وهو ينظر نحو البركة الجافة:

- لم يكن نيلي لروحهما مصادفة، ولم تكن معيشتي بين الأشراف ليصبح زهير ابن أخي الفارس كيوان صديقي الوحيد مصادفة، ولم تكن روبيته لصورتي القديمة مع عميه ليخبرني عنها مصادفة، ولم تكن مغادرة خالي سيرين لأرى صورة الرامية في هذا التوقيت مصادفة، كان مقدراً لي أن يحدث كل هذا، لا أعرف متى قد يعود من رحلوا من الزائرين بسففهم، لكنني سمعت الكثيرين يتحدثون عن جدية الفارس كيوان في إبادة النسالى هذه المرة.

سأقيم عهداً مع دماء حوران من أجل استدعاء الزائرين الباقيين في چارتين، أرى أن نديم يشق في تلك الرامية كثيراً، سأنقذها من أجلك يا نديم، وسأنقذ النسالى من أجل ما فعلته لهم أيها القائد العظيم، مهما كان الثمن الذي سأقايض به وادي حوران.

ثم غرس أظافره في جرح صدره الذي كان بالكاد أوقف دماءه، وجرّها بقوّة إلى اليمين، فنزف من جديد، ثم مد يده بدمائه فوق البركة

لتتساقط قطراتها إلى أرضها، فبدأت الدماء تساب إليها من شقوقها، لتمتلئ رويداً رويداً مرة أخرى، حتى امتلأت عن آخرها، فظهر الرأس منزوع الأعين على سطحها، وقال بصوته الذي صار مزعجاً لآدم:

- يحفظ حوران القواعد والمعاهود والبلاد.

قال آدم بصوت قوي:

- لقد أتمتْ عهداً قدِيمَاً على نفسي بـألا أستدعي أرواح الزائرين إلا في هذا الجبل، وقد جئتُ اليوم لأقيم عهداً جديداً كي أستدعيها من جديد كچارتيني حصد روحه في باحة جويداً ويحمل روح الشام الأول التي لا تخضع لحوران.

قال الرأس:

- لكل عهد ثمنه، وفي حوران بالمعاهود إن دفع الثمن الذي يحدده.

قال آدم:

- إني أسمعك.

غطس الرأس في الدماء وغاب لدقائق، ثم ظهر من جديد وقال:

- ستنستدعي الأرواح الزائرة كما طلبت، ولكن من يمت منها سيحصد حوران روحه يفعل بها وبقوتها ما يشاء.

قال آدم:

- هذا يعني أنها لن تخضع لي بعد ذلك؟

قال الرأس:

- نعم، من يمتلك حوران روحه منهم لن يخضع لك من جديد وإن مر عليه ألف ألف عام.

وصمت لثوان قبل أن يقول:

- ما لم تمتلك قوتك الكاملة، وهذا لن يحدث إلا إن تم العهد الدموي الأول، وقدّم النسالى ذبيحهم الشريف على صخورنا.

سكت آدم مفكراً، كان يفكر في ذكريات القائد القديم، وما رأه خلال المعركة الكبرى التي انتصر فيها الزائرون القدامى على الأشراف، وهمس إلى نفسه وهو يتذكر القوة التي يتمتعون بها:

- ليس من السهل أن يموتو ما لم يمتلك الأشراف قوة غير متوقعة، وإن مات بضعة منهم وانضموا إلى الأشراف يستطيع الباقيون هنا الانتصار عليهم.

ووجه حديثه في نفسه إلى القائد الزائر وقال:

- أعدك أنتي سأحافظ عليهم.

فقال الرأس مقاطعاً تفكيره:

- ليس هذا الشرط الوحيد فحسب، هناك شرط آخر؛ إن أتممت هذا العهد ستخرج من هنا بذكرياتك فقط، سيرحل عنك حاملو روحك السابقون وذكرياتهم جميعاً، وجميع الذكريات التي أحضروها لك في الأيام السابقة بعد بلوغك، وب مجرد أن تغادر حوران ستتمنى أنك جئت إلى هنا، ستعود كما عشت دوماً بذكريات سنواتك الستة عشرة لا تحمل ذاكرتك إلا أحلاماً مبهمة لا تجد لها تفسير.

قال آدم معتراضاً:

- لكنني عشت هذه الأعوام كشريفاً!

قال الرئيس:

- إذن ستكمِّل حياتك بعد خروجك من هنا كشريف يحمل في داخله  
قوَّة يخضع لها النساٰلِ الزائرون الأحياء.

قال آدم:

- هذا يعني أنني سأكون خصمهم؟!

قال الرئيس:

- بل ستكون أشد الخصام.

أدرك آدم في رأسه لماذا وضع الشرط الأول، أراد وادي حوران أن يكون هو القوة التي تستطيع إيقاف الزائرين، وسمع صوت القائد القديم في رأسه يحدثه:

- لا تفعل، لقد تعاهد الزائرون على الخضوع لأوامرِي، إنه يسعى لامتلاك أرواح الزائرين جميعهم، إنها مكيدة من الأشراف، لا تفعل أرجوك.

تجاهل آدم صوت القائد في رأسه، وسأل الرئيس:

- لماذا تكره النساٰلِ إلى هذا الحد؟

قال الرئيس:

- إنهم مجرمون ويستحقون من العقاب أشدُّه، ولم يجلبوا لهذا البلد إلا العار، على عكس الأشراف المخلصين، انظر في الدماء.

نظر آدم في دماء البركة، فرأى صفوفاً كثيرة من الأحصنة تحمل فرساناً يرتدون دروعهم حين حدّق في وجوههم وجد بعضهم بشريين

وآخرین زائرين فيما تصطف من خلفهم مدافعاً ضخمة ذات فوهات  
واسعة، ثم رأى نفسه مرتدياً درعه ويقف بحصانه في الصفوف الأولى  
من ذلك الجيش عندما قال الرأس:

- سيكون جيشاً عظيماً يحمي البلاد، وأنت ستثال المجد كفارس  
شريف بعيداً عن أولئك الجرميين.

شعر آدم وكأن قائداً حربياً يحدثه، فقال وهو يواصل النظر إلى نفسه  
بين الفرسان:

- ومتى أستطيع تذكر ذكريات حاملي روحي وما حدث هنا من  
جديد؟

غطس الوجه ثم عاد بعد وقت قصير:

- ستنذكر في حالة وحيدة، إن خالق نسلٍ واحد لا يخضع لك  
عقيدته في القتل، حين تسنح له فرصة حقيقية لقتلك ويعفو عنك  
رغم علمه بكونك ألد أعدائه.

وأردف بصوته الرنان:

- اشرب من دمائنا قبل أن تجف البركة إن أردت إتمام العهد.  
ثم ذاب في الدماء، فرأى آدم على سطح البركة الذي بدأ يتناقص  
شيئاً فشيئاً باحة جويداً يحتشد فيها ألف الحاضرين، بينهم جنود كثر  
يحاصرون نسالى عرايا الصدور فيما يصعد إلى المنصة جنديان يجرّان  
الرامية مُكبلة اليدين والقدمين ليوقفاها خلف الفارس كيوان الذي كان  
يقف كالتمثال في منتصف المنصة، تذكر لوهلة حديث الرجل الذي زاره  
في بريحا وحدثه بما فعلته هذه المرأة من أجل النسالى وهو يرى عيون  
النسالى الباكية في الباحة وهم ينظرون إليها، ثم رأى وجه الرامية الذي

بـَدْلَتِهِ السُّنُوَاتِ بـَعْضِ الشَّيْءِ عَمَّا كَانَ يَقْرَأُ ذَاكِرَتِهِ وَهِيَ تَغْمِضُ عَيْنِيهَا  
عِنْدَمَا نَهَضَ الْقَاضِي مِنْ مَوْضِعِهِ لِيَبْدأُ فِي تِلَوَةِ حُكْمِهِ، بَعْدَهَا اخْتَفَى كُلُّ  
شَيْءٍ مِنْ أَمَامِهِ وَلَمْ يَجِدْ إِلَّا صُورَتِهِ المَنْعَكَسَةُ فِي الدَّمَاءِ كَأَنَّ الْوَادِي يَنْتَظِرُ  
قَرَارَهُ، هَذِهِ رَأْسَهُ إِيجَابًا ثُمَّ مَدِيَّهُ إِلَى الْبَرَكَةِ وَمَلَأَ رَاحِتَهَا بِدَمَائِهِ وَرَفَعَهَا  
إِلَى فَمِهِ وَتَجَرَّعَتْ، وَقْتَهَا اهْتَزَتِ الْأَرْضُ مِنْ أَسْفَلِهِ هَذِهِ مَفَاجِئَةٌ دَامَتْ  
لِثَوَانٍ قَلِيلَةٍ ثُمَّ اخْتَفَتْ، نَظَرُ حَوْلِهِ بَعْدَهَا لَمْ يَعْرِفْ مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ فِي ذَلِكَ  
الْمَكَانِ الغَرِيبِ، رَأَى سَلْمًا صَخْرِيًّا يَصْعُدُ إِلَى فَتَحَةٍ تَشَبَّهُ بِبَابٍ فَرَكَضَ نَحْوَهِ  
وَصَعَدَ درَجَاتِهِ لِيَخْرُجَ مِنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ، ثُمَّ شَعَرَ أَنَّ قَوَاهُ تَخُورُ وَجْسَدَهُ  
يَرْتَجِفُ كَأَنَّ إِعْيَاءً مَفَاجِئًا أَصَابَهُ، قَبْلَ أَنْ يَسْمَعْ صَهْيلَ حَصَانِهِ، فَهَبَطَ  
صَخْرُ الْجَبَلِ مَسْرَعًا نَحْوَهِ وَامْتَطَى مَنْتَهِهِ بِصَعْوَدَةٍ بَعْدَمَا اشْتَدَ إِعْيَاؤُهِ،  
لَيَرَكِضَ بِهِ دُونَ تَوجِيهٍ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ سَقَطَ بِجَسَدِهِ فَوقَهُ فَاقِدًا وَعِيَّهُ، لَمْ  
يَنْهَضْ إِلَّا عِنْدَ عَبُورِهِ النَّهْرِ الْجَافِ إِلَى مَدْخَلِ جَوِيدَا، لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ أَتَى  
إِلَيْهَا، وَلَمْ يَتَذَكَّرْ سُوَى أَنَّ الْهَيَاجَ الشَّدِيدَ أَصَابَهُ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَّةَ  
بَعْدَمَا رَأَى حَلْمَهُ الْمُبَهِّمِ الْمُعْتَادِ الَّذِي تَقْتَلَهُ فِي الرَّامِيَّةِ، وَجَدَ الْجَمِيعَ  
يَرَكِضُونَ فِي صَرَاخٍ شَدِيدٍ وَهَلَعَ كَبِيرٌ، سَأَلَ أَحَدَهُمْ:

- مَاذَا حَدَثَ؟!

أَجَابَهُ الرَّجُلُ وَعَلَى وَجْهِهِ فَزَعٌ كَبِيرٌ:

- لَقَدْ تَحَوَّلَ النَّسَالِيُّ إِلَى وَحْشٍ يَهَا جَمُونَ الْأَشْرَافِ فِي الْبَاحَةِ.  
دَبَّ الْخَوْفُ فِي قَلْبِهِ وَفَكَرَ أَنْ يَرَكِضَ بِحَصَانِهِ بَعِيدًا، لَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ  
خَالِتَهُ سِيرِينَ جَاءَتِ إِلَى جَوِيدَا مِنْذُ أَيَّامٍ، وَصَدِيقَهُ زَهِيرٌ لَا يَزَالُ هُنَاكَ،  
فَسَأَلَ الرَّجُلَ أَنْ يَدْلِلَهُ إِلَى طَرِيقِ الْبَاحَةِ، ظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ، فَقَالَ  
آدَمُ:

- إن خالتي وصديقي عمري هناك.  
فأشار له الرجل ناحية الجنوب قبل أن يتركه ويواصل ركضه.



حين وصل إلى الباحة كان القتلى والجرحى يتاثرون فيها بكثرة، ولم يكن هناك نسالى زائرون، هبط عن حسانه مؤنباً نفسه بأنه تأخر، وببدأ يبحث بين الجثث عن خالته سيرين لكنه وجد نسليين زائرين كانوا يختلفان عن باقي الزائرين الراكضين نحو الجنوب يلتقطان ويركضان نحوه، ركب حسانه سريعاً وفرّ نحو منطقة جبلية بعيدة عن الطريق الذي اندفع فيه بقائهم، فتبعاه، ظن أنه أفلت منهما بعدهما توغل في كثير من المرات الجبلية المتشعبة إلا أن أحدهما ظهر له على حين غرة وانقض على صدره بمخالبه، فسقط عن متن حسانه، اقترب منه ذلك الزائر وكاد يقتله لولا أنه صرخ فيه في أمل مفقود كي يتوقف، فحدث ما لم يتوقعه وتوقف الزائر بالفعل مطيناً له قبل أن يتركه ويركب بعيداً، بعدها هاجمه الزائر الآخر، فأمره بأن يتوقف فحدث الأمر ذاته، بل استعاد ذلك النصلي صورته البشرية، فكتب له بلجام حسانه على الفور، وعاد به إلى جوبيدا ورأسه يفكر مستغرباً في سبب استجابة هذين النسليين له، حتى وصل إلى جنود الأشراف، فقيدوا أطراف النصلي وعنقه بأغلالٍ حديدية، ثم اقتادوه معه إلى دار الأمن حيث التقى صديقه زهير في تلك الليلة وأخبره عن استطاعته إخماد أرواح وحوش النسالى.



## صحراء الجنوب بعد معركة الروافد:

تواتى كل شيء في ذهن آدم وهو يركض بهيئته الزائرة ويطلق زئيره الرهيب بعدها لم تطلق غفران بارودها نحو رأسه، تذكر كل شيء حدث له في بريحا في الأيام التي سبقت يوم محاكمتها، وتذكر كل شيء حدث في جبل العهدود، أدرك أنه كان سبباً في نيل وادي حوران أرواح الزائرين الذين ماتوا، وأدرك أنه تذكر كل ذلك بعدها لم تقتله غفران النسلية وقتما لم يكن هناك فرصة لقتله أكثر سنواً من ذلك.

عندما استحال إلى هيئته البشرية ووقف ليلتقط أنفاسه في ممر جبلي تذكر مرة أخرى غفران وهي تنزل سلاحها جانبًا، فهمس إلى نفسه لاهثاً:

- ارتكب الأشراف خطأً عمرهم حين حولوها لنسلية.

تذكر الجيش الذي رآه في بركة الدماء والذي يضم فرساناً من الزائرين والأشراف يصطف خلفهم مدافعاً كبرى عرف بعد كل ما حدث ورأه أنها مدافعة الجدار، وحدث نفسه في حسرة:

- سيقضون على ما تبقى من النسالى في غمضة عين.

ففكر في أن يعود إلى النسالى من جديد، لكنه عاد وفكر في الذهاب إلى وادي حوران لعله يستطيع تغيير شيء أو تقديم عهداً يجنب به النسالى ما سيحدث، وصاح في نفسه محمساً:

- إنك قائد الزائرين، على مر الزمان كنت أقوى الأرواح في چارتين.  
ثم استحال مرة أخرى إلى هيئته الزائرة، وواصل الركض نحو  
الشمال.



عندما اقترب من جويدا استعاد هيئته البشرية المتعبة إلى حد الموت بعد ذلك الطريق الطويل، ثم عبر أحدود النهر الجاف إلى شرقه دون أن يمضي إلى داخل المدينة، وواصل الركض جاراً قد미ه حتى وصل إلى الطريق الرملي المؤدي إلى وادي حوران، فاستحال إلى هيئته الزائرة من جديد وأكمل ركضه بسرعة أكبر وهو يصرخ داخل نفسه:

- لا بد وأن هناك طريقة ما لإيقاف الأشراف.

لكنه لم يكمل ميلاً واحداً في ذلك الطريق حتى وجد نفسه ينجدب بفترة إلى الهواء وينقلب جسده رأساً على عقب، أخذ الأمر ثوانين منه ليستوعب أنه وقع في شرك من شباك متينة شلت حركته تماماً بعدها تكُور جسده في داخلها، حاول الإفلات منها بكل طاقتة وهو يطلق زئيره القوي، لكنه لم يستطع، نظر إلى الرافعه الفولاذية المعلقة بها تلك الشباك، ثم نظر إلى جنود الأشراف الذين ظهروا من أسفله رافعين بنادقهم نحوه، وأدرك أن تلك المصيدة أعدت خصيصاً من أجله.



## (١٨)

في قفص فولاذي ضيق مُغطى بالقماش الأسود الثخين كان آدم يقبع بهيئته البشرية يتضور جوعاً دون أن يدرِّي شيئاً عما يحدث في الخارج أو كم مضى من الأيام منذ اصطياده، وكلما استحال إلى هيئته الزائرة وحاول إبعاد قضبان القفص الفولاذي عن بعضها سمع لسعة السوط على القفص من أجل إسكاته، فيزداد هياجاً ويواصل بكل طاقتة محاولاتة لإبعاد تلك القضبان وهو يطلق زفيره الرهيب، فتشتعل ضحكات الجنود المكلفين بحراسة قفصه، ليعود بعدها إلى هيئته البشرية المتعبة في قلة حيلة، وينادي في تعب إليهم دون أن يراهم:

- أريد أن أقابل الفارس زهير.

لكنَّ أحداً لم يُجبه قط، فيصرخ إليهم متسللاً الإجابة:

- هل زحف الفارس كيوان إلى الجنوب؟

إلا أنه لم يكن يُجاب إلا بطرقعة سوط في الهواء تجفل جسده، فتثور روحه غضباً من جديد، قبل أن تهدأ سريعاً دون أن تغير من الأمور شيئاً، لتمر أيامه في ذلك القفص المعتم يوماً وراء الآخر في عزلة تامة لا يصله بالعالم الخارجي إلا فتحة ضيقة للغاية في الغطاء القماشي كانت تُفتح على أوقات بعيدة كي يلقي إليه أحد الجنود بكسرة خبز مُبللة بالماء لا يزيد حجمها عن حجم إصبع من أصابع يده، وكأنهم تلقوا أمراً بالإبقاء

عليه حيّا. إلى أن شعر فجأة باهتزاز القفص الذي يحتويه فأدرك أنه بدأوا في نقله من المكان الذي وضع فيه طيلة تلك الأيام، ثم وجد القفص يتارجح به يميناً ويساراً مع الهواء فتذكر وهو يتثبت بالقضبان ما فعله الفارس كيوان أمام عينه مع من اعتقلوا من النساى الزائرين بعد فشل هجومهم على مدافن جويدا.

حاول طرق القفص والصرخ عالياً وهو على هيئته البشرية إلا أن ذلك لم يفعل شيئاً سوى ازدياد تأرجح قفصه في الهواء، بعدها أزيل الغطاء القماشي فجأة عن قفصه فأغمض عينيه مع اشتداد ضوء النهار، إلى أن استطاع الرؤية فوجد قفصه معلقاً بسلسلة حديدية سميكة تتدلى من طرف رافعة حديدية تشبه الهلال كان طرفها السفلي مثبتاً في عربة حديدية كبرى يحمل سطحها قدرًا كبيراً يمتدّ بمحض يتتصاعد منه البخار وُضع أسفل قفصه مباشرةً، أما ما جعل حدقي عينيه تتسعان ذهولاً فكانت صفوف الجنود والفرسان الكثيرة جداً التي أحاطت بالعربة التي تحمله، ألف مؤلفة من راكبي الخيول تعكس الشمس نورها على دروعهم وخوذاتهم على امتداد بصره في كل جانب. قبل أن تطلق الأبواق وتُدق طبول الحرب بالإيقاع ذاته الذي دُقَّت به أثناء تحركه مع زهير في الجيش الصغير الذي تلقى هزيمته على يد النساى في منطقة الروايد، لتبدأ الصفوف في التحرك جنوباً في تماّغ يقودهم الفارس كيوان الذي رأه يتقدم الصفوف بنفسه هذه المرة، ليتأرجح قفصه بشدة فوق قدر الحمض مع بدء العربة تحركها مع الصفوف، فتشتبث بقضبان القفص بقوّة وهو ينظر إلى الفارس كيوان متعجبًا مما يحدث؛ لماذا لم يقتله في المعسكر الشمالي مثلما فعل مع الباقين؟، ولماذا آثر اصطحابه معه إلى الجنوب وهو يعلم أن أغلب النساى الزائرين قد أخمدت أرواحهم ومن

تبقى منهم فليسوا في چارتين من الأساس ولا أمل في عودتهم؟، حتى وإن كانوا قد عادوا واصطحبه معه من أجل إخمامهم، فسيلقي بنفسه في القدر المذيب ولن يفعلها، ثم نظر خلفه مع ذلك الصرير الذي تعالى إلى حد الضجيج، فرأى الخيول تجرّ عشرة مدافع من مدفع الجدار في الصفوف الخلفية مُخلفة وراءها غباراً عظيماً تصاعد إلى عنان السماء، لم تكن نفسها المدفع التي كانت تواصل إطلاق قذائفها العابرة من فوقهم نحو الجنوب، كذلك رأى عربات كثيرة تحمل صهاريج كبرى لم يعرف محتواها، كانت تتحرك هي الأخرى في مؤخرة الحشد، فأدرك أن كيوان قد جمع كل جيشه وتحرك على رأسه مع قادته نحو جبال الروافد كي يحقق هدفه بالقضاء على النسالي، وربما دفعه غروره للقضاء عليهم أمام عينه قبل التخلص منه.

حاول استحضار القائد النسلي في رأسه أو نديم، لكنه لم يستطع وكانهما قد أنهيا مهمتهما في وادي حوران، حاول البحث عن زهير بعينه بين الصفوف لكن العثور عليه كان مستحيلاً وسط كل تلك الحشود المشابهة ما لم يتحرك إليه زهير بنفسه، فكر أن يستحيل إلى هيئته الزائرة كي يتعرفى من ذلك الدوار الذي أصابه من تأرجح القفص لكن قواه كانت خائرة للغاية، فاستلقى في إعياء شديد على قضبان أرضية القفص ينظر نحو الجبال المشابهة على جانب الطريق وكلما جال في ذهنه ما فعله بالنسالي الزائرين وما ينوي كيوان فعله في الباقيين بعد أيام قليلة تساقطت دموعه رغمما عنه، قبل أن ينهض عن استلقائه بصعوبة عندما أطلق بوق مفاجئ مع انتصاف الشمس السماء توقف بعده الحشد عن التقدم، ونظر متربقاً إلى الفارس كيوان الذي صعد بحصانه تلاً مجاوراً كان ارتفاعه عن الأرض يشبه ارتفاع منصة الباحة، لستدير

جميع القوات ناحيته بأمر من فارس آخر، بعدها قال بصوت جهوري  
موجهاً حديثه لهم:

- كما تعلمون أنَّ اليوم كان من المفترض أن يكون يوم غفران هذا الشهر، ولكنْ لم يكن هناك وقت للاحتفال بعدما أقسمت أنتي لن أحفل إلا بعد القضاء على أولئك الأنجالس .. إلا أنَّ وادي حوران أمدَّ أشراف چارتين بمنحة عظيمة مع انتصاف شمس هذا النهار، سعينا إليها كقيادة چارتين منذ عهد طويل، والآن صارت ملكاً لنا، لقد اكتسبت أرواح بعضكم أرواحاً ضاربة مثل التي كنا نحاربها في الأوقات الماضية، لها مثل قوتها وبأسها، وتخضع لوادي حوران ولـي بعدما قدمتُ دمائى سعيَا لها في جبل العهود قبل شهور، لـتـوارث هذه الأرواح بين الأشراف من اليوم، وتـوارث روحـي قـوة السيطرة عليها ما دامت تخضع لـحـورـان.

من لن يحملها منكم فلا يخافها، فلن تؤذـي جـسـداً لا يـحملـ وـشـماـ غيرـ هـذاـ جـاسـوسـ الـحـبـيسـ فيـ قـفـصـهـ، والـذـيـ سـيلـقـىـ عـقـابـهـ أـمـامـ منـ يـحبـوهـ.

قالـهاـ وـهـوـ يـشيرـ نحوـ آدمـ، ثمـ أـكـملـ:

- لقد عاهـدـتـ وـعـاهـدـتـ وـادـيـ حـورـانـ بـأنـ أـقـضـيـ عـلـىـ النـسـالـىـ، إـنـ قدـائـناـ تـحـاـصـرـ جـحـورـهـمـ الـآنـ كـيـ لاـ يـسـتـطـيـعـواـ الفـرـارـ، وـلـنـ أـعـودـ إـلـىـ جـوـيدـاـ مـنـ جـدـيدـ إـلـاـ وـأـجـسـادـهـمـ مـذـابـةـ فيـ أـحـمـاضـنـاـ لـنـتـخلـصـ منـ هـذـاـ الكـابـوسـ لـلـأـبـدـ.

أـدـرـكـ آـدـمـ حـيـنـذـاكـ أـنـ صـهـارـيجـ الـعـربـاتـ فيـ الصـفـوفـ الـخـلـفـيـةـ تـمـتـلـئـ بالـأـحـمـاضـ الـمـذـيـبـةـ، فـطـرـقـ بـيـدـهـ عـلـىـ قـضـبـانـ الـقـفـصـ فيـ تـوـتـرـ شـدـيدـ قـبـلـ

أن يرى رجلاً يرتدي عباءة أنيقة يتحرك نحو الفارس كيوان حاملاً كأساً ذهبية تلمع بقوة مع أشعة الشمس، فدقَّ قلبه منقضاً وتسارعت أنفاسه وهو ينظر إلى كيوان وهو يمد يده ليتناول ذلك الكأس ويتجزع ما فيه، بعدها بلحظات سرَّت حالة من الاضطراب بين الصفوف تحولت سريعاً إلى حالة من الهرج والمرج عندما بدأ بعض الجنود في الإمساك برؤوسهم والصرخ أملأاً بعدما بدأت عضلاتهم في البروز وعروقهم في التمدد رغمَا عنهم لتستحيل أجسادهم رويداً رويداً إلى الهيئة الزائرة، قبل أن يصدر أول زئير بين الصفوف، فالتفت آدم في كافة الجهات بحثاً عن مُطلقه، إلى أن رأه، كان صادراً من جندي مدرع يمتطي حصانه بالصفوف الوسطى، نزع خوذته وألقاها بعيداً ليظهر وجهه الزائر ذو الأنبياء الطويلة، وظل يطلق زئيره وهو ينظر بعينه يميناً ويساراً كأنه لا يدري ماذا حلَّ به، بعدها بدأ الزئير يصدر متالياً من أماكن أخرى متفرقة بين الصفوف فيما اكتست وجوه الجنود والفرسان الآخرين بالاضطراب والخوف اللذين وصلا حد الارتباك، كذلك هاجت الأحصنة جميعها لكن هياجها لم يستمر طويلاً وهدأت بعد وقت قصير على عكس الفوضى التي استمرت بين الجنود دون توقف، حتى أطلق الفارس كيوان باروده إلى السماء، ليعود الهدوء من جديد، فقال بصوته القوي:

- لا يخف أحدكم من شريف زائر، إنني مثلكم لا أحمل روحًا ضاربة، إن قواهم محكومة بدماء حوران ولن تؤدي أحداً منكم.

سيُعاد تشكيل الصفوف الآن، ليتقدم الزائرون بخيولهم للصفوف الأولى فرساناً وجندواً، وليتراجع الباقيون بالصفوف الخلفية، هيا أسرعوا.

وبدون لحظة انتظار وجد آدم الزائرين المدرعين يركضون بأحصنتهم بين الصفوف وهم يطلقون زئيرهم ليتقدموا إلى مقدمة الجيش فيما كان الجنود والفرسان الباقيون يبتعدون عن طريقهم خوفاً وكأنَّ كلام كيوان لم يؤثِّر فيهم، إلى أن تشكَّلت مقدمة الجيش جميعها من الزائرين. لم يكن آدم في حاجة إلى من يخبره بأن أعدادهم تساوي أعداد النسالى الزائرين الذين قام بإخمام أرواحهم وقتلوا سواءً في معركة الروايد أو ليلة الهجوم على مدافع الجدار، عدا أرواح الشامو الذين لا يخضعون لأحد، وهمس إلى نفسه غير مصدق وهو يرى كيوان يتحرك بحصانه بينهم في ثقة وتباهٍ بينما ينحنيون برؤوسهم له في طاعة كبرى:

- كان كيوان من وضع شروط العهد مسبقاً من أجل السيطرة على  
أرواح الزائرين؟!!

في الجبال المقببة كان النسالى يتقوّعون داخل باحاتهم المغطاة عندما اشتد القصف المدفعي للمناطق المجاورة لهم، قال فاضل لففران التي كانت تجلس بجواره:

- كما توقعنا، يريد كيوان الإبقاء علينا في الجبال ليقلل جهد جنوده في ملاحتنا.

هزَّت رأسها متتفقة معه دون أن تنطق، فسألها بعدما شعر بعدم تركيزها مع حديثه:

- ألا زلتِ تفكرين في النقوش التي فسرتها سبيل منذ أيام؟

قالت:

- بلـى، لا أـستطيع منع نـفسي من التـفكير فـيـها، ليـت سـبيل لـم تـقرأها ليـ، لـقد سـئمت تـعلقـي بالـخيـالـاتـ الـمـسـتـحـيلـةـ بـعـدـ كـلـ ماـ حدـثـ وـصـارـ.

نـظـرـ إـلـىـ حـيـدرـ الطـفـلـ الذـيـ كـانـ يـرـكـضـ بـيـنـ الـأـطـفـالـ الـلـاـعـبـينـ وـقـالـ:

- ربـماـ تـكـشـفـ الـأـيـامـ الـقـلـيلـةـ الـقادـمةـ أـمـورـاـ أـخـرىـ، مـنـ يـدـريـ؟

ثم تـابـعـ:

- أـخـبرـنـيـ رـيـانـ صـبـاحـاـ أـنـهـ أـمـرـ جـمـيعـ الـمـعـلـمـينـ مـنـ الـفـتـيـانـ وـالـفـتـيـاتـ مـمـنـ لـاـ يـقـدـرـونـ عـلـىـ الـقـتـالـ بـنـقـشـ مـاـ حدـثـ لـلـنـسـالـىـ خـلـالـ هـذـهـ الـأـعـوـامـ عـلـىـ جـدـرـانـ أـحـدـ الـجـبـالـ الـمـقـبـبـةـ مـنـ أـجـلـ تـأـرـيخـ هـذـهـ الـحـقـبـةـ فيـ تـارـيخـ النـسـالـىـ.

قالـتـ باـسـمـةـ:

- إـنـهـ فـكـرـةـ رـائـعـةـ لـمـ تـخـطـرـ فـيـ بـالـيـ، أـخـبرـنـيـ بـهـ أـيـضاـ أـمـسـ، لـكـنـهـ سـأـلـنـيـ مـؤـكـداـ أـلـاـ أـذـهـبـ إـلـىـ الـجـبـلـ الذـيـ يـنـقـشـ فـيـ الـفـتـيـانـ كـلـمـاتـهـمـ إـلـاـ بـعـدـمـ يـأـذـنـ لـيـ.

قالـ فـاضـلـ مـازـحاـ:

- يـبـدوـ أـنـهـ يـعـملـ عـلـىـ تـحـضـيرـ مـفـاجـأـةـ لـكـ هـنـاكـ.

قالـ ضـاحـكاـ:

- أـتـمنـيـ إـذـنـ أـنـ أـرـاهـاـ قـبـلـ وـصـولـ جـيـشـ كـيـوانـ، سـيـسـعـدـنـيـ ذـلـكـ كـثـيرـاـ قـبـلـ مـوـتـيـ.

فـقاـلـ بـنـبـرـةـ جـادـةـ عـنـدـمـاـ شـاهـدـ رـيـانـ يـدـلـفـ إـلـىـ الـبـاحـةـ الـتـيـ يـقـبـعـونـ فـيـهـاـ وـيـتـحرـكـ بـيـنـ الشـيـانـ يـحـمـسـهـمـ:

- إـنـهـ يـبـليـ بـلـاءـ حـسـنـاـ كـقـائـدـ لـلـنـسـالـىـ.

هزت رأسها إيجاباً وقالت:

- نعم، إنتي أشفع عليه كثيراً، ليس من السهل أن تتحمل مسؤولية اثني عشر ألف إنسان يعلم جميعهم أن الموت يصارع الوقت للانقضاض عليهم، لكن الشبان ييلون بلاه حسناً في استخدام الأسلحة النارية وفي داخلهم حماس كبير للغاية، لن يجدتهم كيوان صيداً سهلاً أبداً إن حاربوا بالشجاعة نفسها التي ظهرروا عليها في نهاية معركة الروافد.

قالت سبيل التي كانت تجلس بجوارهما صامتة طوال الوقت:

- متى قد يهاجموننا سيدتي؟

قالت غفران:

- لا أدري يا سبيل، لكنه لم يعد لدينا شيئاً يخافه كيوان، سيود التخلص من كابوسنا في أقرب وقت، على كل حال لقد أرسل ريان بعض الشبان إلى منطقة الجبال الحمراء كطلائع لنا، إن نجحوا في مغادرة المنطقة الوسطى سالمين قد نعرف موعد قدومه إلى هنا قبلها بيومين على الأقل.

أومأت برأسها إيجاباً في صمت، فقال فاضل وهو ينهض:

- سأذهب لرؤيه بعض الجرحى لعل أحدهم يصير قادرًا على الانضمام للمحاربين، أراكما مساءً.

أومأت إيجاباً، ففادر، ثم قالت غفران لسبيل باسمه وهي تنظر إلى

حيدر:

- إن فتاك محظوظ، لا بد أنه سيكون ذا نصيب كبير في النقوش التي ينقشها النساى الآن.

ابتسمت سبيل في مرارة وقالت:

- أخشى أن يكتبوا عنه أنه خيب رجاءهم هو وأمه، كان من حسن حظه فقط أنك هنا سيدتي، وإن كان النسالى قتلوه حتى وإن لم تعد لدمائه قيمة بعدما أضعتُ الرأس.

ابتسمت غفران وربت على فخذها:

- سيكتبون أنه الشريف الأول من نسل النسالى وأول من نال روحه منهم خارج باحة جويدا، سأحرص على ذلك.

ابتسمت سبيل في امتنان كبير، ثم قالت وهي تنظر إلى ريان الذي كان يواصل تحركه بين الشبان:

- ماذا تتوقعين أن يحدث سيدتي في الحرب القادمة؟  
قالت غفران:

- سيكون من المنطقي أن يربح كيوان إن جاء بكامل جيشه الذي يفوقنا عدداً وعتاداً وتنظيمياً، لكننا سنقاتل بشرف إلى النهاية على كل حال، وكما قال لي ريان أنَّ النتيجة ستكون مريحة لنا في كافة الاحتمالات إما أن ننتصر فنناح حقوقنا أو نموت فنرتاح من هذا العناء، وأنا سأموت وأنا راضية تماماً عن حياتي بعدما كانت مليئة بلحظات مثيرة شتى أفضل كثيراً من حيوات أخرى عشّش فيها الملل من كثرة ركودها.

ضمت سبيل شفتيها مفكرة وهزَّت رأسها إيجاباً، ثم نظرت إلى طفلها الذي كان يواصل ركضه بين الأطفال ضاحكاً، وأطلت النظر إليه في صمت.



في جنوب الجبال الحمراء، كان جيش الأشراف يواصل زحفه الصاخب بينما يستلقي آدم على أرضية القفص المتأرجح فوق قدر الحمض بعينين غائتين في وجهه وجسد هزيل متعب لا يقوى على النهوض بعدما لم يُطعم أو يُسقَ خلال السبعة أيام التي مرّت منذ ثارت أرواح الأشراف الزائرة إلا مرتين فقط كل واحدة فيهم لم تتجاوز القطعة الصغيرة ذاتها من الخبز المبلل بالماء، ومع حرارة الشمس الشديدة التي أفقدته سوائل جسده كل يوم عن اليوم الذي يسبقه شعر أنه لن يستطيع إكمال الثلاثة أيام المتبقية على وصول الأشراف إلى منطقة الروافد وهو على قيد الحياة.

عندما توقف الحشد للتخيم مساء اليوم الثامن اقترب من قفصه شريف زائر وحدق فيه بعينيه الحادتين متفحصا له، نظر له آدم في إعياء وهو مستلق على جانبه وحاول النهوض بجذعه وحدق في عينيه محاولاً إخضاعه له، لكن الجندي الزائر زمبر غاضباً في وجهه قبل أن يُصدر زئيراً قوياً جعل من حوله من الجنود الباقيين يطلقون ضحكاتهم المقهقة في سخرية، بعدها ألقى أحدهم نحوه بقطعة من اللحم المشوي تعلّت بجوار القفص بعيداً عن يده قبل أن تسقط في قدر الحمض عن قصد، فعاد آدم لاستلقائه على جانبه من جديد، وهمس بشفاهه الجافة المشققة وهو ينظر إلى الأشراف الزائرين وهم يتجلّون بين باقي الجنود المُلتقطين في حلقات حول النيران:

- لا يخضعون لي، لست قائدهم.

بعدها تناقلت جفونه من شدة الإعياء فأغمض عينيه في استسلام شديد، حتى عندما أطلق بوق التحرك صباح اليوم التالي إيذاناً بتقدم

الصفوف من جديد لم ينتبه إليه وعيه وكأنَّ عقله بدأ ينفصل عن الواقع الذي يحيط به رويداً رويداً.



في ذلك الصباح كانت غفران تقف أمام صفوف النسالي المصطفين بأسلحتهم النارية في جبل المحاربين تواصل صيحاتها وتوجيهاتها إليهم عندما تقدم إليها ريان وقال:

- ساعطلك قليلاً عن دروس الرماية سيدتي، لقد انتهى الفتيا  
الذين ينقشون أحداث هذه السنوات من أهم جزءٍ في أسرع وقت  
كما طلبت منهم، وهم الآن ينتظرونك لترى ما نقشوه كي يكملوا  
ما تبقى.

فابتسمت وسارت معه إلى الجبل المقصود والذي كان يجاور الجبل المنقوش في داخله أسطول السفن، فتفاجئت عندما وجدت أكثر من ثلاثة فتاة وفتاة يعملون بآلاتهم الحديدية على قشرة الجبل الداخلية والذين توقفوا جميعاً بمجرد أن دخلت إليهم، فقالت لريان في دهشة:

- كل هذا العدد؟!

قال ريان:

- إن الأحداث كثيرة للغاية، ولدينا من المتعلمين كثيراً بفضلك سيدتي، لقد اختار كل واحد منهم جزءٍ يكتبه من وجهة نظره، واستعان بعضهم بي وبالطبع فاضل لتوضيح بعض الأحداث، كذلك اكتشفنا بينهم رسامين ماهرين للغاية.

ثم تقدَّم فتقدَّمت وراءه حتَّى توقَّف أمام جدار كان مُغطًى جزءاً كبيراً منه بقماش الخيام، قبل أن يشير إلى الشبان بأن يسقطوه، فاندفعت الدماء إلى وجه غفران خجلاً عندما سقط الستار القماشي ووجدت خلفه جدارية كبيرة منقوشة تقف فيها على منصة كبيرة يحمل كتفها وشم النسالى فيما تحمل يدها الأخرى كتاباً كانت تتظر فيه كأنها تقرأ منه أمام كثيرين من الرجال والنساء والزائرين الذين يصطفون في صفوف كبيرة أمامها متطلعين إليها، ومن أسفلها حُفرَ:

«سيدة النسالى غفران ابنة خيال، قامت بتعليم الآلاف منهم، وقادتهم في حروبهم ضد الأشراف».

فنظرت إلى ريان في امتنان كبير، وقالت باسمة بوجه محمر:

- شكرًا لك يا ريان.

حنى رأسه باسمًا ثم قال:

- لقد أمرت بكتابة النقوش جميعها بلغتنا الچارتينية الحالية، لعلَّ من يأتي بعدهنا لا يجد صعوبة في قراءتها.

ضحك وقالت:

- سأقرأ جميعها بعدما ننتصر على كيوان.

ضحك، لكن تلك الضحكة لم تدم كثيراً بعدما دلف إلىهما بجواره شاب من الشبان الذين كانوا قد أرسلوا كطلائع للنسالى، وقال بصوت لاهث دون مقدمات:

- إن الأشراف يعسكرون على بُعد يومين من هنا بأعداد لا تقل عن عشرين ألف جندي، وعشرون من المدافع الضخمة.

وابتلع ريقه ثم قال:

- لكن هناك شيء لم تصدقه عيناي، إن هناك نحو سبعمائة زائر  
مدرع يتقدمون صفوف ذلك الجيش.



قال فاضل في ذهول بعدهما اجتمعوا في كوخ القيادة:

- أشراف زائرون؟! كيف ذلك؟!

كانت الصدمة التي تشعر بها غفران قد أجمت لسانها فلاذت  
بحصمتها، فقال ريان:

- لا نعرف، لا بد وأن آدم قد استطاع بطريقة ما استدعاء أرواح  
الزائرين في أجساد الأشراف، لن يستطيع فعلها غيره.

وأردف في ارتباك شديد:

- ظننت أن مقاتلينا بأعدادهم القليلة قد يستطيعون مقاومة جيش  
كيوان، لكن مع وجود الزائرين إلى صفة أيضاً لنأخذ في أياديهم  
دقائق، حتى خيار الفرار غير موجود مع تلك القذائف المستمرة  
التي تحيط جبالنا.

وأضاف بالتوتر ذاته:

- سأمر الشبان بالمقاومة داخل الجبال نفسها، لن نخرج إلى المنطقة  
الوسطى حتى وإن اصطف فيها جيش كيوان بأكمله وصارت آمنة  
من قصف المدافع.

وسكت، لم يجد فاضل ما يقوله، وغض على شفتيه مفكراً في صمت،  
كانت جميع الطرق في عقله مغلقة من كافة الجوانب، ربما كان في داخله

يدرك في الأيام الماضية أنَّ كيوان سينتصر عليهم بجيشه القوي، لكنَّه لم يشعر قط بذلك الارتباك الذي أصابه بعد معرفته بأمر الأشراف الزائرين، حتَّى نطقت غفران إليهما وهي تتظر إلى الفراغ أمامها:

- فلتكن ميَّةٌ شريفة إذن يا رجال كما عزمنا قبل معرفتنا بأولئك الزائرين.

نظرًا نحوها في صمت، ثمَّ أومأ برأسيهما وقالا:

- فلتكن ميَّةٌ شريفة يا سيدتي.

بعدها نهضت وعادت إلى كوخها، وأمسكت برأسها الذي يضج بخيالات مستحيلة عن فرص نجاتهم، إلى أن دلفت إليها سبيل، وقالت:

- لقد أخبرني الطبيب فاضل عن أمر الأشراف الزائرين.

هزَّتْ غفران رأسها في شرود ولم تقل شيئاً، فابتلاعه سبيل ريقها، ثمَّ قالت في ارتباك واضح:

- هناك شيء كان علىي أن أخبرك به سيدتي.



## الفصل (المُؤْخِر)

كان جيش الأشراف يتوقف عند منطقة التلال التي تقع غرب الراشد الأول، بينما يقوم كثيرون من جنده ونُجَارِيه برص ألواح خشبية طويلة وسميكه على الأخدودين الغربيين وتبنيتها معاً بالحبال والمسامير فوق قوائم عمودية خشبية انتصبت في أرض تلك الأخدودات كي يُشيدوا جسرين كبيرين تستطيع القوات العبور من فوقهما مباشرةً إلى المنطقة الوسطى.

قالت غفران لريان وهي تنظر في النظارة المُعَظّمة من أعلى جبل صلد يطل على المنطقة الوسطى:

سيعبرون إلى المنطقة الوسطى بعد ساعة على الأكثر.

ونظرت إلى الزائرين الذين يرتدون دروعاً حديدية ويصطفون بأحصنتهم في مقدمة الصفوف:

- أعتقد أنه سيهاجمنا بالزائرين فقط.

وأعطت النظارة لريان، فقال متعجبًا وهو ينظر فيها إلى جيش الأشراف الكبير:

- لماذا جاء بكل هذا العدد؟ سيموت متباهياً هذا الرجل.

بعدها انسحبا هابطين إلى جواديهما الواقعين عند سفح الجبل وعادا إلى جبل المقاتلين المُجُوف حيث كان شبان النسالي يصطفون بأسلحتهم

يتقدمهم الأربعون الذين خمدت أرواحهم الزائرة وكذلك فاضل الذي وقف حاملاً سلاحه، فتقديم ريان بحصانه ليتحرك أمامهم، وقال بصوت عالٍ بعدما تطلعوا إليه جميعاً:

- لطالما ظلمنا في هذه الأرض وظلمت أرواحنا بعدما حاصرنا العار منذ مولدنا دون ذنبٍ منا، حاولنا إصلاح أنفسنا طبقاً للقواعد اللعينة فقاومونا بكل ما يملكونه من قوة، والآن جاءوا من جديد للتخلص منا، لنرِهم أنتا لسنا لقمة سائغة، من أجل كل من مات ظلماً على أيدي أولئك الظالمين، من أجل كل من ماتوا وهم يدافعون عنا، من أجل النساىي الزائرين، من أجل أنفسنا، ومن أجل نسلنا القادم، فلتضربوا بقوه إلى آخر نفس فيكم، ولتعلموا أنَّ أرواحكم ستكون فخورة بكم إلى أن يفنى هذا الزمان، إما الموت أو الانتصار أيها السادة، وليلحق العار الحقيقي بأرواحهم الآثمة إلى الأبد.

ثم سمع أصوات الطبول العالية تأتي من ناحية المنطقة الوسطى، فقال:

- لقد حانت اللحظة يا رجال، سنقسم على الجبال المأهولة بنسائنا وأطفالنا لنحميهم إلى آخر نقطة دم في عروقتنا، هيّا.

بعدها بدأ الشبان يركضون في جماعات إلى الجبال الأخرى ويدلفون إلى باحاتها فيما تسلق بعضهم جوانب الجبال المُطلة على المرات المشعبة بينها، وتحركت غفران وريان وفاضل بأسلحتهم إلى باحة جبل واديهم للانضمام إلى مقاتليه، واتخذ كل واحد منهم موضعًا خلف ساتر صخري بدا أنه بنى حديثاً من صخور الأكواخ، وانتظروا في ترقب سماع أصوات

الزائرين أو الطلقات النارية وهم يصوّبون فوهات أسلحتهم نحو مدخل الجبل، حينذاك نظرت غفران خلفها بعيداً لتأكد من عدم خروج أي من النساء والأطفال خارج الأكواخ المختبئن فيها في ركن الباحة البعيد، قبل أن تنظر سريعاً إلى باب الجبل من جديد بعدما دوت الطلقات النارية في الخارج ممتزجةً بأصوات الزئير المتعالية.

نادي ريان في الشبان كي يثبتوا، إلا أنهم لم يستطعوا منع القلق من التسرب إلى وجوههم عندما سكتت أصوات الطلقات النارية جميعها في الخارج بعد دقائق قليلة ولم يتبقَّ إلا صوت الزئير.

بعدها بدقائق ظهرت جماعة من الزائرين المدرعين يقتربون بباب جبلهم ركضاً فصوّبوا نيرانهم نحوهم، إلا أنهم واصلوا تقدمهم دون أن تخور قواهم، حتى وصلوا إلى الصف الأول من الشبان المتوارين خلف سواترهم، ووثبوا إليهم منقضين على أنفاسهم بمخالبهم ليسقطوا صرعي، واصلت غفران والباقيون إطلاق نيرانهم وهي تصرخ إليهم:

- صوّبوا نحو رؤوسهم.

سقط ثلاثة زائرين صرعي، تلقى أحدهم أربعة طلقات نارية في رأسه، وواصل الباقيون الاقتراب نحو النسالي، نظرت غفران إليهم وهو يثبون من شاب إلى آخر شاققين الأنفاس، ثم نظرت إلى الأعداد الكبيرة الأخرى من الزائرين التي كانت تواصل تدفقها كالسيل عبر باب الجبل وأطلقت نيرانها بقوة، اقترب منها زائر فصوّبَت نيرانها في تتبع نحو رأسه فسقط صرعيًا قبل أن تتوقف لتعُيِّن سلاحها بطلقاته النارية، ففاجأها زائر آخر ووثب نحوها ضارباً بمخالبه وجهها، فسقطت على الأرض ينزف وجهها بغزاره، انقضَّ عليها الزائر من جديد، ففوجئت

بفاضل يقفز إليه من خلفه ليغرس سكينه بقوة في جانب رقبته أسفل فكه مباشرة فأسقطه صریعاً، نظرت إليه غير مصدقة أنها لا زالت على قيد الحياة، فقال فاضل باسمه وهو ينظر إلى الدماء التي تتدفق من رقبة الزائر بغزاره لتفرق الأرض من أسفله:

- لم تضع دراستي للتشريح هباءً، هيأ.

حملت سلاحها من جديد، وواصلت إطلاق نيرانها نحو رؤوس القادمين منهم، سقط اثنان آخران قبل أن تتفد ذخيرتها مرة أخرى، حملت سلاحاً آخر وهي تركض إلى ساتر قريب منها، وصوّبت طلقاته في تتابع نحو رأس أحد الزائرين فأرداه قتيلاً، فيما كان ريان يواصل إطلاق نيرانه هو الآخر، بينما وثب شبان آخرون بسلاسلهم إلى الزائرين في جرأة كبيرة غير عابئين بما قد يصيبهم، إلى أن نفذت ذخيرة سلاحها مرة أخرى وقلّت أصوات الطلقات النارية من حولها شيئاً فشيئاً مع بدء نفاد الذخيرة في أسلحة رفاقها، فأخرجت سكينها هي الأخرى ونظرت إلى فاضل وابتسمت قبل أن تركض وهي تصيح نحو أحدهم، ووثبت بسكينها إليه لتغرسها في جانب رقبته كما فعل فاضل مع الزائر الذي هاجمها، كذلك ضرب فاضل بسكينه وتر ركبة أحدهم فأسقطه على الأرض لا يستطيع الوقوف عليها قبل أن يضرب رأسه بحجر قريب منه بقوة فعوى متآمراً، فزاد ذلك من حماس الشبان الآخرين الذين ضربوا بسلاسلهم أعناق الزائرين ومفاصلهم، قبل أن يجدوا حشوداً أخرى من الزائرين المدرعين تتدفق عبر الباب لتتقسم إلى جانبيه في صفين وأصلاً تمدهما داخل الباحة الجبلية حتى أحاطوا بهم من كل جانب دون أن يشتباكوا معهم، كذلك توقف الزائرون المشتبكون معهم عن مواصلة القتال ووقفوا ينظرون إليهم بعيونهم الحادة وهم يزمانون

غضباً وكأنهم تلقوا أمراً بذلك، بينما وقفت غفران وفاضل وريان ومن معهم بساكينهم متحفزين يتلفتون في كل جانب والدماء تقطي وجوههم وأجسادهم، بعدها دلف إلى الباحة على حصانه فارسٌ بشري، وقال للزائرين آمراً:

- يريد الفارس كيوان إحضار الجميع أحياءً إلى الخارج.

فحاولت غفران الوثب إلى زائر قريب منها يحمل درعه شارة فارس، لكنه أمسك عنقها بيده واحدة في ثبات قبل أن يصل سكينها إلى رقبته، حاولت التملص منه بصعوبة، لكنها لم تقو بعدما غرس مخالبه في رقبتها بقوة شعرت بها باختناق شديد، بعدها ألقاها أرضاً نحو زائر آخر في غضب، فارتطم جسدها بالأرض قبل أن يمسك بها ذلك الزائر ويُكَبِّل يديها بأغلال حديدية كانت معلقة في درعه، حاول فاضل والآخرون مواصلة الهجوم على الزائرين، لكن قواهم كانت أقل كثيراً من الزائرين الفرسان، فسقط من سقط وكُبِّل من كُبِّل بالأغلال، إلى أن توقف الشبان عن القتال بعدما وجدوا النساء والأطفال المختبئين في الأكواخ يخرجون مستسلمين أمام الزائرين الذين كانوا يُشَهِّرون أسلحتهم النارية نحوهم ويدفعونهم دفعاً للخروج من الجبل، فهُزِّ ريان رأسه في أسف قبل أن يُفْقي بسكينه، ومن بعده توقف باقي الشبان عن مواصلة القتال، فقام الزائرون بتكميلهم جميعاً.



في المنطقة الوسطى، كان جيش الأشراف بأكمله يصطف في تشكيل مربع يشغل نصف مساحتها بالكامل، بينما كان الزائرون يواصلون إخراج النسالي المُكَبِّلين بالقوة ليحشدوهم في دائرة كبرى يحيطها مئات أخرى

من الجنود الواقفين متأهبين بأسلحتهم ومن خلفهم ستة من المدافعين المتراسة في إطار نصف دائري، كانت تلك الدائرة تشغل النصف الباقي من المنطقة الوسطى عدا بعض الحفر العميقية التي كونتها القذائف في معركة الروايد الأولى، فيما كان كيوان يقف بحصانه أمام جيشه ينظر إلى أعداد النسالى وهي تتكاثر داخل تلك الدائرة حتى صار حشدهم مع منتصف النهار يماطل حشد الأشراف في باحة جويدا أيام الغفران.

كانت غفران بين آخر جماعة تقتاد إلى تلك الدائرة، تفاجأت حين وجدت كل هذا العدد من النسالى قد أقتيد إلى المنطقة الوسطى، فنظرت إلى الأرض حزناً بينما كان الزائر من خلفها يدفعها دون رحمة إلى أن أدخلت بين الحشد ومعها فاضل وريان، لكنَّ فارساً كان يقف يراقب النسالى المحشدين أمر باقتيادها إلى مقدمة الحشد.

حين وقفت في المقدمة نظرت إلى فوهات المدافع الموجهة نحوهم، وإلى عربات ذخائرها المتراسة بجانبها، ثمَّ نظرت إلى كيوان الذي كان يتحرك بحصانه أمام جنوده في الجهة الأخرى من المنطقة الوسطى، وقالت:

- خسيس.

بعدها تقدم فارسٌ بحصانه إلى الفارس كيوان، وبعدهما ألقى تحيته العسكرية، أخبره أنَّ جميع النسالى الأحياء قد أخرجوا من الجبال وجمعوا في الإطار الدائري كما أراد، فأمر بأن ينضم الزائرون إلى الصفوف التي تحيط بالنسالى، ثمَّ نظر إلى فارس آخر وقال:

- أعطِ أمراً بتحريك عربات الصهاريج.

فأطلق بوق ذو إيقاع مختلف، فبدأت العربات التي تحمل صهاريج الأحماض المذيبة تتقدم تباعاً من مؤخرة الجيش نحو حفرة عميقة يصل قطرها عشرة أمتار، كانت على يسار الدائرة المحتشد فيها النسالي، قبل أن يدير الجنود مؤخرات تلك العربات نحو حافة الحفرة ويفتحوا صنابير صهاريجها الكبرى ليندفع الحمض بغازة إلى جوفها، نظر فاضل إلى العربات، وتساءل لريان الذي يجاوره في تعجب:

- ماذا يفعل؟!

قال ريان:

- لا أدرى.

ظللت العربات تُقرع حمولة صهاريجها ليتعالى منسوب الحمض داخل الحفرة شيئاً فشيئاً، فيما تحرك جنود آخرون كثيرون في الوقت ذاته للإحاطة بدائرة النسالي مكونين إطاراً من ثمانية صفوف خلف الزائرتين، بعدها تقدم كيوان إلى أمامهم عندما صار منسوب الحمض في الحفرة الصخرية فائضاً إلى حوافها، ونظر إلى غفران التي كانت تقف في مواجهته خلف جنوده تنظر في عينيه، وقال بصوت عالٍ:

- ظننتكم أنكم ستستطعون الإفلات بجرائمكم دون عقاب، وصَوْر لكم غباءكم أنكم قد تستطعون هزيمة قائد جيش هو الأقوى في تاريخ چارتين لتحققا الأذى بالقواعد التي تصون هذا البلد مجرد أنكم شعرتم بقوتكم، اعتقادتم بحماقتكم لأنني سأستغنى بسهولة بما امتلكتموه من قوى فريدة وهبتها لكم باحة جويدا، لكنكم لم تعرفوا قط مع من تتحاربون. هيئات لكم حماقتكم أن القوة وحدها قد تكفي دون الدهاء، لكنني أقف أمامكم اليوم ومعي أقوى جيش عرفته هذه الدنيا لأنني أمتلك هذا قبل أي شيء.

وأشار بسبابته إلى عقله، ثمَّ تابع:

- لأحصل على كل قوة زائرة تمتلكونها قبل أن تضيع هباءً وتخسرها  
چارتين.

بعدها أشار إلى فارس بجواره، فتحرك الفارس للصفوف الخلفية  
ثمَّ عاد وخلفه العربة الحديدية المجرورة بالأحصنة، والتي تحمل قدر  
الحمض المُعلَق فوقه على ارتفاع سبعة أمتار قفص آدم القابع عارياً  
بجسده الهزيل في أرضيته، اندفعت الدماء إلى وجه غفران عندما رأته  
متكورةً على نفسه تظهر نتوءات عظامه أسفل جلده من نحافته، بينما  
كان النسالي من حولها يحدّدون نحوه غير فاهمين ما يحدث، أما زهير  
فكان يقف في مقدمة صفوف الأشراف على حسانه بجوار أبيه دون أن  
يظهر أي انطباع على وجهيهما، فواصل كيوان:

- كان من حسن حظنا أنَّ لدикكم قائداً أحمق مثل هذا الفتى، شاء  
القدر أن يحمل روح أقوى قادة الزائرين ليتحقق لنا ولحوران هدفاً  
انتظره حوران مئات السنين بعدما فشلت الباحة مراراً وتكراراً  
في منح الأشراف أرواحاً زائرة مثلما فعلتها مع العهد الدموي،  
والآن لم يعد له جدوى بعدما أتمَّ مهمته على أكمل وجه، حتى روحه  
ليست ذات جدوى.

ونظر إلى جانبه عالياً، ووجهَ كلامه إلى آدم ساخراً:

- لترني إذن كيف تحمي النسالي من مصيرهم المحتوم أيها الشامو  
الأول، لترني كيف تحمي غفران هذه المرة، لترني كيف تحمي  
باقي الزائرين من انضمائهم إلى رجالـي.

وأشار إلى فارس خلفه، فخرج ومعه شاب نسلي خائف، تركه يمضي مع بعض الزائرين نحو حشد النسالى ليتجاوز إطار الجنود معهم، ثم بدأ يُشير في خوف نحو بعض الشبان دون غيرهم ليمسك بهم الزائرون ويخرجوهم عن الحشد، أدركت غفران أنهم أصحاب الأرواح الخامدة التي لم تستطع الثورة من جديد بعد معركة الروايد، وبعدهما جُمعوا أمام الحشد بأغلالهم، بدأ الزائرون في دفعهم دون رحمة نحو الحفرة المليئة بالحمض على يسارهم، حتى أوقفوهم على حافتها متباورين ووقف زائر واحد خلف كل شاب منهم، ثم دقت طبول الإعدام التي لطالما عُزفت في باحة جويدا، فنظر النسالى المحشدون جميعهم نحو الشبان في رب، ثم انتهت الطبول من عزفها، فزار الزائرون بقوة، ثم حملوا الشبان المُكبلين وألقوا بهم إلى سطح الحفرة الفائض بالحمض كأنهم يلقون صخوراً كبرى في الماء لتغوص أجسادهم في أعماقه قبل أن تهدأ زوبعة سطحه سريعاً وكأن شيئاً لم يحدث، بعدها بلحظات صدر صوت الزئير تباعاً في أماكن مختلفة من صفوف جيش كيوان، ورأت غفران بعينيها جندياً يتحول من هيئته البشرية إلى هيئته الضاربة، فقال كيوان:

- سيحمي هذا الجيش چارتين إلى الأبد، أما أنتم، فإلى ظلمات الجحيم بلا رجعة.

ثم أشار إلى الزائرين فحملوا جماعة أخرى من حشد النسالى لا يقل عددها عن خمسين رجلاً وامرأة ظلوا يصرخون وهم يحاولون التملص منهم بينما كانوا يتقدمون بهم إلى حفرة الحمض، إلى أن وقفوا على حافتها وألقوا بهم إليها لتسكت صرخاتهم، وقال وهو ينظر إلى غفران:

- أتمنى أن تروقك آخر مشاهد حياتك أيتها الخائنة، إنها ميّة تروقني كثيراً عن ميّة بارود الأسلحة النارية والمدافع، يا له من شيء رائع أن تسمع صرخ خصومك.

وأشار من جديد إلى الزائرين فحملوا عدداً أكبر هذه المرة واقتادوهم إلى الحضرة كذلك ليفعلوا بهم ما فعل بسابقيهم، حاول النسالى المحاصرون بين صفوف الزائرين والجنود التملص من حصارهم، لكن أغلالهم المُكَبِّلة أيديهم وأرجلهم شلت حركتهم.

قال كيوان وهو ينظر إلى آدم:

- انظر إليها الفتى إلى قومك الذي حاربت روحك على مرّ الزمان من أجلهم، إنّهم في حاجة إليك.

كان آدم نائماً منفصلاً عن الواقع الذي يحيطه تماماً، فيما كان الزائرون يواصلون حمل النسالى ليلقوا بهم في جماعات إلى قاع حضرة الحمض المذيب إلى أن فقد النسالى المحاصرين ثلث عددهم في أقل من نصف ساعة، بينما حاول الباقيون الابتعاد خوفاً عن الجهة التي يحمل منها الزائرون النسالى وتدارعوا بظهورهم متلاصقين تهتز أجسادهم رعباً، أمّا ريان وفاضل فوتفقاً في مكانيهما ثابتين وإن التمعت عيونهما بدمع الحزن مع صرخات النسالى المتالية، بعدها سمع صوت زئير قادم من مدخل الجبال الصلدة، كان خمسة من الزائرين الأشراف يجرّون قلّة من النسالى ويقدمون إلى المنطقة الوسطى خلف فارسٍ على حصانه، أغمضت غفران عينيها في حزن حين وجدت المعتقلين من النسالى بعض النساء والأطفال بينهم سبيل وطفلها حيدر ومعهم بكير الذي كان يُجرّ بهيئته الزائرة مُكَبِّل العنق والأطراف وتنشر الجروح

الكبرى النازفة في جميع أرجاء جسده، كذلك حملت أجساد الزائرين الأشراف آثار مخالب واضحة فأدركت أنه لم يستسلم حتى آخر طاقة فيه، ثم تقدم الفارس الذي يقودهم إلى كيوان وقال:

- كانوا يحاولون الفرار سيدني، بينهم ذلك الزائر.

وأشار إلى الزائرين دون أن ينطق كي يجرّوا بكير مباشرةً إلى حفراً الحمض، أما الآخرين فمضوا بهم إلى حشد النسالي المحاصر، وقبل أن ينضموا إليهم صاح بصوته إلى زائر منهم:

- توقف.

كان الزائر الذي يدفع سبيل وطفلها المتعلق بثيابه البالية في ساقها، فتحرك فارس آخر على قدميه وجّر سبيل وطفلها إلى أمام الحشد خارج الإطار الدائري في الوقت الذي كان فيه صوت بكير الزائر قد تحول إلى عواء مكتوم قبل أن يتلاشى تماماً بعدما غاص جسده في الحمض، ثم قال كيوان ساخراً:

- الطفل الشريف الذي لطالما بحثت عنه هو وأمه العاهرة.

لحظتها شعرت غفران أنَّ جسد آدم يتحرك بشغل شديد داخل قفصه ليواجه بعينيه المتألقين حشد النسالي وكأنه أراد أن يرى حيدر.

تابع كيوان موجهاً حديثه إلى قادته هازئاً:

- لطالما خشى منه وادي حوران بعدما نجح الأنجلوس في سرقة صخوره، ولكن من حُسن طالعنا أنه امتلك أمّاً بلهاء لم تعرف قيمة دماء طفلها.

ونظر في عين سبيل بحدّة، وقال:

- بحثت عنك كثيراً لكنني كنت على ثقة أنك لن تفعلها حتى وإن لم أستطع إيجادك، لا تغير المصائر الكبرى بالجبناء أبداً، وأنا منذ رأيتكم في جويداً بعد مولده لهذا الطفل وأنا أدرككم الجبن الذي يعيش في داخلك.

وأشار إلى زائر قريب من سبيل فحملها بين ذراعيه وهي تصرخ بينما كان حيدر يتثبت بيابها باكيًا، فركله الزائر بقدمه بعيداً عنه، تقدّم زائر آخر لحمل حيدر إلى حفرة الحمض فأشار له كيوان بأن يتركه ونظر عالياً نحو آدم الذي كانت عيناه تتظران نحوه في ضعف شديد، وقال:

- إلام تنظر إليها القائد؟ لا صخور لحوران هنا، كنت أود إذا بتكمما في قدر واحد لكنَّ وادي حوران، رغم كل ما حدث، سيغضب إن امتزجت دماء شريف بدماء نسلٍ نجس.

ونظر إلى قادته من جديد، وخاصة أخيه وابنه زهير:

- تعلمونكم أنْ قلبي رحيم بالأشراف.

ثم استدار إلى الطفل حيدر الذي كان يواصل بكاءه، وقال في حدة شديدة:

- ولكن ليس كل الأشراف تشفع لهم رحمة القلوب، حان الوقت ليرتاح حوران للأبد.

وأخرج مسدسه وأطلق باروده متتاليًا نحو الطفل، حتى أفرغ ذخيرته بالكامل، فسقط صريعاً في موضعه تتدفع من جسده الدماء لتُغرق ثيابه والأرض من أسفله بينما كانت سبيل تصرخ عالياً وتركل بقدميها الزائر الذي يتقدّم بها وهي تتظر إلى طفالها الصريح، قبل أن يصل بها ذلك الزائر إلى حافة الحفرة ويقذف بها إليها لتحقّق نحوه في ذهول وهي

تهاوى بظهرها إلى سطح الحمض، لتمض غفران عينيها الدامعتين مع سكوت صوت صراخها، قبل أن تفتحهما على الفور عندما شعرت باهتزازة عنيفة مفاجئة للأرض أسفل قدميها، لتنظر من جديد نحو جثة حيدر القابعة على الأرض غارقة في دمائها فيما تتدلى على جانب رقبته القلادة الصغيرة التي لطالما أحاط حبلها عنقه منذ عاد مع أمه تكسوها الدماء، لتدق كلمات سبيل في رأسها حين دلفت إليها في كوخها بعد معرفتها بأمر الأشراف الزائرين:

- هناك شيء كان على أن أخبرك به سيدتي، إنني لم أتخلص من رأس التمثال النسلي بالكامل، لقد صنعت من صخوره القلادة الصغيرة التي تُطوق عنق حيدر وتتدلى على صدره أسفل ثيابه.

بعدها سمعت غفران زئيرًا قويًا للغاية ينبعث من القفص المُعلق فوق العربة الحديدية لتجد آدم قد استحال إلى هيئة زائرة بجسد قوي ضخم لم تر زائرًا يتمتع به من قبل وبدأ يضرب قضبان القفص بقبضته بقوة، وفي لحظة وجدت الزائرين المحيطين بهم قد برزت عضلاتهم بصورة أكبر وزاد انتفاخ عروقهم قبل أن يستديرروا جمِيعًا بحركة واحدة مفاجئة ليواجهوا جنود وفرسان الأشراف وبدأوا يزمجرون نحوهم في غضب، فيما توقف من يحملون النسالى إلى حفرة الحمض المذيب وأنزلوهم إلى الأرض في رفق ليتعالى زئيرهم عاليًا تابعًا لهم ينظرون إلى آدم قبل أن يركضوا تجاهه بسرعتهم القصوى، فصرخ كيوان في جنوده وهو يركض عائدًا بحسانه إلى داخل صفوف الفرسان:

- أُسقطوا القفص في القدر وأضربيوا المدافع.

فيبدأ جندي العربة يلف ذراع الرافعه الحديدى في حركة دائيرية لتبدأ السلسلة الحديدية في الهبوط شيئاً فشيئاً بالقفص ناحية القدر،

فزار آدم بقوه أكبر وبدأ يؤرجح القفص إلى الأمام وإلى الخلف، فيما ارتبك فرسان المدافع بعدما صار العراك مشتداً أمامهم بين الأشراف البشريين والأشراف الزائرين، وقبل أن يفكروا في جذب أحبال مدافعيهم كانت جماعة أخرى من الزائرين قد انقضت على أعناقهم، أما غفران فكانت تُحدق في القفص الذي يتهاوى ببطء ناحية القدر وإلى آدم الذي كان يتثبت بمخالبه في السلسلة ذاتها التي يتعلّق بها القفص، فيما تشبت قدماه بأعلى قضبان جانبه بعدما بدأ قاع القفص ينغمي في القدر، وواصل أرجحته للقفص بقوه، شعرت أنَّ الأوان قد فات والزائرون يحاولون الوصول إليه فيما يعرقل الفرسان المدرعون وصولهم إلى العربة بكل ما يملكونه من طاقة، إلى أنَّ وجدت القفص يتوقف عن الهبوط فجأة، لم تستطع رؤية ما يحدث بعدما كان عدد الفرسان والزائرين كبيراً للغاية ليختفي ما يحدث خلفهم، ولم تدرِّ أنَّ جندياً شريفاً ضرب رأس الجندي الذي يُسقط القفص بخوذته بقوه على حين غرة، كان أخوها زين الذي انضم إلى محاربي الأشراف مع من انضموا رغمَ عنهم بعد ثورة النساىي الزائرين، نظر لآدم في قفصه ورفع يده نحوه بعلامة النصر، لكنَّه سرعان ما سقط على الأرض صریعاً بعدما صوب فارس متراجلاً نيرانه نحو رأسه، وركض نحو دراع الرافة وبدأ يلتفها بكل طاقتة كي يواصل إسقاط القفص في الحمض، زأر آدم بقوه وهو ينظر إليه حين رأى وجهه، كان زهير، نظر زهير نحوه بوجه خال من التعبيرات وهو يُسقط القفص إلى أن نظر أمامه عندما وجد يداً ذات مخلب تقبض على يده، نظر بعينه مرتعباً في عين الزائر الذي غرس مخالبه في يده بقوه لتساب الدماء منها، ونظر من جديد نحو آدم كأنَّه يستتجد به، زأر آدم بقوه كأنَّه يخاطب ذلك الزائر، فأطلق الزائر زئيره القوي قبل أن يغرس

مخالب يده الأخرى في أعلى عنق زهير، حاول أشراف آخرون تصويب نيرانهم نحو ذلك الزائر لكنه واصل زئيره نحوهم متحملًا بارودهم دون أن يحرك يده عن ذراع الراضة، بعدها بدأ الزائرون يقفزون من فوق حائل الفرسان إلى العربية ليزأروا بقوه وهم يرفعون جانب القدر التثيل ليمبل منقلبًا على جانبه ناحية فرسان الأشراف ويتدفق حمده نحوهم، فتبعدروا متبعادين لتحصدتهم مخالب الزائرين الآخرين، ثم حرروا آدم من قنمه فزار فيهم فاندفعوا إلى النسالي ليحرروا أغلالهم، وهبط سريعاً عن العربية واتجه إلى غفران وقطع أغلالها بنفسه قبل أن ينحني لها برأسه ويلتفت ناظراً إلى راية كيوان التي كانت تبتعد نحو مؤخرة الصفوف وكأنه قرر تأجيل مشاعر لقائهم كي لا يُفلت كيوان، فأحنت غفران له رأسها هي الأخرى، بعدها زار في الزائرين فركضوا إلى عربات ذخائر المدافع وحمل كل منهم قذيفة وركض بها إلى صفوف جنود الأشراف لتحدث تتجيرات عظيمة في الصفوف الوسطى والخلفية، مات فيها من مات وتشتت من استطاع النجاة، أما الصفوف القريبة من النسالي فانقضّ عليها الزائرون يقودهم آدم بهيئته الزائرة والنمسالي الذين حملوا أسلحة الأشراف تقودهم غفران وريان وفاضل لتحصد طلقاتهم جنود الأشراف وفرسانهم المرتبيين، ثم رأى آدم الرايات تقترب من الجسر المنتصب على الأخدود المجاور للمنطقة الوسطى فزار عالياً في الزائرين بجواره فحمل بضعة منهم قذائف من ذخيرة مدفع قريب وركضوا بها عابرين الرافد الغربي الثاني من أقرب نقطة لهم قبل أن يكملوا ركضهم بأقصى سرعة لهم في منطقة التلال بين الراfeldين نحو الراfeld الغربي الأول ويهبطوا إلى قاعه ويواصلوا ركضهم إلى الجسر الخشبي الذي شيده الأشراف ليضربوا بقدائهما أرض الراfeld

الصخرية من أسفله لتفجر محطمةً ذلك الجسر، كذلك قام آخرون بتفجير الجسر الذي يعبر فوق الرافد الغربي الثاني.

كان كيوان وأخوه وباقٍ مساعديه في طريقهم إلى عبور الجسر الثاني قبل أن يحدث ذلك الانفجار العظيم من أمامهم فأصاب أحصنتهم الجنون ورفعت قوائمهما خوفاً من التقدم، بعدها فوجئوا بزائرٍ يحمل قذيفة مدفعة ويركض نحوهم، صوبَ كيوان نيرانه نحو رأسه قبل أن يصل إليهم فانفجرت قذيفته لتطول عدداً آخرًا من الجنود دون أن يُصاب هو أو من معه بأذى، بعدها ركض بحصانه فوق جثثهم المتقطعة نحو منطقة التلال الجنوبيّة بين الرافدين مع استمرار ركض الزائرين بالقذائف في أرض الرافد الغربي الأولى لعله يجد مهرباً آمناً، فتبعده أخيه والباقيون.

أما في المنطقة الوسطى، فكان النسالي يواصلون تصويب نيرانهم بضراوة شديدة نحو من يواصلون القتال من الأشراف عند سفوح الجبال الصلدة، ثم انقسموا بعد ذلك إلى جزئين؛ جزء استمر في قتال الأشراف، بينهم غفران وريان، وجاء آخر بينهم فاضل وقفوا مصوّبين فوهات أسلحتهم نحو أعداد كثيرة من الأشراف ركعوا مستسلمين واضعين أيديهم فوق رؤوسهم، بينما كان الزائرون يلاحقون بقذائفهم ومخالبهم الفرسان الذين يحاولون الفرار من جميع أطراف تلك المنطقة.

بحث غفران بعينيها عن كيوان بعدما بدأت الأعداد تتلاشى بشكل كبير أمامها، وهبطت إلى أرض الأخدود الغربي المجاور للمنطقة الوسطى وبدأت تتفحص الجثث المتقطعة من آثار انفجارات القذائف فأدركت أنه من المستحيل أن تعلم إن كان بينهم أم لا مع تشابه الوجوه المتقطعة

جميعها، ومع ذلك كان هناك يقين كبير في داخلها أنه لا يزال على قيد الحياة، رأت آدم يعبر التلال المطلة على ذلك الأخدود فركضت ناحيته لتبعد فيما كان الزائرون يواصلون عبور الرافاد بجانبها للحاق بالفارين.

حين اقتربت من آدم وجدته يهبط على ركبته وينظر إلى أشلاء الجثث ثم استحال إلى هيئته البشرية وبدأ يتحرك من جهة إلى أخرى متخصصاً لهم، فقالت:

- هل هو ينهم؟

فالتفت نحوها، وقال:

- لم يعبروا الرافاد الأول.

ثم تبَّعَتْ إلى أنه لا يفحص الجثث بل يفحص آثار أقدام الأحصنة السوداء المنطبعة على الصخور من أثر ما تعلق بها من دهس الجثث المقضمّة، وتحرك متبعاً لأثر معين بين آثار الأحصنة الكثيرة ثم نظر نحو التلال الجنوبي وقال:

- لا بد أن أخيه يرافقه، لقد سلكوا هذا الاتجاه.

فسألته متعجبة:

- كيف عرفت؟!

قال وهو ينهض:

- كنت أنا من يصنع حدوات أحسنـة هذه العائلة.

ثم نزع درعاً كبيراً من جثة أحد المقضمين، وارتداه سريعاً ثم استحال إلى هيئته الزائرة وبدأ يركض نحو التلال، فتبَّعَتْه جماعة أخرى من الزائرين ليتجاوز التلال واحداً وراء الآخر وهو يبحث بعينه عن كل

مكان فيها بعدها اختفت آثار أقدام الخيول، إلى أن لمح أخيراً خوذة أحدهم تلمع فجأة مع انعكاس ضوء الشمس عليها، فهبط من التل الذي كان يعتليه وركض دائراً حول تلال أخرى متباورة بسرعة كبرى إلى أن وثب إلى الطريق الذي يركض فيه كيوان وأخوه وأربعة من الفرسان بأحصنتهم، حاول كيوان تصويب سلاحه نحو قلبه لكنَّ درعه تصدَّى لباروده، في الوقت الذي وثب فيه ثلاثة زائرين آخرين إلى الفرسان الأربع وأسقطوهم، سقط والد زهير عن حصانه وصرخ فيه متوجلاً:

- إنتي والد صديقك يا آدم، أرجوك!

لُكْنَه فوجئ بكيوان يُصوِّب باروده نحوه وهو يركض بحصانه مبتعداً، مدَّ يده نحو والد زهير فأغمض الرجل عينيه خائفاً، غير أنَّه فوجئ بآدم ينزع عن رأسه الخوذة التي صنعت خصيصاً للقادة كي تحمي رؤوسهم ووجوههم من مخالب الزائرين، قبل أن يتركه للزائرين الآخرين ويركض إلى كيوان الذي كان يصرخ في حصانه كي يسرع وهو يتلفت بجذعه إلى الخلف ويُصوِّب نيرانه إلى آدم الذي كان يركض خلفه وفي يده خوذة والد زهير، إلى أن فوجئ كيوان بحصانه يتوقف فجأة ويشبَّ على قائمتيه الأماميَّتين بعدما دوَّت بعيداً قدية مفاجئة من تلك القذائف التي كانت تطلقها مدفع الجدار في الأماكن المجاورة لجبال النساى لمنعهم من الهروب، فقد سيطرته على حصانه وسقط إلى الأرض، حاول إطلاق النيران نحو آدم، لكنَّ آدم وضع الخوذة على رأسه بهدوء كبير لتغطي رأسه ووجهه عدا عينيه، وواصل التقدُّم نحوه ممزوجاً وكأنَّه لم يعد يعبأ بكون كيوان المُصوِّب الأفضل في چارتين، أطلق كيوان باروده نحو فخذ آدم بعدما تساقط باقي باروده المُصوِّب نحو نصفه العلوي دون جدوى، لكنَّ آدم لم يتوقف عن المضي، صرخ فيه كيوان بأَنَّ وادي حوران لن يتركه،

وواصل الفتى التقدُّم نحوه، أطلق رصاصة نحوه من جديد، دوى صوت ارتطام طلقة النار بخوذة قبل أن تتطاير بعيداً، فيما اخترقت رصاصة أخرى ساعده دون أن تؤثِّر عليه، بعدها نفذت ذخيرته، فصاح إلى آدم مضطرباً:

- أستطيع أن أتمم لك عهداً جديداً في جبل العهود، بدوني لن تستطيعوا نيل حقكم أبداً.

لكنَّ آدم أمسك برقبته بمخالبه ثمَّ نزع خوذته وألقاها بعيداً، ثمَّ جرَّه وهو ينماز أنفاسه من شدة إحكام آدم قبضته، مرَّ على والد زهير والفرسان الباقيين فوجدهم صرعي تسيل الدماء من أعناقهم فيما يقف الزائرون في انتظاره أعلى التل الذي يجاور جثثهم، أطلقوا زئيرهم حين رأوه يجر كيوان الذي كان يركل الأرض بقدميه محاولاً التملص، عندما أراد زائر آخر أن يتولَّ الإمساك بكيوان بدلاً منه زأر فيه بقوه كأنَّه فريسته التي لا يريد لأحد أن يقاسمها فيها، إلى أن عبر به الرافد الثاني إلى المنطقة الوسطى حيث كانت النيران تشتعل في المدافع جميعها، فيما كانت غفران والبقية يقفون مع الزائرين ملتفين حول جنود الأشراف الذين جرُّدوا من أسلحتهم ودروعهم ورکعوا مستسلمين، نظروا جميعاً إلى آدم وهو يعبر تلال الرافد الثاني جاراً كيوان ليواصل اقترابه به نحوهم، حتى وصل إلى القدر المعدني المنقلب الذي كان يمتلئ بالحمض ويقع أسفل قفصه لعشرة أيام، فزار في اثنين من الزائرين فعدلاً من وضعه، ثمَّ زأر في ثلاثة آخرين فركضوا إلى حافة المنطقة الوسطى الشمالية حيث كانت ثلاثة عربات تحمل الصهاريج لا تزال تقف دون أن يصيبها أذى، فقاموا بجرِّها إليه ليوقفوها بمؤخرتها على حافة القدر المعتمد، نظر ريان وفاضل إلى ما يفعله، كذلك تقدَّمت غفران بعض

الخطوات نحوه، ألقى بكיוان إلى القدر، فصرخ متосلاً وهو ينظر إلى غفران:

- أستطيع أن أقيم لكم عهداً يؤمّن لكم حياتكم في چارتين، سيطّيح بكم وادي حوران.

نظر آدم إلى غفران وهو يمسك بالذراع الحديدي لصنبور الصهريج الكبير كأنه ينتظر قرارها، فهزّت رأسها إيجاباً لآدم بأن يفعلها، فجذب ذراع الصنبور ليندفع الحمض نحو كيوان، فصرخ عالياً، بعدها قام الزائران الآخرين بفتح صنبوريّ العربتين الآخريتين ليندفع حمضهما إلى القدر ليُطلق صرخة أخيرة عالية قبل أن يسكت فجأة، بينما وقفت غفران تنظر نحو الحمض وهو يتدفق من الصهاريج إليه ليتأكل جسده داخل درعه أمام عينيها، حتى غاص تماماً في الحمض الذي ملا القدر عن آخره، بعدها عاد آدم إلى هيئته البشرية وتقدم إليها، وقف على بعد خطوة منها وعينه تمتئ بدموعها، وقال:

- لم أكن أتذكر شيئاً حين أخذمت أرواح النسالى الزائرين.  
وضعت يدها على فمه، قبل أن تحتضنه بقوة والدموع تتتساقط من عينيها حتى بدأت تبكي بشدة، همس في أذنها وهي تحتضنه:

- لقد عاد نديم إلى ذاكرتي كي أثر من أجلك سيدتي، واستدعى أرواح الزائرين، كان يحبك كثيراً.

زاد نشيجها وهي تقول:

- وأنا أيضاً لم أحب أحداً في حياتي مثلماً أحببته، لقد أخطأأت خطأً عمري حين قلتله، ولطالما تمنيت أن أجد فرصة واحدة للاعتذار، أرجوك سامحني.

قال آدم كاذبًا بعدما شعر باهتزاز جسدها بقوة مع بكائها:

- إنّه يقول لي أَنَّه سامحك.

أبعدت رأسها عنه وسألته في ترقب:

- حقًا؟

نظر عينيه إلى ريان وفاضل اللذين كانوا يقفنان على بُعد خطوات منهما، فهزّا رأسيهما إيجابًا كي يؤكّد لها ذلك حتى وإن كان يكذب، فقال لها بجدية:

- حقًا سيدتي، ويشكرك على ما فعلته مع النسالي.

ابتسمت والدموع تملأ عينيها، ونظرت إلى ريان وفاضل وهي تبكي، فتقدما إليها وقبل ريان رأسها ثمّ احتضنها فاضل، بعدها تقدما إلى آدم، فقال ريان:

- إنّ أمك، ديماء، كانت أختي الكبرى.

فاحتضنه آدم باسمًا، ثمّ نظر إلى فاضل في دهشة تمزج بالبهجة وقال:

- إنّي أذكرك سيدتي، لم أتوقع أن تكون هنا.

ضحك فاضل واحتضنه، حينها زأر الزائرون فجأة بقوة جعلتهم يلتقنون نحوهم، فوجدوا دخانًا كثيفًا يتصاعد إلى السماء في أقصى الشمال، فأخرج آدم زفيره غاضبًا وقال:

- براكيين حوران!

سألته غفران:

- أيّ براكيين؟!

قال وهو ينظر نحو الدخان البعيد:

- هذا ما كنت سأخبركم به، لم يكن كيوان فحسب عدونا، إنّ عدونا الحقيقى يكمن هناك، في ذلك الوادى.

وبدأ يروى لهم سريعاً ما حملته إليه ذاكرته منذ قدم حاملو روحه السابقون إلى ذهنه، مروراً بالعهود التي أقيمت على مَرِّ الزمان في وادى حوران، والشروط التي أجبروا عليها من أجل إنقاذ النسالى من أمواج أكما، وكيف وجد الأمل الوحيد في المائتين الذين رحلوا ليصنعوا سفناً خاصة يستطيعون بها ركوب أمواج أكما، وكيف كان الشرط الثاني مستحيلاً لعودة أولئك المائتين بعدما فشل حاملو روحه على مَرِّ الزمان في الانتقال إلى الشمال لإنجاح أطفال يحملون دماءه تستطيع تلك الأرواح التائهة سكن أجسادها عندما تثور أرواح الزائرين من جديد، وقال حزياناً:

- يبدو أنّ حوران لن ينتظر هذه المرة لنُعدّ القواعد، وكأنّ كيوان أقام عهداً بثورة براكيته إن هُزم هو وجيشه على أيدينا، لا أعلم إن كان انهيار الجدار سيتظر إلى يوم الغفران القادم كما فعل في الماضي مع القائد النسلي حامل روحي أم أنّ الأمر سينتهي قبله.

نظروا إليه في صمت، إلى أن قالت غفران متممة:

- لذلك دمّر كيوان الموانئ بمدافعي!  
هزّ آدم رأسه إيجاباً، فسألة ريان:

- في أي بلد تسكن هذه الأرواح الآن؟

قال:

- لا أعرف أي بلد تحديداً، لكنها بلد شمال بحر أكما، ما زالت الأرواح هناك تهيم تائهة في جبالها تصدر أصواتاً كالطلوب يسمعها البعض، تشبه طبول الأفراح.

عقد فاضل حاجبيه، وقال غير مصدق:

- أفراح لا تتوقف أبداً!

اتسعت حدقتا عيني آدم، وقال:

- نعم، يظن من يسمعهم أنّ أفراحهم لا تتوقف أبداً.

قال فاضل وهو ينظر في عينه:

- جبال بني عيسى! لقد سمعتهم من قبل.

نظروا جميعاً إلى فاضل الذي نظر إلى الفراغ مفكراً وتابع:

- إنْ كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أنَّ الشرط الثاني الذي وافق عليه القائد النسلي لعودة أولئك المائتين قد تحقق.

قال ريان متعجبًا:

- كيف؟

قال فاضل بينما يحذق فيه الجميع:

- كان الشرط أن يسكنوا أجساد أناس في تلك البلاد يجري في عروقك دمائهم، أليس كذلك؟

قال آدم مترقباً:

- بلـ.

قال فاضل:

- دماء أبيك وقومه، الفجر.

ثم أردف:

- لم أخبرك وقتها حين عدت بك طفلاً إلى هنا، لكنهم قوم أبيك الذين أبعدتك عنهم، إنهم يسكنون هناك في وديان بني عيسى.

قال ريان متممًا إلى نفسه:

- نعم، هاجرت دينما مع غجري يسكن شمال بحر أكما.  
نظر لهما آدم غير مصدق، كذلك غفران، وسأل آدم فاضل:

- هل أنت موقن بذلك؟

قال فاضل:

- نعم.

فأسأله من جديد:

- كم تأخذ المسافة من أيام بين ذلك البلد وهنا؟

قال فاضل متذكراً:

- عشرة أيام على اليابسة، وعشرون على الماء.

وأكمل:

- هذا إن كانت سفنهم الخاصة التي تحدثت عنها جاهزة للإبحار.  
نظر له في صمت، وكذلك صمت الباقيون، فقالت غفران:

- إن كانوا قد ثاروا مع أرواح النسالى الزائرين حين استدعاهم آدم للمرة الأولى، فهذا يعني أنهم ثاروا منذ ستين يوماً.

ونظرت إلى آدم وسألته:

- كيف نعرف أنهم وصلوا يا آدم؟

قال:

- من المفترض أن يدقّوا طبولهم الكُبُرِي شمال جدار چارتين عند وصولهم.

قالت:

- إذن، فوجودنا في الجنوب بعيداً كل البعد عن سماع دقاتهم.

قال آدم:

- نعم، سأتحرك مع الزائرين إلى هناك من أجل السيطرة على بقية مدافع الجدار، ومن ثم تسلق الجدار للتيقن من وصول تلك السفن إن تناهت إلى مسامعنا دقات طبولهم.

وأردد وهو ينظر نحو الدخان:

- وقتها لن أنتظر وادي حوران كي يهدم الجدار، سأهدمه بنفسي عند مصب النهر الجاف قبل أن تتعاظم أمواج أكما وتجرف السفن بعيداً عن مجراتها، بعدها سأعود ومعي مدفع الجدار لنهدم الجدار بأكمله بعد ركوبنا جميعاً.

ثم أضاف وهو ينظر إليهم:

- ستبقون هنا، لن أكون في حاجة إليكم هناك، كما أن هذه الجبال ستكون مرسى السفن عند وصولها.

أومأوا برؤوسهم إيجاباً، قبل أن تتطق غفران في تردد:

- الآن، قد مات كيوان وتفتّ جيشه كاملاً ما بين قتل وأسرى.

وتلعثم لسانها كأنها لا تعرف كيف تقول كلماتها، فنظر إليها فاضل وهو يعرف ما تفكر فيه، حتى نطق:

- ربما يكون في الباقيين خير إن أزيلت القواعد.

نظر لها آدم وزم شفتيه، وقال:

- بعد كل ما حدث؟!

هزَّ رأسها إيجاباً باسمة، فقال وهو يشير نحو الجنود المحاصرين بين النساى والزائرين:

- ومن أسر من الجنود؟

قالت:

- لن نستطيع إطعامهم، وكذلك لسنا مجرمين لنذبهم في الحمض،  
دعهم يعودون إلى جويدا وإلى مدن چارتين ليخبروا أهلها أن وادي  
حوران لن يهدأ حتى يُفرق بلادهم، وأن يأتوا إلى جبالنا عندما  
يسمعون دقات الطبول شمال الجدار إن أرادوا النجاة.

غض على شفتيه مفكراً وهو يتذكر نظرات الأشراف الشامته  
وضحكاتهم والقائد النسلي يُعدب بالسياط على المنصة أمامهم، ثم  
نظر إلى ريان وفاضل، فبدوا وكأنهما موافقان على كلام غفران، فنظر  
إليها من جديد وقال:

- حسناً، إن جاءت السفن إلى هنا سيصعدون إلى متنها معنا، لكن  
بشرط وحيد.



في الصباح التالي، كانت جماعات جنود الأشراف الغُزل تفادر المنطقة الوسطى مع عدد من الخيول، فيما كانت تقف غفران مع ريان وفاضل تنظر إليهم من أعلى أحد الجبال الصلدة، بينما كان آدم بهيئته الزائرة يقود الزائرين على أحصنتهم بمحاذة الجبال الحمراء منطلقين بسرعتهم القصوى إلى شمال چارتين، أمّا نساء النسالى وأطفالهم فكانوا يقفون مُحدّقين بوجوه حزينة شاردة نحو الحفرة الصخرية التي قَلَ فيها منسوب الحمض قبل أن ينظروا جميعاً إلى دخان براكين حوران مع اهتزاز الأرض من أسفلهم ويعودوا إلى الجبال المقببة.



مع صباح اليوم الرابع عشر من رحيل آدم، نهضت غفران على صوت جلبة كبيرة في المنطقة الوسطى، ركبت حصانها وتبعها فاضل وريان وركضوا إليها ثم صعدوا أحد الجبال الصلدة المُطلة عليها، كان الآلوف من الأشراف يعبرون الأخداد إلىها رجالاً ونساءً وأطفالاً سائرين على أقدامهم أو راكبين عرباتهم أو خيولهم يرافقهم عدد كبير من الزائرين، نظرت غفران إلى فاضل غير مصدقة وهي تراهم يتقدمون بأعدادهم الغفيرة في المنطقة الوسطى ومعهم أغراضهم كلاجئين، وغمغمت:

- هل دُقَّت الطبول؟!

قال فاضل بحدقتين متسعتين:

- أعتقد ذلك.

أما ريان فقال بأسارير منفرجة وهو ينظر إليهم:

- انظروا، لقد التزموا بالشرط الذي اشترطه آدم.

فظنروا إلى الرجال والنساء الذين كانوا قد اقتربوا من جبالهم، فوجدوا الرجال قد خلعوا سترهم وظهر وشم النسالي منقوشاً على جانب صدورهم الأيسر، كذلك نقشت النساء الوشم ذاته على أكتافهنَّ اليسرى العارية.

وهمس فاضل باسماً:

- الآن لن نستطيع التفريق بين أهل چارتين.  
بعدها حدثت اهتزازة كبيرة تعاظم معها الدخان بعيداً أكثر وأكثر، فقال ريان:

- سأمر جميع النسالي بأن يصعدوا إلى قمم الجبال المطلة على الروايد الأربعة.

فأوْمَا إيجاباً، ثم قالت غفران:  
- وُقم بتوزيع هؤلاء كذلك.

فأوْمَا برأسه مُطِيعاً، ثم هبط الجبل مسرعاً بحصانه إلى الجبال المقربة، بينما مكثت غفران تواصل نظرها إلى حشود الأشراف الذين يواصلون سيلهم ليملئوا المنطقة الوسطى أمامها يتقدمهم الزائرون، فقالت لفاضل:

- لم يعد آدم.

في الوقت ذاته، كان باقي الزائرين يركضون بمحاذاة الجدار يُثبّتون قدائف المدافع لتلاصق قواعده الصخرية على امتداده فيما يزار فيهـم آدم بأن يسرعوا بينما يدوّي صوت الطبول قادماً من الجهة الأخرى من الجدار، ليركضوا حاملين ذخائر المدفع إلى أماكن أخرى لم تُثبت فيها

القذائف بعد، إلى أن وصل إلى أخدود النهر الجاف فهبط إلى أرضه مع الباقيين ونظر إلى القذائف المثبتة على جزء الجدار الذي يُغلق مصبه، بعدها نظر إلى الدخان الكثيف المتتساع من وادي حوران، ثم نظر ناحية الجنوب حيث كان يقف مدفعان متاهبان من مدفع الجدار على ضفتَيِّ أخدود النهر الجاف يميناً ويساراً على بُعد مائتي متر من الجدار، ثم ركض في الأخدود هو ومن معه نحوهما، ليزار في الزائرین الواقفين خلف المدفعين، لتنطلق قذيفتهما نحو القذائف المثبتة على الجدار المغلق للنهر الجاف دون غيرها، لتطاير صخور الجدار وكذلك أجسادهم رغمَ عنهم مع ذلك الانفجار العظيم، قبل أن تتدفق مياه البحر عبر ذلك الجزء المنهاج كفيضان كاسح عرف طريقه إلى أخدود النهر الجاف.



في منطقة الجبال الصلدة، كان الجميع يقفون فوق قمم الجبال المطلة على روافد النهر الأربعة عندما رأوا المياه تتدفق كفيضان عظيم إلى الأخداد لتملأها، قبل أن يروا أشرعة السفن تظهر من بعيد بين الجبال المطلة على النهر الجاف نفسه، نظرت غفران إلى غرب الروافد الأولى علىأمل أن تجد آدم قادماً مع الباقيين بعدما حدثت هزة عنيفة جداً دامت لوقت أطول من مثيلاتها، لكن تلك المنطقة كانت خاوية تماماً، قال فاضل وهو ينظر إلى حجم السفن وهي تتقدم نحو الروافد:

- لن تسع الروافد عرضاً لأكثر من سفينة واحدة من ذلك الحجم، ليس من المعقول أن تنتظر السفن في النهر الجاف حتى تُحمل كل سفينة على حدة برِّ كابها.

وابع وهو ينظر إلى السحب السوداء المتعاظمة بشكل غير مسبوق فوق وادي حوران:

- لا أعتقد أن هناك متسعًا من الوقت لذلك.

إلا أنه وجد السفن تُنزل أشرعتها عند وصولها إلى نقطة التقاء الروايد مع النهر الجاف لتسقط مجاديفها الطويلة إلى الماء وتواصل تقدمها نحو الروايد في تتابع حتى صارت الروايد الأربعة على امتداد طولها محشدةً في الوقت ذاته بالسفن المتابعة يفصل بين كل سفينة وأخرى ما لا يزيد عن عشرة أمتار، إلى أن رست السفينة الأولى في كل رايد على الجبل الصلد الذي ينتظر فوقه المستعدون للرحيل، ورفع البخارية البشريون الذين كانوا يُجذبون مجاديفهم عن الماء، رأى ريان فوق كل سفينة زائرين يحملان سوياً مرساة كبيرة جداً تُشبه المخلب قبل أن يلقياها إلى قاع الرايد لتظهر السلسلة الموصولة بها وهي تتدلى من السفينة، ثم رأى أحدهما يتسلق سريعاً صارياً بأوسط السفينة ليثبت طرف شبكة عريضة من الأحبال المغزولة بقائم أفقى بأعلاه قبل أن يُلقي الزائر الثاني بطرف الشبكة الآخر إلى السفينة التي تلي سفينتهم، حيث قام بـبخار فيها بشدّه وثبتته بأرضية سطحها، وهكذا فعلت كل السفن، لتصير السفن كلها موصولة بتلك الشباك العريضة المنحدرة، فيما تدلّت سلام عمودية من الأحبال من تلك الصواري، قال ريان لغفران وفاضل منبهراً:

- لقد حسروا كل شيء، سيركب الجميع عبر السفينة الأولى ثم ينتقلون إلى السفن التالية عبر التزلق على تلك الشباك المائلة.

بعدها زأر الزائرون أعلى السفن، فبدأ الرجال والنساء والأطفال يهبطون سريعاً من الجبال الملاصقة لأول السفن إلى متونها، ومن ثم يصعدون السلالم العمودية على الصواري للانزلاق على الشباك المنحدرة إلى السفن التالية في سهولة ويسير بينما كان يتزايد منسوب الماء من أسفل السفن بصورة سريعة حتى بدأ يغمر المنطقة الوسطى، قال ريان لغفران:

- هيا، سيدتي.

نظرت بعيداً من جديد نحو غرب الراصد الأول وهزّت رأسها إيجاباً ثم تقدّمت وهبطت صخور الجبل ليتقاها زائر ويحملها من خصرها إلى سطح السفينة الأولى، وتحركت بعدها عبر الشباك إلى السفينة الرابعة في الصف، بعدها تبعها فاضل، أما ريان فانتظر للتأكد من ركوب جميع الأفراد وتحميل الخيول والحبوب في السفينة الأولى، إلى أن انتهى الجميع من ركوب السفن عدا الزائرين المدرعين الذين جاءوا مع الأشراف فقفز إلى السفينة الأولى وتحرك إلى السفينة الرابعة حيث انضم لغفران وفاضل من جديد.

كان فاضل ينظر متعجباً إلى البكرة الضخمة الملفوف حولها لفات كثيرة جداً من السلسلة الحديدية الموصولة بالمرساة، وتساءل لريان في دهشة حين وقف بجواره:

- كم يبلغ طول هذه السلسلة؟

قال ريان بالدهشة ذاتها وهو ينظر إليها:

- لا أدرى، وكأنهم صنعوا سلسلة بطول ميل.

عرف فاضل لماذا استعملوا سلاسل بهذا الطول عندما وجد زائراً ياف ذراع البكرة ليُحرّر لفَات أكثر من السلسلة ازداد معها طولها المُلقي في الرأף مع ارتفاع منسوب المياه، لتعالى السفينة شيئاً فشيئاً دون أن تتجرف بعيداً مع وجود المرساة المثبتة في قاع الرأף، بعدها تعالي الزئير بين الرواfeld، وتقدم أحد الزائرين المدرعين إلى غفران وانحنى لها برأسه كأنه يؤكد لها ركوب الجميع، ثم وجدت البخارية يبدأون في إزالة الشباك الواسلة بين السفن، فصرخت فيهم بأن هناك أشخاصاً لم يأتوا بعد فتوقفوا عن إزالة الشباك، ونظرت في قلق كبير نحو غرب الرأف الذي تعالت فيه المياه لتجعل القدوم عبره مستحيلاً، لكن أحد الزائرين هزَّ لها رأسه نافياً كأنه يخبرها بأنَّ من تنتظرون لن يأتوا أبداً، حدَّقت فيه غير مصدقة، لكنَّ ريان نظر إلى الماء الذي صار حولهم في كل مكان، وقال في حزن كبير:

- فعلها الفتى وأمن وصول السفن إلينا كما وعدنا، لكنه أخفى علينا أنه لن يستطيع إحضار المدافع الثقيلة إلى الجنوب مع السرعة التي تُفرق بها المياه الأرض هنا، إنه يعلم أننا في حاجة إلى مزيد من المياه الآن لتساعدنا على الإبحار فوق هذه الجبال، وهذا لن يحدث إلا بهدم الجدار بأكمله، لا أعتقد أنه سيُنْتَظِر حوران حتى يفعلها، سيهدم الجدار من موضعه هناك.

نظرت غفران نحو منسوب الماء المتزايد في منطقة الرواfeld إلى الحد الذي أخفى ثلث ارتفاع الجبال وارتشفت دموعها، كأنها فكرت فيما فكر فيه ريان في داخلها قبل أن يقوله، ولم تُرد تصديق أفكارها، بعدها وجدت الزائر الذي أشار لها نافياً برأسه يجهز قاعدة لإطلاق واحدة من الألعاب التاربة التي لطالما استخدِمت أيام الغفران، ونظر

إليها منتظراً إشارتها. فطنت أنها إشارة متفق عليها بين الزائرين لتأكيد صعود الجميع إلى السفن، ونظرت إلى الأرض بعينين ملتمعتين بالدموع، ثم نظرت إلى المئات المحتشدين في السفن، بعدها نظرت إليه وهزَّ رأسها إيجاباً بأن يمضي فيما يفعله، فزار في الباقين كي يُزيلوا الشباك المائلة بين السفن، ثم أشعل فتيل الألعاب النارية لتعالى إلى السماء ناثرة نيرانها على ارتفاع شاهق جداً، كذلك فعل زائرون آخرون في الروايد الأخرى وأطلقوا زئيرهم، سمعت غفران زئيرهم دون أن تدري ماذا سيحدث بعد ذلك، لم تكن تدرك أنَّ الزئير قد تعالى وقتها في شمال غرب چارتين بعيداً عن الفجوة المندفع عبرها الماء عندما أبصر زائر يقف فوق جدار چارتين تلك النيران المنتاثرة وواصل إطلاق زئيره إلى آدم الذي كان يقف على الأرض بهيئته البشرية ينتظر بفارغ الصبر تلك الإشارة، فأوْمأً للزائر برأسه، ثم نظر شرقاً إلى الدخان العظيم المتتصاعد أعلى وادي حوران، وقال:

- فلتذهب إلى الجحيم أنت وقواعدهك.

قبل أن يستحيل إلى هيئته الزائرة ويُطلق زئيراً كبيراً ويركض بحصانه ومن خلفه الزائرون ليجذبوا أحباب المدافعين المتراسة أمام جدار چارتين على امتداد طوله والمُصوَّبة فوهاتها ناحية القذائف المثبتة على قواوده، لتنطلق قذائفها تباعاً مُحطمَة صخور الجدار، وتندفع الأمواج الشاهقة عبر حطامها نحو چارتين مُغرفةً كل شيء في طريقها.



كان منسوب المياه من أسفل السفن يتعالى أكثر وأكثر، فأدركت غفران ومن معها بأنَّ اللحظة الحاسمة قد اقتربت للغاية، ونادي ريان في الجميع

بأنْ يتسبّبُوا في الحالات المعدنية الصغيرة المثبتة في سطح السفينة من أسفلهم، فتشبّبُوا بها جميّعاً، ووقف هو وفاضل وغفران ينظرون إلى الجزء الظاهر من الجبال المطلة على النهر الجاف في ترقب كبير.

في الوقت ذاته، كانت أجزاء الجدار لا تزال تُفجَّر تباعاً على امتداده لتهاوى أمام المزيد من مياه أكما الكاسحة، بينما كان آدم ومن معه يواصلون الركض بأحصنتهم غرباً بأقصى سرعتهم مُطلقين المزيد من قذائف المدفع المتناثرة على مسافات متساوية أمام الجدار قبل أن تطولهم المياه الهائلة، لتجرفهم في طريقها بأحصنتهم ومعهم مدفع الجدار، تهاوى آدم أسفل المياه لكنه ما لبث أنْ ضرب بآيديه وأرجله بقوة محاولاً مقاومة الفرق حتى صعد إلى سطحها من جديد لينجرف رغمما عنه مع تيار المياه الشديد، نظر بجواره، كان الماء يغطي كل شيء، ثم نظر بعيداً نحو أجزاء الجدار البعيدة التي بدأت تتهاوى هي الأخرى تباعاً أمام الماء الجارف وإن لم تفجرها القذائف، ثم ابتسם وهو يرى موجة عظيمة يصل ارتفاعها مثل الجبال تتعالى أمامه، قبل أن تندفع ناحيته.

أمسكت غفران بيد ريان وقبضت عليها حين وجدت أمواج أكما التي يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجبال تظهر في الأفق خلف الجبال البعيدة، وصاحت في الجميع بأنْ يتسبّبُوا جيداً، بينما حمل الزائر الذي جاء مع السفينة مطرقة كبيرة وضرب بها بقوة ذراع البكرة المُلتف حولها باقي لفّات السلسلة الموصولة بالمرساة المغمورة في المياه، فدارت البكرة في سرعة كبيرة حول محورها مُحرّرة مزيداً من أمتار السلسلة نحو المياه، لتعالى السفن أكثر وأكثر مع المياه العظيمة من أسفلها إلى أنْ داهمتهم الأمواج الشاهقة من كل جانب كالأسود المُنقضة على فرائسها، وقبل أن ينطِق أحد بشيء آخر كان الموج قد غمر السفن جميعها ليغطيها جميّعاً

فيما كانت أجسادهم تطفو وهم يتثبتون بالحلقات المعدنية، بينما كانت بكرات السلالسل المتصلة بالمرساة تواصل لفاتها السريعة مُحرّرة المزيد منها، قبل أن يقل منسوب الماء مرة أخرى عندما ابتلعت الجبال المُجوفة تلك الأمواج الهائلة، لتعالى بهم السفن إلى سطح الماء من جديد وتبدأ المياه الزائدة في التدفق سريعاً إلى جانبي السفينة عبر فتحات تصريف تواجدت فيها، نظرت غفران إلى من معها غير مصدقة بأنّهم قد نجوا من تلك الأمواج، ثم نظرت إلى الجبال من حولها، كانت المياه تغمر كل شيء على امتداد بصرها، اختفت جبال النهر الجاف أسفل المياه واختفت منطقة الرواقد بجبالها وتلالها، لم يعد يظهر إلا جزء صغير للغاية من قمم الجبال الصلدة كأنّها جُزر صغرى، نظرت إلى الجوانب الأخرى من السفينة، لم يكن هناك سوى بحر كبير يطفون بسفنهم في منتصفه، نظرت إلى وادي حوران بعيداً فوجدت الدخان الكثيف المتتصاعد فوقه قد بدأ في التلاشي، بعدها وجدت الزائرين الذين يرافقونهم على سطح السفينة قد عادوا جميعاً إلى هيئتهم البشرية، ونظروا إلى بعضهم وإلى الراكبين في استغراب شديد وكأنّهم لا يعرفون ماذا جاء بهم إلى هنا، لم تعرف إنّ كان ذلك قد حدث بعد انهيار قواعد الجدار وغرق وادي حوران أم أنّ أرواحهم الزائرة قد عرفت طريقها إلى الراحة الأبدية أخيراً بعد انتهاء مهمتها بإيقاظهم، بعدها أفلت أحد البحارين القصيبي الحديدي الذي يُثبت طرف السلسلة في البكرة الضخمة لتسقط السلسلة في الماء بعيداً عن السفينة، قبل أن تتنفس أشرعة السفن من جديد لتبدأ الإبحار نحو الشمال.



## ختام

### بعد عشرين يوماً:

كانت الشمس ساطعة، والأمواج تتلاطم في رفق على جسد السفن التي تواصل تحركها في صفوف متوازية نحو الشمال عندما صاح فتى يجلس فوق قمة صاري السفينة التي يركب فيها فاضل وغفران وريان:

- شاطئ بنى عيسى!

نهض جميع الركاب من جلوسهم لينظروا بعيداً نحو قمم الجبال التي بدأت تلوح بعيداً في الأفق بأسارير منفرجة، تتقدمهم غفران التي تحركت سريعاً إلى مقدمة السفينة لتقف بجوار فاضل، فربت على يدها وقال:

- لقد فعلناها يا غفران.

هزَّ رأسها باسمة، وقالت:

- لقد فعلناها، أيها الطبيب.



على شاطئ بنى عيسى، كانت السفن تنتهي من إزال الراكبين، بينما وقف فاضل يستمع إلى أحد البحارة الذي أشار له نحو جبال قريبة وقال أن الفجر اقتادوهم إليها بعدما استحالوا إلى تلك الهيئة الغريبة ليُجمعوا

أجزاء السفن المُخزنة في كهوفها المغلقة قبل أن يُجبروهم على الإبحار جنوباً، فيما كان ريان يواصل مروره بين الرجال والنساء والأطفال يطمئنهم جميعاً، أمّا غفران فوافت على الشاطئ تنظر بعيداً نحو بحر أكما ومائه الذي ليس له نهاية، حتى اقترب منها فاضل وريان، فقالت وهي تنظر إلى البحر:

- فليخبرني أحدكم أنتي لست عالقة في واحدة من خيالات عقلي.  
ضحكاً، ثم قال ريان:

- لا يستطيع عقلٌ أبداً تخيل ما حديث سيدي، وإن كان عقل أقوى امرأة رأيتها في حياتي.

فابتسمت، ثم قالت بعدما لامست مياه البحر قدميها:  
- أيها الطبيب، إنكَ أكثرنا معرفة بهذا البلد وأهله، فلتقدنا في أسرع وقت بعيداً عن هذا البحر الذي لا أريد أن أراه من جديد، بعدها أريدكَ أن تتفرّغ لي تماماً، فلديّ من التشوهات النفسية ما يحتاج عقوداً للعلاجها.

ضحك فاضل وقال:

- يا له من شرفٍ عظيم، سأكون سعيداً حقاً بذلك.



## بعد أربعة شهور:

كان العشرات رجالاً ونساءً يقفون أمام بيت طوبٌ ينظرون نحو بابه في ترقب كبير بينهم ريان وغفران، قبل أن يخرج إليهم الطبيب فاضل من ذلك الباب ومعه امرأة بطنها كبيرة بعض الشيء كان الخجل يكسو وجهها، ويقول لهم في سعادة كبرى:  
- إنَّ قلب الجنين ينبض.

ليصبح الجميع في فرحةٍ كانت الأعظم في حياتهم على الإطلاق.

تمَّ

## الشُّكْرُ وَتَقْدِيرُ

أود أن أقدم جزيل الشُّكْرُ والتقدير لهؤلاء الذين ساعدوني على مدار  
ثلاث سنوات كاملة كتبت خلالها ثلاثة قواعد چارتين؛

إلى المدقق اللغوي عمر محمد (چوبا) والأستاذة سمر محمد والمبدع  
دولما كريم آدم الذين عملوا بكل طاقتهم لإخراج الروايات الثلاث في  
أبهى صورها.

إلى يمني محمود ود/ تيسير أشرف والمهندس أحمد زردق الذين  
حملوا عندي بكل مودة عبء نقل الكلمات من مئات الأوراق إلى الحاسوب.

كما أعبر عن امتناني الكبير إلى كافة فريق دار عصير الكتب للنشر  
والتوزيع لما قدّموه لي من دعمٍ تعجز الكلمات عن وصفه.  
ودائماً وأبداً إلى رانيا خالد.

عمرو عبد الحميد

# أمواج أكما

كنت أظن أن تغيير القواعد يحتاج إلى القوة فحسب،  
لكنه لم يكن بهذه السهولة قط، لقد آثر أشراف جارتين  
أن يموتو غرقى أسفل أمواج أكما على أن يتساوا  
معنا في حق اكتساب الروح.

تميم الفلاح كريم أدم



www.booksjuice.com  
contact@booksjuice.com  
Book.juice1  
books.juice  
Books\_juice